يُوزَّعُ مجّانًا وَلا يُباعُ

سلسلة

فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟

تدبّرات على مكث في الكتاب العزيز

الشيخ الهادي بريك

محفوظة جميع الحقوق

الطبعة الأولى
1436هـ - 2016 م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أكمل لنا ديننا وأتم علينا نعمته وأسبغها ظاهرة وباطنة ..

الحمد لله الذي رضي لنا الإسلام دينا ..

الحمد لله الذي خصنا ـ والبشرية جمعاء قاطبة إلا من أبى ـ بخير دين وخير شرعة وخير منهاج وخير نبي أبى سبحانه إلا أن يظل عليه وملائكته مصليًا ..

اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ..

هذا كراس جديد وضعت له عنوان ـ ﴿ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: 17] إستجابة لأمره سبحانه الوارد في سورة القمر المكية أربع مرات ﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ ؟ ﴾. كراس بدأت فيه منذ سنوات طويلات ثم حيل بيني وبينه واليوم كلي مضاء وعزم بحوله وحده سبحانه أن أحتسي آخر قطرة من قطراته الندية العذبة أصفى من العسل المصفى ورب العزة. لن أبرحه بحوله سبحانه حتى أتمه أو تحول مصيبة الموت دوني ودونه.

هي قصة طويلة مع هذا الهدي الساحر العجيب ..

قصة التفكر والتدبر والنظر بلسان سؤول وفؤاد عقول كما قال حبر الأمة ..

القرآن ميسر للذكر فما هو الذكر وهل من مدكر؟

ذكر ذلك في كل مرة من المرات الأربع التي تروى لنا فيها قصة قوم أهلكوا بسبب

إعراضهم عن منهجه سبحانه فمن قوم نوح إلى عاد قوم هود ومن ثمود قوم صالح إلى قوم لوط ليقر القرار بآل فرعون.

يروي لنا قصة بعيدة في التاريخ السحيق ثم يعقب في كل مرة بهذا التعقيب ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ؟ ﴾. ماذا يعني ذاك وأي علاقة؟ أربع مرات كاملات في سورة مكية هي من المفصل بل عده بعضهم قصيرًا.

ذلك هو الذي شدني إليه شدًا عجيبًا فطفقت أسعى للذكر علني أكون من المدكرين في حديقة قرآنية غناء سحاء زينتها دوحاتها التي ربت عن المائة. شدني هذا التأكيد العجيب على فريضة الذكر بحسبانه الصراط المستقيم الذي يفضي بصاحبه إلى حياة القلب وذكاء العقل وشحذ الإرادة ومن جمع إليه ذاك إنطلق مسابقًا مسارعًا منافسًا ..

فما هو الذكر ومن هو المدكر؟

الذكر هو ضد الغفلة وربما يكون حد الشيء بنقيضه في أحايين كثيرة أقصر الطرق إلى حسن فقهه كما قال الشاعر : ألا بضدها تتميز الأشياء. هذا الجذر اللساني الثلاثي الصحيح يعني نباهة الإنسان في قلبه أن يغفل عن إستحضار الشيء الذي يريد له أن يحتل له موقعًا في فؤاده. قال عنترة عن حبه عبلة (ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني ..) وقالت أخت صخر ترثي صخرًا (وأذكره لكل مغيب شمس). الذكر إذن هو حياة نفسية داخلية تجعل الذاكر لا يغفل عن إستحضار من يحب أو من يرهب ويخشى. وليس هناك مضاد للذكر سوى الغفلة ومنها النسيان وما إلى ذلك. قال تعالى ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾[البقرة: 152].

كيف يسر القرآن للذكر؟

القرآن ميسر منه سبحانه للذكر أي ينبض بالقصة المروية التي تبين لنا مصارع الأقوام الذين خالفوا أمره وعصوا منهجه فمن يقرؤه يلفى ذلك مبثوثًا في كل صفحة تقريبًا من صفحاته التي ربت عن المائة السادسة قليلا بحسب ما لدينا اليوم من مصاحف. لم أجد شيئًا فيه حيرني وشدني وجعلني أشتبك معه أكثر من أنه كتاب دين جعل ثلثه كاملا

مخصصًا لرواية الماضي السحيق البعيد. وثلثه الآخر مخصص للكون بتضاريسه. وحتى الثلث الثالث الأخير لا يتحدث عن الدين كما نفهمه نحن اليوم. أين الدين فيه إذن؟ من سأل هذا السؤال وصل.

هو ميسر لأنه ممتلئ بالقصة التي لنا منها عبرة ولم تسق قصة إلا لعبرة لنا فيها اليوم وحيثما كنا موعظة نافعة لحياتنا ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: 111]. وهو ميسر كذلك لأنه بلسان عربي مبين وبنظم سلس يفهمه كل أحد حتى دون نشوء التفاسير والتأويل سوى أن لسان الخلف تعجمت لكنته فهو هجين ومن ذا نشأت الحاجة إلى البيان.

والذكر المقصود هو قطعًا إستحضار التالي أو السامع لمصائر تلك الأقوام ـ ومنهم أقوام نجحوا في الإمتحان من مثل قوم يونس ـ كمن يقود عربة نارية كهربائية سريعة فما عليه سوى إستخدام المرايا التي تعكس له ما يجري وراءه وعن يمينه وشماله حتى يضبط سيره ويعدل إتجاهه وفق ما لا يعرضه ولا يعرض أحدًا لأي ضرّ.

قصة القرآن هي المرآة العاكسة التي تجعل التاريخ أمامنا نتفرج عليه ونعي أحداثه كأنه مسلسل سنمائي بمشاهده المتنوعة.

فمن كان بإمكانه أن يقود عربة نارية كهربائية سريعة في فضاء مكتظ ـ والحياة بنا مكتظة دون ريب ـ دون أن يصيب نفسه أو غيره بضر فلا حرج عليه ولا تثريب أن يستغني عن قصة القرآن وعن مطلب الذكر في القرآن.

فهل من مدّكر؟

أصل إسم الفاعل (مدّكر) هو الفعل الثلاثي المجرد الصحيح (ذكر) فهو ذاكر. ومنه الفعل المزيد بحرف واحد والتضعيف نفسه زيادة (تذكر). فهو متذكر. وكلمة متذكر ثقيلة على اللسان في لسان عربي قح سليق شأنه الإدماج والحذف والتوليد والإشتقاق تيسيرًا. لذلك أبدلت بكلمة (مدكر) وهي من فعل (إدكر) التي تعني تذكر. لما تذكر صاحب يوسف في السجن رسالة يوسف إل ربه (أذكرني عند ربك) قيل عنه (وأدكر

بعد أمة) ولم يقل: تذكر ـ لأن التذكر لا يتخلف عن صاحبه الشغوف به أمة ـ أي : تذكر رسالة يوسف لربه بعد زهاء سبع سنين. وهنا كان مناسبًا أن يقول عنه : إدكر ـ والذي يدكر هو مدكر. الفعل الأصلي الأول هو : ذكر ومنه جاء المزيد المقلوب في الآن نفسه : إدكر. قلبت ذاله دالا وزيد ألفًا. بعض الأفعال تقبل مثل ذلك وبعضها يقبل الطاء من مثل (إصطبر) التي أصلها صبر. كما يدخل حرف الدال على بعض الأفعال جمعًا بين الزيادة وبين تحويل جزئي في المعنى من مثل (إزدجر) التي أصلها زجر. لذلك عد الدال حرف زيادة عند بعضهم مثل الطاء والحروف الثلاثة الأخرى المعهودة.

فهل من مدكر معناها : هل من تال لهذا القرآن الميسر للذكر ونبذ الغفلة أن تسير بنا الحياة سريعة نلهث بها وتلهث بنا كمن تبلغ لذته أوجها وهو مستلق فوق ظهر قارب صغير في البحر في مناخ طيب جميل وشمس مشرقة ومنظر بديع فإن إنتبه هذا الرجل إلى أن القارب الذي يسير به حثيثا قد يقتحم به غمرات اليم العميق فيهلك ولا مغيث فإنه يذكر الموت والهلاك والغرق فلا يرخي العنان للذته تقوده لحتفه وهو لا يشعر وإن غفل عن ذلك قيد إلى بطون الحوت. من قرأ القرآن تعرض لتلك القصص فذكر أن مصيره هو مصيرهم هم لو سلك مسلكهم ومن فعل ذلك ظل قلبه حيًا ومن ظل قلبه حيًا تسددت جوارحه أن تقترف الظلم المؤذن بخراب عمرانه. تلك هي الحكاية كاملة قصيرة.

فهل من مدكر أصلها : فهل من متذكر لأنها مسبوقة بقوله ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ ـ فكان مناسبًا أن يقول (فهل من متذكر) ولكن جاءت ثقيلة لا تناسب يسر اللسان العربي ولا يسر القرآن الكريم الذي يفتخر بأنه قرآن عربي بلسان عربي مبين. فقال : فهل من مدكر؟

سرعة الذكر المطلوبة لا تفيها كلمة (متذكر) الطويلة الثقيلة حقها فأبدلت (مدّكر). ليكون بين المعنى وبين المبنى تطابق ويحصل الإعجاز البياني المقصود قصدًا.

وثمة ملحظ آخر يجعل (المدكر) هنا أولى من (المتذكر) وهي أن المدكر ـ كما ورد في حالة صاحب يوسف عليه السلام ـ قد لا يذكر ما عليه سوى بعد فوات ردح من الزمن. والإنسان مبناه الغفلة والنسيان جبلة ولا حرج عليه أن يذكر ما عليه في أول فرصة يسعفه فؤاده بذلك كما حدث لصاحب يوسف بالتمام والكمال إذ المكروه هو تنبه الفؤاد

ومقابلة ذلك بالبرود والسلبية واللامبالاة ولذلك دعينا إلى التلاوة والسماع وبناء علاقة مع القرآن الكريم لأنه يطرد الغفلة ويجعلنا في حالة ذكر شبه دائمة.

فإذا كان التذكر ربما لا يعود إلا قليلا منا ممن تحصنت أفئدتهم ضد غازيات الشيطان فإن الإدكار ـ مصدر إدكر ـ له داعيات مثل داعية صاحب يوسف لما رأى الملك الذي رأى في نومه ومثل داعيات القرآن عندما نتلوه أو نستمع إليه.

كلمات أخرى عن الذكر.

1. ذلك هو معنى الذكر في القرآن الكريم أي الإقبال على القرآن الكريم سماعًا أو تلاوة وهو كفيل بتوجيهنا بقصصه الكثير إلى فتح نوافذ الفؤاد لنفيد عبرًا من الماضي لحاضرنا طردا للغفلة والنسيان والتجاهل والإستمتاع بالدنيا التي تمضي بنا سريعة إلى الموت كما يمضي القارب بصاحبه على سطح البحر فإن إنتبه رد لجمه أن ترمي به في اليم فيهلك وإن غفل هلك.

2. لم يذكر شيء مطلوب منا في القرآن بصفة التكثير والإكثار إلا الذكر فحيث يذكر لا يذكر إلا مقرونًا بالكثرة إلا قليلا جدًا ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[الأحزاب: 41] ـ و﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾[الأحزاب: 35]. وقال عليه السلام: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ ..» ـ لأن الموت خير واعظ وخير مذكر وخير مذكور.

3. أين نحن ـ بل أين تراثنا نفسه إلا قليلا منه غابرًا وحاضرًا ـ من تلك القيمة الصحيحة للذكر؟ قال الشاعر: الصمت أولى. الذكر في تراثنا وفي حياتنا هو حركة اللسان وأحيانًا حركة اللسان فحسب. عندما قال العلماء بحق أن أفضل الذكر هو تلاوة القرآن إنما يعنون بحق أن القرآن يطرد الغفلة ويجعل الإنسان في حالة ذكر أي في حالة يقظة وليس معناه في حالة تسبيح وتحميد وتهليل وتكبير إلخ ،.. بل في حالة أسمى من تلك الحالة وأوصل بالمقصد الأسنى من الذكر ـ وهو حضور القلب ـ وهي حالة الذكر الصامت كما سماه بحق بعضهم أو حالة الذكر الواعي كما سماه آخر بحق كذلك أي حالة الذكر الذي يحيا به القلب عندما يذكر مصائر العصاة.

4. وليس معنى ذلك ـ أبدًا وحاشا قطعًا ـ التهوين من الذكر باللسان خارج التلاوة لهجًا بالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل وغيرها .. ولكن معنى ذلك هو أن تلك الصيغ هي صيغ تساعد القلب على إعادة معانقة الحياة إذ يجتمع للذاكر قول باللسان وذكر بالجنان وهو أدعى قطعًا كمن يستقبل مشهدًا بالصوت والصورة فهو أدعى لحسن الفهم أو كمن يخاطب مخاطبًا يحدثه بلسانه وفي الآن ذاته يستوعب بقلبه ما يقال. وعندما يؤول (ذكرنا المزيف) إلى حركات باللسان فحسب فهل نحن إسرائيليو الهوى أي نظهر ما لا نبطن؟ عندها يصح كلام الشيخ الغزالي عليه الرحمة: (الذكر وظيفة نفسية وليست وظيفة حسية) والدليل على ذلك أن أكثر الذاكرين اليوم بألسنتهم غافلون وأن أكثر الذاكرين بأفئدتهم ـ ذكرًا صامتًا أو ذكرًا واعيًا ـ حاضرون شاهدون. ولذلك إمتلأ القرآن الكريم بالدعوة إلى الذكر الصامت الواعي من خلال الإكثار جدًا من قوله ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ .. ﴾ و﴿ أَلَمْ تَرَ .. ﴾ و﴿ أَلَمْ يَرَوْا .. ﴾ و﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ .. ﴾ وغير ذلك كثير كثير لا يكاد يحصى.

5. **نظرية الذكر في الإسلام** : عنوان يصلح أن يكون مؤلفًا أو كتابًا أو كراسًا لما يحويه الذكر من أقسام يختلف بعضًا عن بعض أجرًا وغنمًا وذخرًا ولما حصل من فراق بين ذكرنا وبين المقصود منه والمرجو منه. بل قل : من بعد ما أصبح ذكرنا غفلة بل هو الغفلة عينها. وقديمًا قيل : إستغفارك يحتاج إلى إستغفار ولعل ذكرنا يحتاج إلى ذكر. ولعل الأيام تفسح بإذنه وحده سبحانه لكراس مثل ذاك.

6. في الذكر حديث صحيح تعلمت منه شيئًا كبيرًا فكان هذا الحديث وحده بما فهمته منه سبب منعرج في حياتي. الحديث نصه: « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إعطاء الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم، فيضربوا أعناقكم وتضربوا أعناقهم قالوا: بلى قال: ذكر الله » [رواه أحمد والترمذي وصححه الألباني].

قرأته كما قرأه الناس قبل عقود فما أوحى إلي بشيء سوى بفضل الذكر ولم أسأل نفسي يومًا ما هو الذكر؟ ولما حصل المنعرج في حياتي سألت نفسي : أنى للذكر الذي

نقوم به نحن اليوم أن يكون خيرًا من الشهادة في سبيل الله (يضربوا أعناقكم) وخيرًا من النصر على الأعداء (تضربوا أعناقهم) وخيرًا من الجهاد المالي الذي يرتفع أجره إلى حد سبعمائة ضعف؟ لا. هذا غير معقول. ولكن الحديث صحيح سندًا. وجب إذن إعادة فقهه. ألفيت أن الذكر المقصود هو إعادة إعمار القلب وإحياء الفؤاد بوسائل كثيرة ـ لا يتسع لها الأوان الآن ـ لأجل تأهيله لخوض غمار الجهاد والمقاومة حتى الشهادة في سبيله سبحانه ولخوض غمار الجهاد المالي سراء وضراء ولخوض الكفاح حتى تحقيق النصر إستجماعًا لأسباب النصر والتمكين والغلبة .. فمن ذكر الله سبحانه حتى تأهل قلبه لذلك وباشر ذلك بقدر المستطاع وعندما تحين الفرصة ـ وهي حائنة لا تتخلف عن الإنسان المبتلى ـ يكون ذكره خيرا من كل ذلك لأنه سبب لكل ذلك ومفض إلى كل ذلك. والعبرة في الدنيا والعمل بالسبب فمن وفر السبب الصحيح بالذكر وأهل قلبه وأعده لتلك الملاحم فهو الذاكر حقًا ويكون ذكره فعلا خيرًا من كل ذلك. ألا ترى أن الجذر في الشجرة مدفون لا يرى ولكنه هو أصل الحياة؟ فالثمرة الطيبة الناضجة ثمرته هو. كذلك السبب الذي هو الذكر هنا. ومن غفل عن الذكر بالطريقة الإسلامية وإبتغاء المقصد الإسلامي منه فلن يقدم نفسه يومًا لمثل تلك المطحنات التي تطحنه مالا ونفسًا. وإذا زعم ذلك فلا تصدقوه.

لذلك يكون الذكر هو معقد الخير كله. لأنه يثمر ذلك كله وهو سبب لذلك كله. أما من يقصره على لسانه أو يذكر قليلا لا كثيرًا فمآله التأخر عن مواقع الردى فلا نصر ولا شهادة ولا جهادًا ماليًا. بل قعود وتخذيل.

لك أن تقول كلمة واحدة : لو كنا اليوم ذاكرين فحسب لكان لنا شأن آخر. ولكنا اليوم نملأ الدنيا ذكرًا والمساجد دعاء ـ والدعاء ذكر قطعًا ـ ولا يتخلف بيت تقريبًا عن تنظيم ختم قرآني .. والثمرة : مزيد من الضعف والشقاء والنكد وتصرم الحبل وما تعرفون وأعرف وما لا تعرفون و لا أعرف .. لم؟ لأننا لا نذكر الذكر المطلوب بمقصده المطلوب بل إنهمكنا في الذكر باللسان والفؤاد تستبد به الغفلة فأنى لنا أن ننصر.

ذاك السؤال المشاغب الذي يعد اليوم هرطقة وزندقة وفلسفة هو الذي يكفل لك فقه

دينك. إتبع في أسئلتك ـ المنهاج الموسوي ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾[الأعراف: 143]. أو المنهاج الإبراهيمي ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ﴾[البقرة: 260]. وقل كما قال عليه السلام في الحديث الصحيح « نحن أولى بالشك من إبراهيم ». فليس سوى الشك طريقا يقود إلى الإيمان النافع بأمن لا خوف فيه.

النصر مدين للذكر ..

والشهادة في سبيل الله وهي خير ختام ـ بعد الصديقية ـ مدينة للذكر..

والجهاد المالي المضاعف بسبعمائة درجة مدين للذكر..

فهل من مدكر؟

﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ كراس سيضم إلى جناحيه بحوله سبحانه عشرات المواضع التي أعكف على ذكرها في القرآن الكريم بل ربما مئات. يضمها إليه في صورة لوحات قصيرة أحرص الحرص كله على عدم تجاوز صفحتين لكل واحدة منها. أكفكف من غلواء قلمي كما يكبح الفارس غلواء فرسه الجموح باللجم وإلا فإنه مندلق مني في أدمان حديقة غناء فوحاء سحاء لا ينقضي منها العجب ولا تخلق من كثرة الرد ولكن للضرورة أحكام كما يقال ..

لوحات أنشرها من الآن ـ وقد جهزت منها عشرات ـ بإنتظام يومي بحوله سبحانه فإذا إكتملت جمعتها في كراس واحد ثم أعرضها للنشر بأي صورة في سبيله هو وحده سبحانه وأجري واحد لا ثاني له إن أصبت فيها خيرًا : رحمة لوالدي فحسب.

01

بسم الله الرحمان الرحيم ...

فتح بها أحدهم حديثه فقيل له : تحدث بإسمك وليس بإسم الله.

بسم الله الرحمان الرحيم : إما أن ننحو بها منحى الجملة التي لا محل لها من الإعراب وذلك بسبب أنها جملة ناقصة غير تامة فهي جملة إسمية مقصورة على مبتدإ لا يخبرنا عن شيء وإما أن ننحو بها منحى المقدر المحذوف ليكون محذوفها المقدر هو : بسم الله الرحمان الرحيم أتحدث أو أتكلم أو أدعو أو أفعل أي شيء. والوجهان في الإعراب مشروعان. صفة الخلو من محل الإعراب ليست مقبحة كما يظن الذين تعربت أسماؤهم وتعجمت ألسنتهم ففي القرآن الكريم نفسه مواضع معروفة لمثل هذا من مثل ورود الجمل الإعتراضية.

إنما الذي شغب على مثل أولئك هو ورود حرف الباء جارًا للمبتدإ المرفوع حكمًا والباء هنا تتقلب بين كونها واسطية أو وسائلية أو هي باب الإستعانة التي لا تكون إلا بواسطة أو بوسيلة وبمثل ذلك قال سليمان عليه السلام في كتابه لبلقيس ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل]. أي: أستعين بالله ـ أي بإسمه ـ عليكم أو على أمري إياكم أن تنبذوا العلو علي. (ألا : أن لا = المصدرية). كمن يقول : بإسم الشعب أو بإسم ماركس.. هل يتصور عاقل أنه يتحدث بإسم الشعب كله أي بإسم كل واحد منهم؟ أو يتحدث بإسم رجل مات؟ إنما المقصود هنا إثقال الحديث بصفة رمزية نشدانا لأكثر مصداقية.

ومما شغب على الناس هنا كذلك ورود البسملة في رأس كل سورة ـ عدا التوبة عند من يقول أنها سورة مستقلة عن الأنفال ـ فظنوا أنها للإبتداء وهو خطأ فادح إذ لم يبدأ عليه

السلام كلامة أبدًا بالبسملة بل كان يفتتحه دومًا بالحمد وكذا إفتتح الكتاب الكريم نفسه بالحمد وإذا كان الخلاف مشهورًا بين المالكية بصفة خاصة وغيرهم حول عد البسملة آية من الفاتحة أم لا فإن الإجماع قاطع في أنها ليست كذلك في أي سورة أخرى عدا النمل آنفه الذكر.

وبذلك ظن الناس أن البسملة فاتحة الكلام وإنما الحمد هو فاتحة الكلام لمن يريد دقة السنة ولا حرج في جعلها كذلك بشرط أن يدرك أنها جملة ذات مقدر محذوف أو لا محل لها من الإعراب. فلا مجال لقائلها زعمه أنه يتحدث بإسم الله إنما هو يتحدث مستعينا بالله أي مستعينا بواسطة إسم الله أو بوسيلة إسمه سبحانه كما يمكن أن تكون دعاء ـ وهو كذلك إمكان راجح وغالب ـ لقوله ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ .. ﴾[الإسراء: 110].

ويظل كل ذلك في سياق التدافع الغربي الإسلامي أو العالماني الإسلامي تدافعًا سياسيًا برداء فكري إذ حتى لو حملنا البسملة هنا تحدثا بإسم الله ـ بل نطقًا بإسمه ـ فلا صلة له بالتجربة الكهنوتية المسيحية الكنسية الدينية الجائرة التي عاشها الغرب يومًا إنما هي للتقوي به والتوكل عليه إذ لا يتصور عاقل أن يتقمص السلطان الإلهي أحد سواه سبحانه.

دعك من قولهم (خطبة بتراء) لمن خطبهم فلم يبسمل فهي بتراء عرفًا وليس شرعًا وكيف نستحدث بسملة لم يبتدأ بها كلامه عليه السلام مستعيضًا عنها بالحمد إتساء بفاتحة الكتاب الذي يعلمنا فن الخطاب الذي ألف فيه الغربيون فلسفة كاملة ـ L'art du discours.

02

إياك نعبد وإياك نستعين ...

أسئلة سبعة لحسن فقه رسالتك :

1. لم جاءت الجملة إسمية لا فعلية؟

2. لم قدم المفعول به بخلاف ما هو معهود في التركيب؟

3. لم تعلن عن رسالتك بصيغة الجمع وأنت فرد فذ؟

4. لم تحول الخطاب من حديث عن غائب إلى حديث إلى حاضر؟

5. لم تكونت الرسالة من جزئي : العبادة والإستعانة؟

6. أين ذهبت باء الإستعانة؟

7. ولم ورد فعلا (مثنى فعل) الرسالة بصيغة المضارع؟

جاءت الجملة إسمية لا فعلية للإعلام بأن رسالة العبادة والإستعانة هي رسالة ثابتة راسخة تقررها جملة إسمية قارة لا تعرف التبدل بين زمن ماض وآخر آت. إذ لو لم تعبد أنت ونفر من الجن معك فإن الكون كله في حركة عبادة لا تفتر ولا تسأم ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾[الإسراء: 44]. فإن فسقت أنت فأنت نجم آبق من فلكه فهو هالك لا محالة.

وقدم المفعول به على غير العادة للتعظيم أي تعظيم المعبود فهو هنا المقصود والعابد هنا ليس مقصودًا بالأولية لأنه عابد دوما فمن لا يعبد الله يعبد هواه أو أي معبود آخر ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾[الفرقان: 43]. العابد لا شأن لنا به هنا لأنه عابد في كل الأحوال ولكن شأننا مع المعبود هل يكون هو المعبود الحق وبحق فتكون العبادة صحيحة والعابد مثاب أم يكون غير ذلك ولذلك قدم للتعظيم من جهة ولبيان المقصود من جهة أخرى.

ولا بد لكل تال أو مصل أو عابد أن يتحدث هنا ـ وهو في صلاة ـ بإسم الجماعة العابدة كلها حتى لو كان يصلي فردًا صلاة سرية في دغل من الأدغال النائية البعيدة فلا أثر لطائر يطير ولا لسائر يسير .. لا بد له من ذلك لغرس مقصد في نفسه وكسبه عنوانه : أنا مؤتلف مع الكون المسبح المصلي من جهة ومن جهة أخرى أنا أنتمي إلى الأمة العابدة فأنا واحد منها أسعى بذمتها وأناضل عنها وأنا عضو فيها فأتحدث بإسمها كأني أحمل هم عبادتها إذ العبادة الفردية ـ حتى عندما تكون فردية ـ لا تجلب

لصاحبها الشعور بالإنتماء. ومن فقد الإنتماء فقد فقد جانبًا كبيرًا من شخصيته وبعدًا حيًا من أبعادها.

بدأ الخطاب بحديث عن غائب ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ..﴾ [الفاتحة: 1]. وذلك في أثناء الثلث الأول بأسره لسورة الحمد ـ أو سورة الصلاة ـ ثم إنقلب في ثلثه الثاني إلى حديث موجه إلى حاضر مشاهد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. لم ؟ في الثلث الأول تفرغ الخطاب لبيان هوية المستوجب للحمد أي هوية المعبود بحق. ولما فرغ من ذلك جاء لسان العابد ليعلن عن رسالته بنفسه وليس بصيغة الإخبار بل بصيغة الخطاب المباشر ليكون ذلك أدعى في إطر النفس وتزكيتها وحملها على رسالة العبادة. فلم يقل مثلا (إياه نعبد). هو في العبادة حاضر مشاهد بالفؤاد.

الرسالة متكونة من العبادة التي محلها القلب وهو مركز العقل ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: 46]. إذ العبادة في المنظور الإسلامي عمل فكري يوجه العمل المادي. ومن الإستعانة أيضًا. وهي العمل. إذ يقتضي كل عمل ـ والقول عمل ـ إعانة من معين عليه يتوكل العامل. فهي رسالة معنوية ومادية في الآن نفسه. وأي محاولة للفصل بين جزئيها هي محاولة بئيسة شقية فمن عبد الله بحق في قلبه العاقل ثم لم يستعن به توكلا وإستجماعا للسبب كان كمن إعتقد في شطارة الطبيب المعالج وفي نجاعة الدواء الموصوف ولكنه لم يتناول منه حبة. فهل يشفى؟ ولكن لا وجود لمستعين بالله لا يؤمن به.

فعل العبادة وكذا فعل الإستعانة متعديان بالضرورة. سوى أن الأول منهما يتعدى بدون الحاجة إلى حرف جر في حين أن الثاني منهما لا بد له من حرف جر هو باء الإستعانة. تقول العرب : إستعنت خالدا وإستعنت بخالد. والثاني أشهر. المهم هنا هو أن باء الإستعانة حذفت لغرس عقيدة الإستعانة فينا به وحده سبحانه خالية من كل واسطة أو وسيلة فناسب حذف الباء مبنى غرس العقيدة معنى فلا حاجة لك مستعينا بالله بأي شيء أبدًا طرًا مطلقًا البتة على ملة إبراهيم الخليل الذي عرض عليه جبريل خدمة وهو على مرمى خنصر من النار فقال له مستعينا الله وحده سبحانه (أما إليك فلا).

الرسالة ماضية مطردة لا يهدأ لها حراك وصاحبها عابد دومًا وأبدًا ومستعين كذلك

فلا بد من صيغة تفيد الحاضر (نعبد ونستعين) وأينما كان وكيفما كان فهو عابد لا تنفك عنه العبادة إذ يؤجر حتى بنومه ينشد سكونا يستعين به على حدب يوم آت.

03

إهدنا الصراط المستقيم ..

1. يتواصل الخطاب بصيغة الجمع من لدن الفرد الفذ لعل البعد الجماعي ينغرس فيه إنغراسًا مكينًا يبعثه على الإصلاح فلا يتسلل إليه يأس من أمة ولا قنوط من إنسان. يطلب الهداية للناس جميعًا وليس للمؤمنين مثله فحسب وليس للطائعين منهم كذلك فحسب. لو إهتدى هو فحسب لفسدت هدايته قطعًا إذ الإنسان مدني بطبعه يؤثر ويتأثر. ينبذ الأثرة حتى في طلب الهداية التي يسألها الهادي سبحانه للناس كافة. له بذلك أجر كل مدعو له إذ يقيض الله له ملكًا يقول له (ولك بالمثل). لكننا ندعو هنا في الصلاة بالصيغة الجماعية وعندما نسلم ندعو لأنفسنا فحسب بل ربما إعتدينا في الدعاء دعاء لمن لا يستحق أو على من لا يستحق.

2. أصل التركيب الذي صاحب الكتاب الكريم كله هو (إهدنا إلى ..). فأين إختفى حرف الجر (إلى). تكون الهداية إلى الشيء وليس تعديا مباشر دون حرف جر. إختفى حرف الجر هنا حيث إختفت باء الإستعانة كما أنف. كلاهما لا يتعدى في العادة العربية بدون حرف جر ولكن الإيمان الصحيح الخالص يتخلص من أي مبنى قد يؤخر الإستعانة قيد أنملة أو الهداية كذلك. هم عرب أقحاح وهم من صنعوا ذلك وعلمونا أن صفاء المعنى المراد يقتضي تهيئة المبنى لذلك. لا يهديك إلى الصراط المستقيم فحسب بل هو يهديكه. أي يجعلك في أمه متمكنًا من صهوته فلا تزل ولا تزل. هو سبحانه على صراط مستقيم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[هود: 56] ـ ومن نشد القرب منه لا بد من هداية الصراط وليس هداية إلى الصراط. من هدي إليه قد يضل يوما أو يزل ومن هديه ظل عليه راسخا بحول الهادي.

3. الصراط سبيل ثقيل مفخم ثابت قار كذا تشكلت حروفه المثقلة المفخمة كلها ولو كان سبيلا لينا ـ هنا ـ ربما زل بسابله. هو قنطرة راسخة مشيدة بالأثقال متينة متانة حروفه التي تملأ الفم ليمتلئ بها الفؤاد.

4. **بدله:** صراط الذين أنعمت عليهم. ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النساء: 69]. هو صراط أقتفاه رجال مثلنا فثبتوا وليس هم ملائكة لا نقدر على ما يقدرون. هو صراط واقعي ولعل الأمة كلها بأسرها ـ إلا من أبى ـ مشمولة بصفة الصلاح. لك أن تتدرج في سلم الصراط المستقيم من الصلاح إلى الشهادة ثم إلى الصديقية وهناك تجد علامة (قف) حمراء قانية إلا أن تتشبه بالأنبياء فتكون منهم قريبًا «أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ كَهَاتَيْنِ فِي الْجَنَّةِ».

5. غير المغضوب عليهم ولا الضالين .. أصلها قبل التضمين (غير صراط المغضوب عليهم وغير صراط الضالين). هو مقدر محذوف. حذف الصراط منسوبا للمغضوب عليهم وللضالين لأن الصراط ثابت راسخ لا يتحول وهؤلاء مذبذبون بل ليس ضربة لازب عليهم أن يظلوا كذلك فمنهم من آمن ومنهم من سيؤمن فلم يحبسون في صراط لا يملكون عنه تحويلا. ليسوا هم بوضعهم ذاك أهل صراط بل هم أهل سبل ضلت بهم عن سبيله. الصراط أصل والسبيل فرع. قدم المغضوب عليهم لأنهم عرفوا الصراط المستقيم ثم تنكبوه عنوة إيثارًا للعاجلة. وعذاب من علم فلم يعمل أشد من عذاب الضالين الذين لم يعلموا أن عيسى عليه السلام عبد رسول يأكل مثلهم ويشرب.

6. لم يذكر لنا الغاضب ولكن ذكر المغضوب عليه فحسب. العبرة هنا ليست بذكر الغاضب ولكن بذكر المغضوب. الغاضب يظل مطلقًا ليشمل كل مسبح بحمده سبحانه. ألا يستأذن الكون ربه (أرضًا وبحرًا وجبالًا) أن يأخذ المغضوب عليهم ولكنه لا يأذن؟ إستحقوا غضب كل شيء يسبح بحمده. أما الضالون فلم يقع عليهم فعل فاعل سوى فعلهم هم بالضلال. لم يقل (المضلون) لأنه لم يضلهم أحد عن الصراط المستقيم ولكن أضلوا أنفسهم لما ظنوا أن عيسى المولود على غير العادة بعض من إله.

7. كان لابد من ذكرهما تمييزًا للصراط المستقيم وتمييزًا للأمة العابدة المستعينة إذ الحقل حقل إعتقاد فلا بد من التميز والتمايز ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: 6]. وكان لا بد من ذكرهما لأنهما سيظلان يصحباننا حتى ينزل العبد الذي إتخذوه إلها وزعموا صلبه ولكن يكون ذلك حين يعلن ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾[ص: 3] أو سبق السيف العذل كما تقول العرب أي حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا. الأديان لا تتقارب ولكن أهلها يتعاونون على إقامة الحق والعدل والقسط بين الناس تكريما للإنسان المكرم ونبذًا للتظالم.

04

وإذ إستسقى موسى لقومة فقلنا إضرب بعصاك الحجر ...

هل يصدق عاقل أن ضربة موسى عليه السلام الحجر بعصاه هي التي فجرت ماء عذبا زلالا شرب منه بنو إسرائيل فأرتووا وربما رووا أنعامهم التي هي ظهورهم ..

وهل يصدق عاقل أن هز مريم البتول عليها السلام جذع النخلة وهي في حالة وضع هو الذي أسقط عليها رطبًا جنيًا يغذي جسمها الهزيل في ذلك الوقت بالطاقة المطلوبة ..

أنا لا أصدق..

أجل. لا أصدق مؤمنا بالله سبحانه واليوم الآخر وبالكتب والرسل والغيب كله.

لا أصدق ذلك ولكني أصدق شيئًا آخر عنوانه : السبب الذي يحركه الإنسان في الأرض فريضة مفروضة عليه وضربة لازب لا أمل له بدونها في شيء حتى لو كان هو نبيًا رسولا أو أحد أولي العزم منهم أو كانت القضية قضية معجزة نبوية أو معجزة إلهية.

ذلك هو الذي أصدقه.

أصدق أن المعجزات نفسها ـ وليس ما ينسبون إلى بعضهم من كرامات لا أصل لها في

الدين حتى لو أغاث بها سبحانه بعضهم لحكمة لا أرب لي فيها الآن ـ لا بد فيها من جهد بشري هو : السبب.

أصدق التعليم المقصود هنا وعنوانه : يا إبن آدم إختر لك ما شئت من الدين (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) ولكن فريضة البحث عن السبب الموصل إلى ما تريد لا بد منها إذ على ذلك شيدت ملكي وبنيت خلقي ولا تبديل لسنتي ولا تحويل لإرادتي. أصدق أن من أخذ بالسبب في الحياة حيي ـ أو عاش إن كان كافرًا ـ كائنًا ما كان دينه ولسانه ولونه ومن أهمل السبب جهلا أو تهاونًا قيض له الله من يحتله ويفترسه ويستعبده ويسترقه.

ولا أصدق أن عصا موسى عليه السلام بضربتها هي التي فجرت الماء ولا أصدق أن بنية مريم البتول عليها السلام في تلك الحال هي التي هزت جذع النخلة فأكلت رطبًا جنيًا.. أصدق المقصود وأنفذ إلى المراد وألتقط العبرة وأجني الدرس.

وأقول في نفسي ولمن يريد سماعي : إذا كان ذلك كذلك في المعجزات الإلهية فكيف في التكليفات البشرية؟

أصدق أننا اليوم ـ نحن المسلمون ـ في ذيل القافلة البشرية نستجدي أكلنا وشربنا وملبسنا وظهرنا وفقرنا يجري فوق موائد الذهبين الأسود والأحمر كما قيل .. أصدق أننا في أهون حال ـ ونحن مؤمنون ـ بسبب نبذ السبب إما لجهل وهذا منه شيء كثير وإما لتهاون وتقاعس وتبطل وتعطل وهذا كذلك منه شيء كثير.

أصدق أنه بيننا وبين النهضة والتقدم وريادة المعالي دينا ودنيا مسافة سبب فحسب. فإن وعينا بالسبب وفقهنا أن الحياة سبب ثم حولنا العلم إلى عمل والفردية إلى جماعية .. غير الله ما بنا من أسوأ إلى سيء أولا ثم من سيء إلى حسن ثانيًا وإن أبينا أطبقت علينا نواميس الحياة كهوفها وأرخت علينا سنن الكون أرديتها وحجبها وإرتددنا إلى كهوف الجهل والتخلف وكنا للكافرين فتنة ونحن ندعو بألسنتنا ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [الممتحنة: 5].

05

عندما تكشف بقرة مذبوحة عن جريمة قتل شنيعة ...

هي أول قصة في كتاب جاء إلينا بزهاء أربعين قصة ..

وهي القصة التي إختيرت لتصبح إسم السورة ..

هي سورة وأي سورة؟ أول سورة وأطول سورة وأعظم سورة فهي الزهراء وهي التي لا تستطيعها البطلة وهي الواقي ضد الشيطان في البيت لمن قرأها وهي الشفيعة ...

وهي تحتضن أعظم آية وأطول أية وأطول آيات الإنفاق وأطول دعاء ...

لإسم السورة التوقيفي دور كبير في التوجيه نحو موضوعها ومقصدها وأمها وكذا لفواصلها ومكان نزولها وزمانه ومناسبته ...

وهي أجمع سورة طرا مطلقا وأجملها (نسبة إلى الإجمال)...

وهي القصة الوحيدة ـ من بين زهاء أربعين ـ التي رويت لنا من النهاية وليس من البداية. بدايتها هي ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا .. ﴾ [البقرة: 72]. ملخص القصة هي أن قومًا من بني إسرائيل قتلوا قتيلا بغير حق من قوم آخرين من اللفيف الإسرائيلي نفسه زمن موسى عليه السلام ولما أعيتهم الحيلة أن يكشفوا عن القاتل المتحصن ببطن أهله لجؤوا إلى موسى فسأل هذا ربه سبحانه فأمره بأن يطلب منهم أن يذبحوا بقرة. جواب عجيب غريب وليس معروفًا إن كان تلكؤهم في ذبحها بسبب ظنهم أنها ستكون وسيلة للكشف عن القاتل ـ فهم أهل كتاب ولا يستبعد منهم ذلك ـ أو كان بسبب طبيعتهم الملتوية التي تحسن الإلتفاف حول الأوامر لتظهر طاعتهم وهم يبطنون عنادًا وعصيانًا. ولكن النظم القرآني العجيب تجاوز ذلك لعدم قيمته إلى ما يجنى منه لنا نحن اليوم ـ أجل. اليوم ـ مما سبق أن رسخه من مقصد قصصي ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: 111] فالقصة

عبرة فحسب لذلك عفت على الدوام عن المكملات التي لا لزوم لها من مثل الزمان والمكان والأسماء ... فلما ذبحوها أمروا بأن يضربوا القتيل بشيء منها وعندها أحياه محيي الموتى سبحانه ونطق القتيل بلحمة لسانه ليدل على قاتله. وهنا إكتمل الغرض القصصي وعرف القاتل. ويروى أن البقرة التي ظلوا يشددون على أنفسهم في ذبحها ظنًا منهم أنهم يشددون على نبيهم تفصيا من التكليف ظفروا بها (وهي صفراء فاقع لا شية فيها عوان بين البكر والفارض غير ذلول) عند رجل فقير منهم ليس له سواها فإعتراهم كبرهم وليهم إلى حيازتها بثمن باهظ جدا جزاء وفاقا لهم ولصاحب البقرة المسكين.

السؤال الذكي هنا هو : أي حاجة لإنبساط القرآن الكريم في قصة بني إسرائيل مع البقرة إذا كان المقصود هو أنه سبحانه يحيي الموتى بالصوت والصورة أمامهم لعلهم يزدادون إيمانا بالغيب أو إذ كان المقصود هو الكشف عن القاتل.

ظلت هذه الجملة ﴿ قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا .. ﴾ [البقرة: 68] تتكرر ثلاث مرات ..

وظلت هذه الجملة ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ .. ﴾ [البقرة: 68] تتكرر ثلاث مرات كذلك ..

حوار عسير طويل بين الله وبينهم بواسطة موسى عليه السلام. ولما أراد إعلامنا بذبحهم إياها قال ﴿ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾[البقرة: 71]. حتى إنك لتتوقف برهة لتسأل نفسك من صدمة الدوار التي تغشاك وأنت تخرج من أتون ذلك العسر : هل ذبحوها أم لا؟ يخيل إليك أنهم لم يذبحوها.

لا أريد لحلقات هذه السلسلة ﴿ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ أن تكون مسهبة لذلك أدلف إلى العبرة:

1. غضبت على بني إسرائيل وحررت منهم رسالتي لأضعها عندكم بسبب عصيانهم المقرف. من عصاني من عبادي عن جهالة أو غفلة أصفح عنه ولا أبالي ولكن من عصاني منهم بطريق الإلتواء والإلتفاف والنفاق ـ أي المعصية المركبة غير التلقائية النابعة من شهوة جبلية في الإنسان أنا من غرزها فيه ـ .. فليس هو أهل لحمل رسالتي.
2. أحب أن أطاع ولكني رحمان رحيم أرضى منكم بالقليل ولكن أبغض منكم المتشدد سواء على نفسه أو على الناس والعبرة هي بإتيان أمري وإجتناب نهيي بسلاسة

وتلقائية ويسر ومن دون تكلف وتصنع وتعال فمن عصاني شهوة غفرت له ومن عصاني فلسفة وتقعرا وليا كما فعل هؤلاء فإني أبغضه حتى لو أطاعني ظاهرا أو في نهاية المطاف كما حدث معهم.

3. أقداري عجيبة غلابة ماضية ليس أحد منكم في مستوى كنهها فقد أكشف الحق بينكم بطريقة لا تخطر لواحد منكم على بال وكذا في زمان ومكان أختاره أنا. وخاصة فيما يتعلق بالدماء والحرمات والأعراض والكرامات ـ أي فيما يتعلق بالإنسان بنائي ـ فإن كشف الحق فيها أمر كتبته على نفسي فهو واقع لا محالة ولكن كتبت أنه لكل أجل كتاب.

4. أي علاقة بين بعض من بقرة مذبوحة بأيديكم وبين جثة قتيل ليبعث حيا؟ من أحياه؟ وكيف؟ أنا أحيي وأميت وهذه صورة حية أمامكم الآن وبمثل هذا اليسر أحييكم بعد موتكم. ولكن كتبت ألا يقع شيء في كوني ـ حتى لو كان معجزة كهذه المعجزة ـ إلا بسبب منكم.

06

هذه وظائف النبي يا ورثة النبي ..

ورد في الحديث الصحيح أن «العلماء ورثة الأنبياء» [أخرجه إبن حبان وغيره].

العلماء يرثون النبوة لا بمعنى تواصل النبوة ولا بمعنى العصمة ولكن بمعنى إستئناف وظائف النبوة المذكورة في الكتاب العزيز ويظل العلماء دوما محجوجين بالوحي ومحكماته وليسوا حجة على الإسلام ولا ناطقين بإسمه ..

فما هي وظائف النبوة التي على العلماء إستئنافها ؟

1. ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾. تلك هي الوظيفة الأولى التي تصدرت كل آية ـ وهي

مواضع ربما لا تتجاوز عدد أصابعك ـ تبين وظيفة محمد عليه السلام. يكفي الناس أن يتلى عليهم هذا الكتاب تلاوة صحيحة متأنية كما قال سبحانه ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾[الإسراء: 106]. مفرق في الزمان (زهاء ربع قرن كامل) وفي المكان (بين مكة والمدينة وتخومهما) والغاية من فرقه هي قراءته على الناس بتأن وتريث أي مرتلا ترتيلا حتى يستوعبوا أحكامه وقصصه وأمثاله. ولذلك تضمن برنامجنا التعبدي الصلاة الجهرية بالليل أي ركعتي الفجر وركعتي المغرب وركعتي العشاء (زهاء ثلث ما يتلى في الصلاة يتلى جهرًا وهو مختص بالليل) ذلك ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[المزمل: 6] ـ عدا النوافل من مثل التروايح وغيرها. ليس هو إنجيل يقرؤه القس على الناس ولكنه قرآن كريم يتلوه كل أحد ويستمع إليه كل أحد وميسر لكل أحد. فهلا تلونا نحن اليوم آيات الله على الناس؟

2. ﴿يُزَكِّيهِمْ﴾[البقرة: 129]. تلك هي الوظيفة الثانية التي ترد أحيانًا في الموقع الثاني وأحيانًا تؤخر بحسب السياق. التزكية معناها تهذيب النفوس وترقية الأرواح وإتيان ما يسل سخائم الصدور ويملؤها بقيم التراحم والحلم والأناة والإيثار. التزكية هي التربية الروحية التي توطن صاحبها على فعل الخير وقول الحق وقيم الصبر والشكر في السراء وفي الضراء. هي أعمال كثيرة لا تحصى وعمادها الأول تعميق التوحيد الصافي وتجديد الإيمان وإتيان العبادات وإحسانها وإتقانها ومخالطة الناس والصبر على أذاهم. الصدقة مثلا ـ مفروضة أو منفولة ـ تطهر القلوب وتزكي الأرواح المشبعة بالشح والمترعة بالقحط والأثرة. ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة: 103]. فهلا تزكينا أو زكينا الناس.

3. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[البقرة: 129]. هنا مهمتان إذ أصل الكلام هو (يعلمهم الكتاب ويعلمهم الحكمة). أما الكتاب فهو القرآن الكريم دون منازع وأما الحكمة فهي الميزان بحسب إستقراء الكتاب نفسه إذ وقعت موقعه مرات فيه. والميزان هو أمثل طريقة لحسن الفقه للكتاب وللسنة والسيرة ليكون التنزيل واردًا كذلك على أحسن حال. الميزان هو لزوم الوسطية والإعتدال والتوازن في الفهم والتطبيق معًا

في كل الحقول وكل الحالات قدر الإمكان وهو أمر لا يتأتى إلا بالعلم والفقه والإجتهاد والجماعة والتشاور والإفادة مما عند الآخر من حكمة. أما تعليم الكتاب فمعناه قوله الصحيح المتفق عليه « خيركم من تعلم القرآن وعلمه ». وكذا قوله الصحيح « من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ». تعليم الكتاب يعني تعليم حلاله وحرامه ومحكماته والعبر من قصصه وأمثاله أي إستيعاب رسالته الجامعة كلية ثم مفصلة قدر الإمكان سيما في القواطع الراسخات وليس في المتشابهات. الكتاب يعلم ـ لمن جعله معلمًا وهاديًا ـ فن الحياة وفقه الكسب وشطارة التجارة وأدب الإنسانية وسنن التقدم والنهضة وقوانين الإنحطاط والركود. تعليم الكتاب معناه صناعة رجال على درب الصحابة أي جامعين بين الدين وبين الدنيا وبين الإخبات وبين المقاومة وبين الإتباع وبين الإبتداع أو « رهبان بالليل فرسان بالنهار ». فرسان علم وفرسان مقاومة وفرسان مرحمة.

تعليم الكتاب لا يتسنى سوى لمن تعلمه أولا إذ فاقد الشيء لا يعطيه ومن يعطي جهالات يظنها علمًا فوزره كبير كبير. لما سئل حبر الأمة عن سبب نبوغه قال (بلسان سؤول وفؤاد عقول). من لا يسأل هو المتكبر وهو الذي لا يتعلم ومن يتعلم فلا يعقل يحجر عليه التعليم أي تعليم غيره والناس هنا محل تفاوت كبير وواسع. « بلغوا عني ولو آية فرب مبلغ أوعى من سامع ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه».

أما تعليم الحكمة فمعناه تعليم فنون الفهم الصحيح وشروط التطبيق الصحيح ومن يحسن فقه السيرة ـ السيرة وليس السنة رغم تداخلهما ـ يحسن الحكمة لأن خير من أحسن فقه الكتاب وخير من نفذه بحسب طاقة زمانه ومكانه وحاله إنما هو محمد عليه السلام. إن قلت : الحكمة هي السنة ما جانبت صوابا ولكن وجب عليك إتمام المعنى بقولك : السنة نفسها وكذا السيرة بحاجة إلى حسن فهم. فهم مقاماته مثلا عليه السلام وغير ذلك مما لا ننبسط فيه هنا حرصا على فصول هذه السلسلة أن تنداح مني.

الحكمة إذن هي حسن الفهم سواء في الكتاب ـ بل فيه هو أولا ـ أو في السنة أو في السيرة ولا يقتصر على ذلك بل لا تتم الحكمة حتى يحسن المرء فهم زمانه ومكانه وحاله وعرفه وما يطيقه كل ذلك إذ لا نفاذ لحق لا يجد له من يمضيه. الحكمة هي وضع كل شيء

وكل أمر في نصابه المناسب فلا إخسار فيه ولا طغيان ولا تفريط فيه ولا إفراط. تلك هي الحكمة وذلك هو الميزان. على أن تعليم الحكمة لا يكون كتعليم الكتاب بالنظرية فحسب بل ربما يكون تعليم الحكمة بالتطبيق أكثر منه بالنظرية. وتلك هي سيرته.

أربع وظائف للنبوة: (تلاوة آيات الكتاب ليسمعها الناس مرتلة ترتيلا فيعونها + تزكية الأرواح وتهذيب النفوس وتطهير القلوب بطرق شتى + تعليم الكتاب + تعليم الحكمة).

هي نفسها وظائف العلماء الذين يرثون الأنبياء. ما يحجزك أن تكون منهم؟

07

الكون مصنع العقيدة ومعمل الإيمان ...

هذه مفارقة عجيبة إذ أن القضية الأولى العظمى التي تمحض لها الإسلام في كتابه الأخير أي الإلهية من توحيد خالص وأسماء وصفات وما يقتضي ذلك من الإنسان المخلوق ... وظل يعرضها بأسلوبه فلا تخلو منه صفحة واحدة بل قيض لها الكون بتضاريسه الأرضية والجوية وقيض لها التاريخ وحالات الإنسان في الشدة وفي الرخاء ومشاهد القيامة .. تلك القضية المركزية الأولى والعظمى فيه والتي عالجها هو بأسلوبه الأنجع في الإقناع بها .. تلك القضية عولجت من لدن أكثر المسلمين عبر التاريخ وإلى اليوم بمنهاج آخر فلم يقتصر الأمر على علم الكلام الذي ربما يعذر بسبب إضطراره لنسف عقائد اليونان وغيرهم بالأسلحة الفكرية ذاتها أي المنطق الصوري المجرد .. بل إستصحبنا ذلك حتى إنك اليوم لا تلفى جامعة إسلامية واحدة في الأرض إلا وفيها قسم لأصول الدين التي تلقن للطلبة بالمنهاج الكلامي العتيق وكأن التحديات هي هي لم تفعل فيها صروف الزمان والمكان شيئا. عجب عجاب ورب الكعبة. أأنتم أعلم أم الله؟ من هو الأعلم بالمنهاج الأوفى لغرس العقيدة وتأسيس الإيمان؟ صاحبه المعبود أم أنتم؟ إندرس اليونان

والغنوصية ومدارس لاتحصى وظهرت على أنقاضها ـ بل ربما من رحمها ـ مدارس غربية مادية شرسة تجهزت علينا بأمرين أرديانا سكارى وما نحن بسكارى : العلم وهو أول فريضة إسلامية تنزلت علينا في كتابنا وديننا فسرعان ما طويناه طي الجهلى + القوة وهي فريضة إسلامية محكمة لنا فيها كذلك سورة مدنية كاملة (الحديد) فضلا عن أوامر أخرى صريحة بإعدادها. ألم تسترق منا الشيوعية في الخمسينات والستينات والسبعينات عشرات الآ لاف من خيرة شبابنا المثقفين ثقافة جامعية عالية ثم تبوؤوا المناصب الحكومية العليا فلم يرعوا فينا إلا ولا ذمة تجفيفا لمنابع قوتنا القيمية (العلم) ورساميلنا المعنوية؟ أي التحديات أولى بالمقاومة : المنطق الصوري التجريدي اليوناني القديم الذي تجاوزه أهله أنفسهم أم الحضارة الغربية المادية الكالحة التي إفترستنا بعولمتها؟ وتحديات عقدية أخرى كبيرة وكثيرة وخطيرة هي تحديات معاصرة أولى بنا أن نقاومها بميزان كتابنا.

أصول الدين عندنا اليوم هي التعمق حتى الثمالة في القالات الأشعرية والماتريدية والخوارجية والجهمية والباطنية والظاهرية والشيعية وهذا تعطيل وذاك تجسيم .. هل هذه هي أصول الدين في كتاب أصول الدين؟ اللهم لا. اللهم فأشهد.

إستبدلنا قيمة الإيمان بقيمة العقيدة فهان أمر ثم إنحططنا هناك وظللنا نائمين هناك حتى أيقظتنا دبابات هولاكو تدك العاصمة العباسية ثم تلتها دبابات الفرنجة لتخر تحتها غرناطة ويرثيها أحمد شوقي عليه الرحمة ثم دبابات نابليون بونابارت ودبابات ودبابات .. عندها بدل أن نطرح السؤال النهضوي المفتاحي اللازم : كيف تقدم هؤلاء وهم كفار وتأخرنا نحن ونحن مسلمون؟ تثاءبنا متكاسلين ثم فررنا إلى العهد العباسي القديم حيث إشتبك أسلافنا مع اليونان والغنوصية وعقائد أخرى وثنية أو شبه وثنية. أي أننا لفرط الصدمة ـ صدمة الدبابات التي تحمل العلم والقوة معا ـ ذهلنا فبدل أن نفر إلى الأمام فررنا إلى الخلف.

والآن وبعد نشوء الصحوة الإسلامية التي تملأ وهادنا ونجادنا وإستخلص بعضها الدولة جزئيا أو كليا .. الآن أيضًا نلوث جامعاتنا بتحديات عقدية أكل عليها الدهر وشرب.

ولا تظن أني صاحب موقف سلبي من علم الكلام. أبدًا. أقدره وأحبه وأقدر أهله وكان ضروريا في زمانه ومكانه. ولكن إجتهد أهله لزمانهم وتحدياتهم وعلينا أن نفعل مثلهم وليس أن نشيد خلفهم طوابير التقليد والإمعية القرودية أو الإنبهار الببغاوي.

إقرأ القرآن مرة أخرى لتلفى أن قضيته الأولى عقدية قحة وأن منهاج الإقناع بها هو منهاج واقعي عملي يسير يعتمد النظر في الكون (الكتاب المفتوح المنظور) ويعتمد التاريخ لذلك جاء ثلثه كاملا قصة مقصوصة (الكتاب المروي) ويعتمد الإنسان نفسه في حالاته النفسية المتنوعة كما يعتمد مشاهد القيامة وغير ذلك من مثل الأمثال التي ربت عن أربعين تقريبًا. ذلك هو منهاج الإسلام في الإقناع بعقيدته. إقرأه لتلفاه يتحدث عن الكون والتاريخ والنفس في كل صفحة دون أي إستثناء تقريبًا.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾[البقرة].

وأمثال ذلك عشرات بل مئون مئينة تدعوك إلى كسب إيمانك من الكون والتاريخ وليس من المعركة الكلامية السالفة وحولك معارك عقدية أخرى محتدمة.

ذلك هو المنهاج الإسلامي العقدي الذي صنع رجال الصحابة ونساءهم فأكرم به منهاجا وأكرم بهم روادا نهلوا من المعارف ومنابع القوة حتى غيروا وجه الأرض.

08

ليس البر... ليس البر ...

أو : الإيمان يقدم القيم ويؤخر المظاهر

ورد ذلك في سورة البقرة مرتين : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ

مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ... ﴾[البقرة: 177]. و ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۖ .. ﴾[البقرة: 189].

هل يعني ذلك أن نستقبل في الصلاة أي إتجاه إتفق لنا مادمنا محتفظين بما ورد هنا (الإيمان بالله واليوم وبقية أركان الإيمان وإتيان المال إنفاقا للمحتاجين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهد والصبر في كل الأحوال)؟ طبعًا لا. فما هو المقصود إذن؟ ولم يعرض بالقبلة التي حددها هو سبحانه؟ المقصود الأول هنا هو أن نعيد ترتيب أولوياتنا لنجعل المقدم الكبير مقدمًا كبيرًا فلا نشغب عليه بتقوانا المزيفة بالمظاهر حتى لو كانت تلك المظاهر مطلوبة محمودة. تولية الوجه شطر القبلة المضبوطة أمر على أهميته وقيمته يسير على النفس إذ لا يفكر أي واحد من المصلين أن يستبدل قبلة بقبلة وهو أمر عملي تعلمناه وأطعناه وإقتصر دوره على هناك وهو أمر كذلك ننفع به أنفسنا في المقام الأول. ولكن العسير علينا هو الإحتفاظ بالإيمان إحتفاظ المجددين لرساميلهم وليس إحتفاظ الخازنين لها في بيوت ثلجية أو في مغارات صدئة. العسير علينا هو أن نجعل ذلك الإيمان نافعا نفعا يثمر الخير أن نكون بين يدي يوم القيامة من الذين لم يكسبوا في إيمانهم (خيرًا) فيستوون مع من لم يسبق له إيمان أي عندما تطلع الشمس من مغربها فيختم الله مرحلة الدنيا ويأمر بإيصاد سجلات الأعمال. العسير علينا هو إنفاق المال جهادا وهو يحبه إما حبا غريزيا مجبولا لا يند عنه إنسان أو حبا لفرط الحاجة إليه. العسير علينا هو المحافظة على أول أركان الإسلام (الصلاة) التي تكون أول ملف يفتح في وجوهنا يوم نلقاه سبحانه في محكمة التعقيب الأخيرة سيما أنها تغشانا كل أربع ساعات ونيف على مدار الحياة وأن المطلوب إقامها لا صلاتها فحسب. العسير علينا هو إيتاء الزكاة بعد إيتاء المال. ألا ترى أن الجهاد بالمال ذكر هنا في هذا السياق ـ وفي سياقات أخرى كثيرة ـ مرتين : مرة مقرونا مع الإيمان ومرة مقرونا مع الصلاة؟ العسير علينا هو حفظ العهد سيما مع المخالف العقدي أو مع من لا نحب أو عندما يكون العهد ثقيلا علينا. العسير علينا هو تجرع الصبر المر وهل أمر من جرعات الصبر عند إبتلاعها وهل أحلى منها بعد إنقضائها؟ كل ذلك عسير لأنه يجعلك ملتزمًا مع نفسك ومع

ربك ومع الناس بالحسنى في منشطك وفي مكرهك. ذلك عسير لأنه مادة حياة وبرنامج سعي وخطة كفاح. هي معركة الحياة التي تخاض بأسلحة القيم. سل نفسك الآن : أنت من الفريق الذي يولي وجهه حيث أمر بدون شعور منه فهي حركة عادية تقليدية لا تكلفه شيئا أو من الفريق المقاوم في معركة الحياة الطاحنة.

ليس البر ذاك ..

وليس البر كذلك التعلق بالتقاليد الجاهلية والعادات الوثنية تدينًا أسطوريًا خرافيًا مشعوذًا إذ كانوا يعتقدون أن إتيان البيوت من بعد الأسفار من خلفها أقرب للتقوى.. تمامًا كما نظن نحن اليوم بكثير من الشركيات أن يوم الإربعاء يوم نحس وشؤم فلا نعرس فيه وأن التاجر الذي يبدأ يومه ببيع سلعة بثمن مؤجل صاحب نحس وشؤم وأن الماء الذي تسكبه أمهاتنا خلفنا ونحن نتأهب للسفر حصن حصين ومئات بل ألوف من مثل تلك المعتقدات الوثنية الصنمية الشركية .. ألم يقل سبحانه في أكثر آية مخيفة ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[يوسف: 106]. ألم يصطف إليه خليله إبراهيم عليه السلام لما خاض معركة التوحيد بعقله أي بطريقة رياضية عنوانها جمع الإفتراضات كلها ثم إمتحانها واحدة من بعد واحدة فما يصمد يبقى وما يسقط يزاح؟ لذلك كان من الذين ﴿ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ ﴾[الأنعام: 82]. أما من آمن فألبس إيمانه بظلم ـ أي ظلم الشرك ـ فلا أمن له يوم القيامة بل يبعث خائفًا مذعورًا.

ذلك هو الدرس القويم : المظاهر الشركية سرطان الإيمان تفترسه بدم بارد حتى يأتي المرء ربه يوم القيامة وما في إيمانه من مزعة لحم. أما المظاهر الإسلامية فهي مطلوبة بمستويات من الطلب مختلفة ولكنها مؤخرة لا مقدمة ومصغرة لا مكبرة ولذلك قال الأصوليون بحق « من شغله الفرض عن النفل فهو معذور ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور ». فما بالك إذا كان المظهر ليس سنة ولا مندوبًا أو كان تقليدًا عربيًا أو عادة قبلية يظنها الجهلى دينًا مدينًا. وما بالك إذا كانت السنة حائلة دونك ودون الفرض؟ هل تظن أنه مثيبك. أبدًا. بل هو يعاقبك. ألم يقل « ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما إفترضته عليه ».

ألا تحرص على بر يبرك به سبحانه ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾. أليس الناس عياله وأحبهم إليه أنفعهم لهم؟ أجل. ليس البر الذي ينيلك بره مظاهر تضيع معها الواجبات والفرائض ولا هو تدين نخرته الشركيات وإيمان نخلته الشعوذات والخرافات والأساطير .. بل البر نفاذ إلى أم الكتاب لمعرفة مقصود الكتاب أولا وبها تتحقق محكماته وعزائمه.

09

الناس سواسية في دمائهم وأسعارهم ...

ليس أعجب عندي من جهل يتدثر بالعلم ليقنعنا أن بعض بني آدم أرفع سعرًا وأبهظ ثمنًا من بعضهم بسبب الجنس البيولوجي ليفضل الفحل على الأنثى أو بسبب اللون ليفضل الأبيض على الأسود أو بسبب الدين ليفضل المسلم على الكافر في أسواق القيم الأخلاقية الدنيوية وليس يوم القيامة أو بسبب المذهب أو بسبب الحزب أو العرق أو القبيلة والبطن أو بسبب المال أو بسبب النسب والحسب أو بسبب الجمال والوسامة.. السؤال الذي يفضح أولئك بالضربة القاضية هو : من الواهب لتلك التمييزات التي إختارها هو وليس غيره ولم يستشر فيها واحدًا منا؟ يجيبونك ببلاهة وحماقة : الله. إذن؟ ألم يخبرنا هو إن ﴿أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾[الحجرات: 13]. عند الله وليس عندنا نحن. عندنا نحن هناك ميزان آخر إسمه المساواة التامة في المصدرية الخلقية الأولى إذ كلنا لآدم وآدم من تراب ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾[النساء: 1]. هل هناك نفس نفخ فيها من روحه وأخرى لا. أو نفخ فيها جرعة زائدة عن الأخرى؟ وهي كذلك مساواة رسالية ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[الذاريات: 56]. هل فضل نبي فأعفي من شيء من عبادتنا؟ أليسوا هم أثقلنا عبادة؟ ومساواة في المرجع الأخير ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: 30]. هل هناك آدمي ينفك عنه هذا المصير؟

مرجع ذلك الجهل المتدثر بالعلم هو الفهم الجزئي المنشطر للكتاب أي قصر الفهم على موضع واحد والمعلوم هو أنه ليس هناك تقريبًا قضية واحدة عالجها القرآن الكريم في موضع واحد وفرغ منها بل يعالجها في مواضع متعددة ومختلفة ومبثوثة هنا وهناك ومن ذا لا يكون التفسير تفسيرًا أوفى للقرآن وأدنى إليه حتى يكون موضوعيًا لا موضعيًا.

فهم أولئك التفرقة والتمييز في أثمان الناس وأسعارهم وقيمهم من قوله « الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى ». هو فهم قاصر لسانًا عربيًا قبل أن يكون قاصرًا شرعيًا. هذا التركيب نفسه (كذا بكذا وكذا بكذا ..) معناه : لا يند عن المساواة بالقصاص أحد. وليس معناه كما توهموا إرتفاع سعر الذكر بسبب فحولته البيولوجية التي لم يخترها هو لتكون له منقبة وإنخفاض سعر الأنثى بسبب جهازها التناسلي الذي لم تختره هي لنفسها ويكون لها ذلك مثلبة ومظنة دونية وهوان. أليست تلك هي الجاهلية الجهلاء التي جاء الدين لتحريرنا منها.

يعني لو قتل فحل أنثى فلا يقاد بها أي لا يقتص لوليها منه لأنها تنقصه سعرًا ودرجة. كمن قتل دابة أو شيئًا ليس ذي روح. ولكن لو قتلت أنثى فحلا لقيد لوليه منها لأنها إعتدت على جنس أرفع منها. أجل. تجد هذا مثبتًا في فقهنا ولا يكون حظ أذكاهم سوى تحرير مشكلات فيه وترجيحات وكأن القضية مستغلقة مستعصية غير محكومة بأصول المساواة والعدل والقسط والحرمة الأدمية التي تصل إلى حد القدسية .

بل زعم بعضهم أن ذلك مجمع عليه بين المذاهب فلا سبيل لإجتهاد جديد فيه حتى قيض الله لعصرنا رجالا على نهج الفقيه الثائر إبن حزم يعالجون بالصدمة المؤسسة على البحث العلمي والتمحيص الإستدلالي والإستقراء الموضوعي والإعتصام بالمحكمات والكليات والقواعد والمبادئ والمقاصد.

بعضهم فعل ذلك لما صدمته دبابات الغرب تقرع بابه بدسر المساواة وبعضهم أوصد بابه وجعل في أذنيه أصابعه أن يسمع شيئا جديدا يزعج راحته الفقهية ..

أي معنى للقصاص عندما لا نقتل فحلا بأنثى واليوم قد تكون الأنثى المقتولة ظلما طبيبة أو محامية أو أستاذة جامعية أو قاضية أو رئيسة ويكون قاتلها أميا أمية كاملة ليس له من أسباب الحضارة سوى عصاه التي بها يجلد زوجه التي يعدها أمة له. ألسنا نكون عندها إسرائيليي الهوى : حرمت عليهم بعض الشحوم فعصروها حتى أصبحت زيتا. ما هو المقصد من القصاص؟ أليس العدل والمساواة والقسط بين الناس ليعم الأمن ويتفرغ الناس للعبادة والخلافة والعمارة وإقامة العدل والحديد والشورى والصف الواحد؟

بأي حق تثمن هذا الآدمي بثمن والآخر بثمن أدنى أو أعلى؟ أأنت صانعه؟ الحمقى اليوم يظنون أن ذلك بأثر من الضغط الغربي والمتعلمنون يظنون أن الإسلام يرخص الأنثى لأنوثتها. ليت شعري. أين العدول الذين ينفون تحريف الغالين وإنتحال المبطلين؟

هات لنا هذه (الباء) المضللة. لما قال عليه السلام في بيع ثماني حاجات أساسية « يدًا بيد » أن تنزلق العملية إلى ربا الفضل ... هل يقصد اليد المادية هذه؟ طبعا لا. لم؟ لأننا اليوم نتبايع بغيرها أي بالمبادلات عن بعد إلكترونيًا وهاتفيًا وكتابيًا وعبر وكلاء ووسطاء إلخ.. فما معنى يدا بيد؟ هذا تعبير عربي شائع يقصد به الحرص أن تنزلق العملية إلى ربا فضل وليس معناه تحريم البيوعات الإلكترونية اليوم مثلا وكل بيوع عن بعد.

قس « يدا بيد » على « الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى » لتدرك المعنى من منطلقه اللغوي العربي فإن لم يسعفك عقلك لحسن فهم ذاك فاعلم أن الله سبحانه لم يخلق الناس مختلفين لونًا ولسانًا وجنسًا لإختلاف أثمانهم ولكن لتفقه قانون التعدد الذي يفضي بك إلى تعظيمه سبحانه أنه واحد أحد فرد صمد ليس كمثله شيء وما عداه كله متعدد.

خذ هذه مني ودعك مما سبق وما يلحق : أطلب العلم لعقود ربت عن أربعة فلم أجن أغلى من أن مفتاح السعادة هو القرآن الكريم ومفتاح القرآن الكريم هو اللسان العربي ومفتاح اللسان العربي هو قوله « إنما العلم بالتعلم » أي بطلب العلم.

10

القصاص عدل ومساواة أم همجية وبربرية وظلامية ...

فريقان إلتقيا على الشريعة فما أنصفاها :

1. فريق يعبدون السلف الماضي فيظنون أنه ليس بالإمكان أحسن مما كان وأن الأولين ما تركوا للآخرين شيئًا أي كأنهم الأصحاب بل حتى الأصحاب عالجوا أمورًا كثيرة بغير ما عالجها هو عليه السلام وقال قائلهم « هو عليه السلام فعل الأنسب في زمانه وأفعل أنا الأنسب لزماني ». ولكن السلف - وفيهم الصالح والطالح قطعا وربما يكون صالحهم أكثر من طالحهم - قوم إتسع إجتهادهم للقرون القابلة كلها حتى يوم القيامة فما علينا سوى الإخلاد للراحة وإتقان فن الإجترار.

2. وفريق يعبدون الغرب فيظنون أن الإسلام تخلف ورجعية وماضوية وظلامية وبربرية وهمجية فهو مرفوض ومن إستحى قليلا أو ساقته أقدار الموازين المنخرمة فإنه قبل بالعقيدة وركل ما عداها كمن إحتفظ لنفسه من الشجرة - زيتونة مثلا أو نخلة - بالجذر المدفون تحت الأرض فحسب فبتر الجذوع وقص الأوراق وقطع الأغصان .. هل يطمع هذا بأكل شيء من ثمرتها؟

القصاص حياة.

كانت العرب في الجاهلية تقول (القتل أنفى للقتل) واليوم إضطرت أكثر من بلاد غربية إلى العمل بالقصاص في جريمة القتل العمد أملا في تجفيف منابع هذه المصيبة المستفحلة. ضل أولئك الطريق ومثلهم هؤلاء وما أصابه سوى العالمانيون من عبيد الفكر الغربي عندنا. الحياة مبناها التوازن. والعدل بين الناس يحقق ذلك التوازن فمن قتل نفسا بغير حق إما أن يقتل إلا عفوا من وليه مقابل دية وإلا فإن العفو عنه من لدن القاضي يعد شهادة تشجيع على القتل وهي شهادة يلتقطها غيره ويكون القتل ثأرًا أو لأجل المال

والمرأة والجاه وغير ذلك. أي نشجع التكاثر الذي يلهينا حتى نزور المقابر. نشجع قيم الجشع والطمع والأثرة والأنانية والفردية والإستبداد. فمن قتل إنسانا بريئا ثم تقلد علينا منصبا هل تراه يتردد في قتلنا؟

العالمانيون حوّل عوّر إذ ينظرون إلى حق القاتل في الحياة فحسب ولا ينظرون إلى حق القتيل في الحياة نفسها. هذه حياة مسلوبة لا تضيرنا وهذه حياة توشك أن تسلب قصاصًا عادلا فيجب أن نمنع ذلك. الحجة الشيطانية هي : أزهقت روح فلم نزهق روحين؟ تلك هي الطريقة السفسطائية القديمة في الحوار الأصم. لا. بل أزهقت روح بريئة وعلينا إزهاق الروح التي أزهقتها حتى يتوقف إزهاق الأرواح ظلمًا بين الناس. ذلك هو المنطق الذي إهتدت إليه الفطرة ـ فطرة قريش الجاهلية ـ ثم فطرة الأمريكان الآن مثلا. تبين إذن أن المسألة لا علاقة لها بالعقل والفطرة والعلم وحقوق الإنسان ولكن لها علاقة بالتحرشات الحزبية والأديولوجية لتضل بضاعة منافسي دوما مزجاة.

القصاص يجلب لنا حياة أي يحيينا بسبب أنه يرسم العدل بيننا والمساواة في أثماننا وأسعارنا وقيمنا فليس القاتل مصنوعا من روح هي أغلى من الروح التي منها صنعنا حتى نعفو عنه. إنما نحن متساوون في حق الحياة. القصاص الذي يقضي بقتل قاتل ظالم يجلب لنا حياة لأنه يقتل واحدا لينجو من القتل من بعده عشرات ومئات وآلاف مؤلفة وفي ذلك حياة وأي حياة. فلا يكن القصاص هو الشجرة التي تحجب عنك الغابة. هي حياة بصيغة نكرة لتظل حياة مبسوطة أي لتظل حياة في كل حقل نغشاه من بعد إيقاع القصاص.

القصاص هو الألم الذي ينقي عنك الأذى لتنعم بالعافية من بعد ذلك. أنى لنا أن نراعي مشاعر القاتل وأوليائه متجاهلين مشاعر أولياء قتيل بغير حق؟ أهذا هو العدل أم هي المساواة. أم هي حقوق الإنسان الظالم. فعلا هي حقوق الإنسان الظالم في الثقافة الغربية والفلسفة العالمانية. أما المظلوم فله القتل وزيادة.

لكم صدق العلامة إبن خلدون (**المغلوب مولع أبدًا بتقليد غالبه**).

11

الزوج لباس وسكن وحرث ...

عندما أقول للناس في الحديث المكتوب أو المرتجل أن النظم القرآني السليق القح سحرني سحرًا .. ينكرون علي ذلك لأنهم لا يفهمون من السحر سوى معناه الشرعي المنكور. حق لهم إذن أن يشطبوا كثيرًا من ديوان العرب ـ كما سماه علي عليه الرضوان ـ أي الشعر الجاهلي العربي الذي يستخدم السحر في هذا الإستخدام غزلا بالمرأة أو بغيرها..

أجل. سحرني هذا النظم العربي السليق القح. سحرني بمعنى أنه إستبد بإهتمامي فأنا به كلف كلفا. سحرني بمعنى أني أظل لزمن غير يسير مشدوها أقلب تراكيبه في ذهني فأستحضر المشركين الذين سحرهم نظمه ـ وهم أرباب الكلمة العربية بحق وربانها وحدادوها وصناعوها ونجاروها ونحاتوها الذين تحداهم هذا البيان لعله يصرفهم إليه ـ فظلوا يحاربونه عليه السلام بالنهار ثم يختلفون فرادى إلى بيته يستمتعون بسماع أعذب ما نطق به لسان عربي قح سليق ساحر. أجل. خذها مني عوراء قحلاء : لو فقهنا نحن اليوم القرآن لسانًا بمثل ما فقهوه هم لسانًا لكنا غير الذي نحن.. ولكن جنت علينا عجمتنا.

كيف تستقبل قوله عن بيت الزوجية ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[البقرة: 187]؟ البيت ملبس يلبس فيه الزوجان بعضهما بعضًا. الملبس يدثر من برد لاسع ويستر العورة أن نتشبه بالبهيمة ويضفي الزينة لنرتقي إلى مصاف الإنسانية ويشتغل مكيفا يوفر للابسه نسيما عليلا ولنا فيه مآرب أخرى كثيرة .. تلك هي الوظائف التي يتقلدها الزوجان بعضهما لبعض. هل تجد أدق من هذا التعبير وهو مجازي بالطبع. يتركب المجاز في لسانك من أكثر من عشرة وجوه. هذا هو الذي سحر المشركين وأنا في إثرهم مسحور ببلاغة هذا النظم الساحر.

الزوج سكن ـ ومازال يلحن أكثرنا بل كلنا أقولها دون مجازفة على حسابي وذلك عندما يؤنث الزوج جاهلا أنها مؤنث مجازي بالطبيعة وهي مبنى لغوي يحتمل الوجهين

فهل تجد في الكتاب (زوجة) .. وقد تحدث عنها مرات ومرات .. أم هل خطأه المشركون الذين تحداهم بلسانهم في عقر دارهم ..

الزوج سكن .. ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾[الروم: 21]. تسكن إلى زوجك كما تسكن إلى لباسك الذي كلما إلتصقت به زادك دفئا وزينة وجمالا وستر عورتك عن الناس. بعضنا لبعض سكن وملبس ماديا ومعنويا. ولا يكون ذلك إلا في الحالة الزوجية. ألا يذكرك ذلك

بقوله ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾[النساء: 21]؟ بم أفضى؟ بكل شيء. أفضى بعضهما إلى بعض جسدًا وروحًا. لذلك لا يحتاج الفعل ـ الذي يقبل اللزوم والتعدي معًا سواءً بسواء ـ إلى مفعولات.

تسكن إليها كما تسكن في بيتك. ذاك سكون فيه أو تحته وهنا سكون إلى جسد وروح. لا يسكن الإنسان إلا إلى شيء فيه روح في العادة لينعم بالأنس واللذة. البيت مهما كان فاخرا لا يوفر ذلك.

ومودة ورحمة كذلك. هي مفردات لو أحصيتها لشيدت منها فلسفة الأسرة في الإسلام. بأثر من اللباس والسكن يشعر الزوجان بالمودة وهي أعلى درجات الحب ـ إذ لا يصرف الوله المشتق من الإله إلا إلى المعبود وهو على غيره كثير ولا حرج فيه لسانًا عربيًا ينشد الإبداع أما الهيام فهو مبالغة تفيد التيه والضياع فمن هام في شيء تاه فيه وهو ربما يحق للصوفية المبتدعة وليس الصوفية الشرعية الملتزمة ـ كما يشعران بالرحمة. قيل قولا جميلا: المودة لحالات التوافق والرحمة لحالات النشوز. وبالمناسبة ينشز الزوجان معا في الكتاب العزيز وليس المرأة فحسب.

وهي حرث كذلك ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ ﴾[البقرة: 223]. الحرث هو الملك بصفة عامة كما ورد في آية الزينة في آل عمران. سمي حرثًا لأن العادة هي أن المرء يملك عاقبة حرثه في الأرض وحرثه في الأنعام وحرثه في الضرب في الأرض .. الحرث فلح يتطلب جهدًا وعملا ولذلك إستأهل أن يكون أثره ملكًا. الزوج حرث هنا بمعنى المتعة الجسدية والروحية معًا تساوقًا مع قيمتي السكن واللباس ومعنيي المودة والرحمة. لذلك قال ﴿فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾[البقرة: 223]. فهو المتعة بمثل ما يستمتع المرء بحرثه المادي أي

كسبه وملكه. وهي متعة مشتركة بالمناسبة كذلك وليست أحادية الإتجاه. « فهلا بكرًا تلاعبها وتلاعبك كما قال عليه السلام لجابر ».

كل ذلك يؤويه ميثاق غليظ ولم يغلظ الميثاق إلا ميثاق النبيين أن يبلغوا أقوامهم كلمة ربهم وميثاق الزوجية أي عقد النكاح. ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[النساء: 21]. ليس هو ميثاق كميثاق البيع عند عديمي الذكاء الذين قاسوا عقد النكاح على عقد البيع فقالوا بأن المهر ـ الصداق ـ ثمن للبضع أي الفرج. ذاك قياس مادي ساقط لا يليق بالإنسانية. بل هو ميثاق تأخذه المرأة لتستأمن عليه فهي عماد البيت وهي لذلك الميثاق أرعى ولذلك نسب الأخذ إليها وليس إليه فهو المعطي الذي يتعهد بتنفيذ قوله « خيركم خيركم لأهله ».

ميثاق غليظ إذن يحتضن إليه قيم السكن والملبس والإفضاء والمودة والرحمة والحرث والعشرة بالمعروف التي تكررت مرات ومرات كثيرات ..

تلك هي مؤسسة الأسرة التي فصلها الوحي تفصيلا دقيقًا ليسد بها منافذ المثلية الجنسية وشنائع اللواط وفواحش السحاق أن يلتحق الناس بالبهيمة وحاشا البهيمة أن تساحق .. ألسنا نرى اليوم بأم أعيننا إنهيار المجتمع الألماني ـ مثلا ـ وإنقلاب وضعه العمراني رأسًا على عقب كما يتنبأ لذلك في حدود 2025؟ والسبب التمرد على مؤسسة الأسرة.

12

بين الكبير والأكبر ... مسافة فقه ومساحة حق.

أرسل عليه السلام ذات مرة وهو بالمدينة سرية إستكشافية إذ كان مهددًا من لدن قريش ومن تجنده للثأر منه والله وحده يعلم ما يبيت له الخصوم. وإتفق أن إشتبكت تلك السرية مع ثلة من المشركين وكان قائد السرية يظن أن الإشتباك وقع في آخر أيام الشهر السابق للشهر المحرم ولكن ثبت خطأ ظنه فإهتبل المشركون بمكة ذلك وشنوا حملة إعلامية واسعة

عنوانها أن النبي الذي يزعم دعوتكم إلى الحق والخير لا يرعى في الحرمات إلا ولا ذمة ولما بلغه ذلك عليه السلام عاتب قائد السرية وسرعان ما نزل الوحي مصححًا الأمر بقوله ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾[البقرة: 217].

يحمل هذا التصحيح قيمة كبيرة ومهمة عنوانها أن المسلمين مطالبون برعاية الحرمات وتكاليف الدين دون ريب سوى أن ذلك لا يجعلهم سذّجًا مغفلين يبسطون أنفسهم لخصومهم الذين يفترسونهم بإسم الدين وما تنزل الدين إلا لتحريرهم وليس لتكبيلهم.

يحمل التصحيح فقه مراتب الأعمال بتعبير إبن القيم ليظل المحرم الذي يفضي إلى الفساد والتهلكة في حالات إستثنائية خاصة مباحًا بل مطلوبًا. ألا ترى هنا صيغتي (كبير) و(أكبر). فالكبير يظل كبيرًا في حرمته ولكن نطؤه ونطأ حرمته عندما يتخذ من لدن خصومنا أو غيرهم ذريعة للإيقاع بنا لأن النفس هنا مقدمة على الدين. نطأ الكبير توقيًا للأكبر. وكذلك الشأن مع الواجبات والفرائض لا نأتي منها ما يفضي إلى مفسدة من مثل تأمين خائف فارّ من القضاء العادل من بعد عدوانه على الناس وأموالهم حرابة. الأصل ألا يتعارض الأمران ولكن صروف الدنيا موارة دوارة وحمالة للإستثناءات التي تراعى وفق تلك القاعدة الأصولية العقلية المنطقية (نتحمل الضرر الأدنى توقيًا لضرر أكبر ونتخلف عن واجب أصغر لتأدية واجب أكبر).

مبنى الشريعة التمييز بين مختلف مستوياتها ودرجات تكاليفها أمرًا ونهيًا فمن وضعها كلا واحدًا في سلة واحدة ما فقه منها شيئًا ومن فرز تلك المستويات فميز بينها تمييزات مناسبة بمعايير مناسبة أصاب الأدنى إلى الحق والأنسب بالرشد.

الشهر الحرام مصون أن نحترب فيه حربًا لم نجد أي بد لتلافيها ولكن عندما يهتبل خصمك ذلك فيشن عليك غاراته ظنًا منه ـ أو جس نبض ـ أنك ستظل ساكنًا بإسم الدين فما عليك سوى معاملته بالمثل لأن النفس هنا مقدمة على الدين ولأن الحرمة الزمنية إنما شرعت لحفظ الحرمة البشرية فإن لم يكن ذاك فأي معنى لحرمة زمان تسفك فيه دماء الإنسان.

ولهذا تطبيقات لا تحصى ولا تعد. سوى أن السذج منا يظنون الدين شيئًا جامدًا لا يتعلل ولا يتقصد ولا يخضع للفهم والعقل فكأنه عقوبة إلهية علينا تحملها والحق أن من بدأ مرحلة فقهه للدين على أساس أنه ما تنزل إلا لحفظ مصلحة الناس في معاشهم ومعادهم بسبب أنه معلل مقصد مفهوم معقول وله مراتب وأولويات ومستويات .. من بدأ رحلته الفقهية بمثل ذاك جدير بأن يتصرف تصرفا إلى الدين ومقاصده أدنى وبالإنسان أرحم.

إدرس إن شئت معالجة الخضر لسفينة المساكين لتعلم أن القصد إلى إرتكاب الشر إبتغاء صرف شر أكبر منه عبادة عقلية ذهنية مأجور صاحبها لحسن فقهه إذ قال عليه السلام في الحديث الصحيح « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم ». وتفكر إن شئت لم عدل عليه السلام عن إعادة بناء الكعبة على قواعد إبراهيم (أي ضم حجر إسماعيل من بعد ما هدمته السيول الجارفة)؟ عدل عن واجب إلى واجب أكبر منه ألا وهو رعاية المستوى العام للمسلمين يومها وكذلك المستوى العام للمشركين وكلاهما حديث عهد بشيء غير مألوف وهو ما نسميه اليوم رعاية الشاهد الدولي.

13

التشريع مبناه المنافع والمفاسد.

سبق أن تحدثت مرات عن مختلف موازين الإسلام بحسب الحقل فلا يعالج أي حقل إلا بميزانه الخاص به. لما أراد سبحانه تحريم الخمر ظل الوحي يتنزل متدرجا خطوة خطوة في إتجاه توفير المناخ الملائم لحكمها الشرعي النهائي. وفي خطوة من تلك الخطوات قال سبحانه ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ؟ قُلْ : فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾[البقرة: 219]. سؤال الأذكياء هو : لم لم يقل إنها حرام وكفى. لم يريد تفقيهنا بالمقصد من تحريمها. هل يخشى علينا ألا نطيع؟ لا طبعًا. ولكنه سبحانه يريد تعليمنا فلسفة التشريع أي الحكمة منه فلا يكتفى منا بعلم الحرام والحلال بل يفقهنا في الدين حتى نعلم لم كان هذا مباحًا ولم كان ذاك حرامًا وهكذا.. يكون ذلك منه سبحانه تبعا

لكلمة صاغها الأصوليون أحسن صياغة وذلك عندما قالوا (الأحكام متناهية والأحداث غير متناهية). لا يمكن أن يستوعب الوحي حكم كل شيء لأنه لا وجود لنهاية فيها كل شيء ولذلك حرص التشريع على وضع قواعد ومعايير من فقهها عرف كيف يقيس الأشياء بعضها على بعض بسبب إشتراكها في العلة أو المقصد كما يعرف أمورًا أخرى كثيرة يدرسها طلاب العلم.

علمنا هنا قاعدة تشريعية جليلة عنوانها أنه يعسر جدًا أن تعثر على شيء خالص المتعة فلا خبث فيه ولا على شيء خالص الخبث فلا متعة فيه وتلك هي سنته سبحانه في كونه وخلقه ومن ذا وضعت هذه القاعدة التي قوامها أن غلبة الخبث تعني الحرمة وأن غلبة الطيب تعني الحلية والإباحة. ثم جعل من الخمر هنا ومن الميسر مثالين إثنين.

منفعة الخمر هي المنفعة المالية المترتبة عن الإتجار به وليس له منفعة ذاتية فيه والمنفعة المالية منفعة معتبرة إذ المال قوام الأعمال و« نعم المال الصالح للعبد الصالح ». وهي منفعة الميسر ـ أي القمار بالتعبير المعاصر ـ كذلك. ولكن ما يحملان ﴿ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾. من آثام أكبر وأوسع ولذلك يحكم العقل الفطري السليم بحرمتهما. « الخمر أم الخبائث » كما قال عليه السلام أي أن المخمور يمكن أن يقترف الجرائم كلها لأنه فاقد لوعيه فهو غير مكلف في تلك الأثناء ولذلك قال سبحانه ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾[النساء: 43]. واليوم رصد الأطباء أضرارها البدنية وعليها يقاس كل خبيث يذهب بالمال ويفتك بالعافية من مثل التدخين والمخدرات وما يشترك معها ومعهما في العلة (وصف ظاهر منضبط بلسان الأصوليين).

وعندما ملكنا سبحانه ذلك المقياس الأصولي حملنا مسؤولية الإجتهاد والتحديث والإبداع والتجديد والنظر وفي فقهنا ثروة تشريعية لا نظير لها في الدنيا والتاريخ رغم ما أسبغت عليها عاتيات الإنحطاط من أردية التقليد والجمود.

بمثل تلك الآلية الأصولية يمكن للدعوة الإسلامية أن تتقدم سيما في زمن نفعي بإمتياز شديد مثل زماننا. وبمثلها لا يحجز الإسلام أن يستوعب الحياة ويذلل دروبها ليجعل منها ساحة بناء وعمل ولو كلفت نفسك بإحصاء المحرمات فلن تملأ ورقة واحدة مهما

توسعت أو كنت من رواد مدرسة التشدد أو التشديد والتضييق ولو حاولت إحصاء المباحات لإحتجت إلى أسفار في إثرها أسفار تنوء بحملها عابرات القارات والأفلاك.

وبمثل ذلك فإن التشريع ما حرم شيئا إلا دل على البديل الطيب له. إذ قصد التشريع تهيئة الأرض والحياة للناس حتى يتسنى لهم أداء المهمات والوظائف التي لأجلها خلقوا فإذا كثرت الحواجز والمحرمات والموانع تعذر عنهم ذلك.

ولكم أعجبتني قالة قوامها أن الذي يضع أمامك علامة حمراء قانية تحذرك أن تطأ منطقة إنتشرت فيه الألغام عشوائيًا .. يحتاج منك تحية وعرفانا حتى لو كان سيعيق سيرك قليلا أو كثيرًا إذ هو فعل ذلك رحمة بك وليس إنتقامًا منك. ولله المثل الأعلى سبحانه.

14

بأي حق نمنع من نكاح مشركة أو إنكاح مشرك؟

ليس في الإسلام حكر على سؤال أبدًا. بل إن طريق السؤال هو طريق العلم.

أليست تشترك المشركة مع الكتابية في الأنوثة (عندها الذي عندها بتعبيره عليه السلام في موضع آخر)؟ فلم تحل لنا هذه وتحرم علينا تلك.

1. الشريعة محكومة بالعقيدة فالعقيدة هي الحاكمة المتبوعة والشريعة هي المحكومة التابعة ومن قلب السلّم ضل وأضل.
2. العقيدة متشددة جدًا مع الكفر كله ولكنها كعادتها لا تضع كل شيء مهما تقارب في سلة واحدة كما يفعل تجار الجملة بل تفصل لتجعل الشرك ـ هنا ـ أقبح من الإنتساب الكتابي وتجعل النفاق الأقبح أبدا وتليه الردة الصحيحة قبحًا وهكذا ..
3. نكاح الكتابية ـ وهو مباح مطلقًا ولكن يتعرض كل مباح للتقييد حتى لو كان شرب ماء ـ فيه رسالة إليها وإلى قومها أن ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ [آل عمران: 64]. وهي رسالة تعبّد الطريق وتقلص من المسافة وخاصة من بعد البناء والحياة الزوجية تحت سقف

واحد وفوق أديم واحد .. هنا تظهر شطارة المسلم ومهاراته الدعوية قدوة بالرحمة والحلم والصبر لا باللسان. وصدق القائل « لا تدعني إلى دينك ولكن إجعلني أحبه ».

4. نكاح الكتابية ينمي المساحات المشتركة وهناك في كل يوم مناسبة للعبادة ومن هنا يولد الحديث ـ ليس حديث الدعوة ـ ويولد العمل التعبدي وكلاهما يرقب صاحبه. فهما لبعضهما بعضًا لباس وسكن ومودة ورحمة وإفضاء وبينهما ميثاق غليظ ..

5. الرسالة الإلهية هنا هي بوضوح وجلاء : أنا الواحد الأحد وليس كمثلي شيء فلا أقبل أن يحيا عبدي المؤمن مع مشركة (وتقاس عليها كل لا دينية أو ملحدة والشرك نفسه اليوم ضروب وضروب) إذ لا مودة ولا رحمة ولا إفضاء ولا سكن ولا لباس بين الإيمان وبين الشرك الذي هو جريمة في حق النفس وفي حق العقل الذي لا يقبل إمكانية الشرك ولكنه يقبل إمكانية الإنتساب الكتابي بسبب سابقة تاريخية ومشترك ديني وغير ذلك. الرسالة هي : التوحيد أغلى من أن تدنسه مشركة لا أخشى على عبدي منها بل ربما تهدى بسببه ولكن الإيمان أنقى من ذلك وأخلص وأعلى .. وليس ذلك كثيرا على رسالة الإسلام العظمى أي توحيد الله سبحانه. الكفر كله جريمة ولكن التمييز بين المستويات هنا لازم. أهل الكتاب لهم سابقة ولكن أي سابقة للمشركين إذ أن الشرك في التاريخ طارئ لا قرار له. « أن تجعل لله ندا وهو خلقك ».

6. هناك ملحظ آخر إنقدح في ذهني وربما يكون له من الأمر نصيب وقوامه أن المشركة التي تضيق بها ضائقات إجتماعية في مناخات يظهر فيه الإسلام قد يتألف قلبها إلى الإسلام بحثا عن منفعة عاجلة إبتداء ثم سرعان ما تطرد عن نفسها غوائل إفك لا طائل من ورائه. ربما يتألف الإسلام قلبها بإعلان الحرمان أولا ولقد ثبت لي تجربة أن أقصر طريق إلى الإسلام هو الحياة في المجتمع الإسلامي أي طرق باب الإسلام الإجتماعي ثم تتكون الفكرة وتتغير وهكذا. لكم نرهق نحن أنفسنا عندما نظن أن الإسلام فكرة ربما فيها من البدع ما فيها ومن الجدة والغرابة بما يجعل بينها وبين الناس جدارا سميكا. الإسلام أيسر مما نحمل في عقولنا والتاريخ في كل مراحله أثبت أن أقصر باب إلى الإسلام إنما هو الخلق الذي هو ثمرة عشرة وتعارف. كلما

أخبرتني ألمانية مسلمة أو على وشك الإسلام أو حديثة الإسلام ـ بل شاورتني ـ أنها تريد قضاء أسابيع في بلاد عربية كدت أثنيها خوفا عليها ـ بل عليّ ـ أن تكون صورة الإسلام في رأسها غير الصورة التي ستلقاها هناك. وعند عودتها ألفاها مبتهجة مسرورة سعيدة بما رأت وشاهدت وما زادها ذلك إلا ثباتا. قلت في نفسي : سبحان الله. وعندما أفكر بمكث أقول : أنا أنظر إلى الإسلام من نافذة الفكرة لأني سليل مجتمع إسلامي وليس ذاك هو ميزانها فهي تكتشف عالما جديدا فيه مظاهر التكافل والإلتقاء وبعض الحنان والتزاور وبعض التلقائية ونبذ التوجس من الغد الأحبل وما لم تعهده هي في مجتمعها.

7. أما تحريم إنكاح المشرك فهو أوضح إذ أن الرجل في العادة ـ والعبرة بها ـ أقوى (حتى بمعنى أعنف وأقسى إن شئت) وبذا يكون نكاحه كتابية ليس فيه أي تضييق عليها في عبادتها لأن دينه يعترف بدينها إعترافًا واقعيًا حتى لو كان يسحب منه المشروعية الدينية ولكن عندما يرأس البيت مشرك فهو لن يسمح للمسلمة ـ ولا للكتابية سوى أن ذلك لا يعنينا ـ بتنفيذ عشر معشار عبادة من دينها لأنه كافر بالدين كله ولا إلتقاء معه ومن هنا تعرض المسلمة إلى فتنة في بيتها فإما أن تتحول إلى مشركة أو تسام الخسف. وهو الأمر نفسه الذي بسببه لا تنكح المسلمة من لدن غير مسلم ولو كان كتابيًا. يسمى هذا تمييزًا إيجابيا بيننا وبينهم وليس هو من باب المكاييل الجائرة. تمييز على أساس الحرية التي يضمنها المسلم للكتابية ولا يضمنها الكتابي ـ بله المشرك ـ للمسلمة. والحرية هي مقصد الدين الأعظم.

الأسرة خلية المجتمع الأولى وهي المزود له بالكائن الإنساني والإنسان هو مستودع خلافة الله وهو أمينه في أرضه والمسؤول على تنفيذ إرادته ومن ذا أحيطت الأسرة ـ مصنع الإنسان ورحمه ـ بتشريعات تناسب وظيفته ورسالته ومهمته.

الشريعة حريصة على إبقاء الجدار النفسي بين المؤمن وبين المشركة قائمًا سيما في المساحة الباطنية الداخلية التي فيها مودة ورحمة وإفضاء وحرث ونسل حرصها على تحرير الحرم المكي من مشركين يقر لهم فيه قرار. ومن شأن العقلاء التفريق بين الأضداد.

15

الإصلاح مقدم على كل شيء ...

هذا يشترك كثيرا مع حلقة سابقة حول موضوع (الكبير والأكبر) أي في مسألة وطء حرمة الشهر الحرام إذا كان لا بد منه لإعلاء قيمة أخرى أعظم ..

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [البقرة: 224]. جعل الله ـ أي إسمه قسما به ـ عرضة للأيمان معناه أن الإنسان عندما يقسم بالله سبحانه ـ وهو مأمور ألا يقسم إلا به إن أقسم ـ ثم يتبين له أن هناك ما يستوجب حنثه خدمة لقيمة أخرى مقدمة في الإسلام معظمة في الشريعة فعليه ألاّ يتردد لحظة في التكفير عن يمينه وإتيان الخير أو البر أو الإصلاح الذي أصبح واجب وقت بتعبير إبن القيم.

هذا يحدث للناس كثيرًا بحسب التجربة التي تروى لي. حنث اليمين منكر معروف لأنه إستخفاف بعظمة الله سبحانه ولكن عندما نكون في وضع لا بد فيه من حنث اليمين لأجل تقديم خدمة أو إسداء معروف من مثل الإصلاح بين الناس .. فإننا نتحمل الأدنى مكفرين عنه لنصل إلى الأكبر والأعظم .

رجل أقسم بالله في ساعة غضب ألا يصل جاره أو رحمه أو يواصل إصلاحًا بين متخاصمين ألحدا فيه .. عليه ألا يجعل من قسمه ذاك عرضة تمنعه من إتيان الذي هو خير لأن اليمين المنعقدة تجبر بالكفارة ولكن التخلف عن مثل ذلك لا يجبر إلا بعد أن ينصرم الصف الإجتماعي للناس ..

هناك مثال رواه القرآن الكريم نفسه في سورة النور وهو متعلق بالصديق الذي لفرط غضبه على مسطح المتورط في قذف إبنته مع المتورطين أقسم ـ أو عزم ـ ألا يواصل إنفاقه عليه. ولكن القرآن نهاه عن ذلك وأمره بالعفو والصفح وهي كبيرة وثقيلة جدا لا يشعر بها سوى من طعم مرارتها ولكن إرضاء الله عند الصديق أكبر وأثقل ..

سواء أقسم الصديق أو لم يقسم فإن العبرة هنا هي أنه أعرض عن عزمه السابق لأجل صلة مسطح الذي هو قريب ومهاجر وفقير وغير ذلك ..

ذلك مثال ساطع باهر ..

هناك دلالة عدم القسم به سبحانه في مثل تلك الحالات حتى لا نتأخر عن إتيان العزائم الكبرى ولكن المعنى العام لا يتغير سواء أقسم الرجل أم لم يقسم إذ العبرة هي بتقديم ما قدمه سبحانه سواء كان عزمنا على غيره أو سبق منه القسم عليه ..

تلك هي فلسفة الشريعة وذلك هو منطقها .. شريعة عمدتها إصلاح الأمر في أي حقل كان إذ أن تصريم الصف ـ أي صف موسع أو مضيق ـ هو طامة الطامات وناكية الناكيات. حتى لو عمد إمرئ إلى تعذيب نفسه ـ كما فعلت إمرأة في طريقها إلى الحج أو وقف آخر في الشمس أو ربطت الأخرى نفسها حرصًا على الصلاة ـ في سبيل الله فإن الأولى هو تحرير النفس من ذلك العذاب ومواصلة العبادة بالقدر المستطاع فما بالك لو كان الأمر متعلقا بتحرير الناس سواء من نير الرق الدولي أو الحكومي أو المالي الربوي أو من براثن الجهل والأمية أو من سجون التفرق والتمزق وكهوف المديونية إلخ ..

تلك هي الشريعة صاحبة المستويات المختلفة والدرجات المتنوعة فهي شريعة واحدة فسيفسائية البناء محبوكة التشييد وليست هي كومة مكدسة لا تكاد تميز فيها شيئًا عن شيئ.

الجماعة فيها مقدمة ولكن للفرد حرمته ..

الدين فيها ضرورة الضرورات (الخمس) ولكن تتقدمه النفس خارج ساحات الوغى..

الإنسان فيها مقدس محرم مكرم لا يجبر قتله البتة ولكن ترتفع حصانته التشريعية تلك عندما يكون معتديا على غيره ..

لا شيء يحول دون فعل الخير فيها ..

لا شيء حتى القسم المغلظ يمينا منعقدة به سبحانه ..

16

ولهن مثل الذي عليهن ...

هذا التركيب اللغوي وحده يعني المساواة مطلقًا. لك من الأجر مثل الذي عليك من العمل. تلك هي المساواة. نحن اليوم نكفر بالمساواة لأن خصوم الإسلام يستخدمونها ضد الإسلام. لا يسمى ذلك ـ من لدنا نحن ـ أسلوبًا علميًا ولا منهاجًا موضوعيًا. ذلك يسمى ردّ فعل غاضب متوجس متشنج. لو فرطنا في كل قيمة إستخدمها الخصوم ضد ديننا لما ظفرنا من ديننا بشيء. الإسلام ليس بدعًا لا من الحياة ولا من الدين بل هو من المشكاة نفسها. هل جاء الإسلام بقيمة أخرى غريبة عن الناس أثارت حفيظتهم؟ أبدًا. ما عارض الإسلام أحد من بعد حسن فهم رسالته إلا لكبر وهو كبر عادة ما تبعثه المصالح التي توفرت له قبل ورود دعوة الإسلام إليه. الإسلام هو اللبنة التي ظل البناء الديني الشامخ من قبله عفوا منها. هو خاتم الدين ونبيه هو خاتم الرسل وختام ذاك وهذا مسك.

دعنا نقرأ العلاقة في موضعين ومن زاوية فكرية.

هي العلاقة بين الرجل وبين المرأة. عندما نقرؤها من زاوية فكرية نلفى أنهما يشتركان في شيء قاعدي صلب سميك إبتدائي عنوانه (المساواة المصدرية في الخلق ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[النساء: 1] + المساواة الرسالية ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات: 56] + المساواة في المرجعية النهائية ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[الزمر: 30]). مساواة تامة كاملة مطلقة في الآدمية « كلكم لآدم وآدم من تراب» وفي الخلقة والتصوير والتقويم ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[التين: 4] وفي الجبلة النفسية ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[الشمس]. إلى آخر ذلك من مظاهر المساواة الطبيعية الأولى خلقًا ورسالة ومصيرًا وتقويمًا ونفسًا ... تلك مساحة الإشتراك الواسعة.

وهناك مساحة إختلاف كذلك أكثرها بدني بيولوجي وبعضها نفسي باطني من مثل نزوع المرأة في العادة إلى الزينة أكثر من الرجل وإلى اللطف والحنان والرفق كذلك. وذلك

الإختلاف النفسي والبيولوجي كذلك إنما هو تجهيز لكل منهما ليقوم بوظيفته الخاصة ضمن الوظيفة العامة كأحسن ما يكون القيام بمثل عدد من العمال في مصنع واحد يختص كل واحد منهم بجزء من الآلة المراد إنتاجها فلو تخلف واحد منهم تخلفت الآلة.

هما إذن مشتركان في مساحة واسعة مساواة خلقية من الباري سبحانه وفي الآن ذاته مختلفان في مساحة أخرى أضيق هي مساحة التخصص الوظيفي تحت سقف الرسالة العامة أي رسالة العبادة والعمارة والخلافة وإقامة العدل.

وما إشترك شيئان في أمر وإختلفا في الآن نفسه في أمر آخر إلا للتعاون على وظيفة التكامل بينهما. كالليل والنهار والشمس والقمر وغير ذلك من الزوجيات التي شيد عليها سبحانه كونه وخلقه.

تلك هي فلسفة العلاقة بين الرجل والمرأة : إشتراك وإختلاف ليكون تكامل. هل ينشئ ذلك قولا سقيمًا بعلو هذا على ذاك أو أفضلية تلك على ذلك؟ أبدًا. إذ ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾[النساء: 34]. ليكمّل كل واحد منه الثغرة التي تركها صاحبه بسبب خصوصية وظيفته الدنيا تحت سقف رسالته العامة. فلم يقل هنا (بما فضل الله به ..) بل قال هناك (بما فضل الله به ..). هنا ـ في حقل بيان المساواة بينهما ناشئتها الإشتراك والإختلاف ثم التكامل ـ حذف حرف الجر المضمور (به) ليفيدنا أن كلا منهما مفضل على صاحبه بشيء فكلاهما مفضل من ناحية وكلاهما ناقص من جهة أخرى وبذا يتكاملان. أما عند الحديث عن الإرث أتى بحرف الجر المضمور (به) ليفيدنا أن الرجل مفضل بالبنية التي بها يجلب المال فيرث ضعف المرأة والمرأة مفضلة بالإعفاء من بناء البيت بل تقبض فيه مهرًا مصدوقًا ونحلة ولذلك ترث نصفه فحسب في الحالات العادية لأنها أكلت نصفها الآخر عندما أعفيت من ذلك ومن أعباء النفقة على إمتداد عقود حتى لو كانت في مثل يسار قارون.

أرأيت كيف أن حرف جر واحد يمكن أن يحدث في ذهن المتعجل تشويشًا وإضطرابًا. ألا ترى أنه يحتفي بأنه قرآن عربي مبين بلسان عربي مبين ليقول لك : مفتاحي لسان العرب.

ولكن للعلاقة موضعين

موضع الأسرة وفيها تتنزل قيمة الدرجة ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[البقرة: 228]. وموضع الحياة خارج إطار الأسرة وفيها تتنزل قيمة المساواة في معالجة الحياة ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[التوبة: 71]. الدرجة مقصورة على سقف البيت من ناحية ومن ناحية أخرى هي درجة المسؤولية المالية ﴿وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾[النساء: 34]. إذ المال يحفظ البيت بمن فيه وما فيه ويضمن قوته عندما يكون مقودا بالإيمان. هي درجة القوامة التي تعني المسؤولية التكليفية وهي جسيمة وغير مأمونة العاقبة لمن لم يرع حقها ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾[النساء: 34]. درجة قوامة بسبب الأفضلية البدنية قوة وتفرغا لها وبسبب الإنفاق من المال وجوبا لا مزية من أول أيام الزواج حتى تقسيم تركة الهالك. وكل ذلك محكوم بالأصل الأصل حتى لا يكون القرآن فينا عضين مبثوثًا بثًا لا نظم فيه. وليس الأصل هنا سوى ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾[البقرة: 228]. أي مساواة قانونية لا بد أن تعالج ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي بنظام أخلاقي يرعى مفردات الميثاق الغليظ من سكن وملبس ومودة ورحمة وفضل وإفضاء ..

لهن مثل الذي عليهن بالمعروف إذن إعلان المساواة الكاملة المطلقة في الحياة بين الرجل والمرأة فإن شغبت الدرجة أو القوامة على ذلك فقد شغبت علينا عقولنا الأفنة وما حذقنا من فقه هذا الكتاب البديع شيئًا.

17

هل كفرت بالطاغوت ..

في موضع واحد في القرآن الكريم قدم سبحانه الكفر بالطاغوت على الإيمان به وكان ذلك في سورة البقرة في أعقاب أعظم آية أي آية الكرسي وإعلان الحرية الإنسانية والكرامة البشرية ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[البقرة: 256]. وورود ذلك مرة واحدة لا يعني تهوينًا من أهميته. قال الشاعر (تعيرنا أنا قليل عديدنا ... قلت لها إن الكرام قليل).

قال تعالى ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ..﴾[البقرة: 256]. هذه الفاء فاء خبرية.

ما هو الطاغوت وكيف نكفر به ولم قدم؟

الطاغوت أرقى صيغ المبالغة على وزن فعلوت كرحموت وجبروت إلخ .. فعلوت وفعلان أرقى صيغ المبالغة فكانت للرحمان سبحانه مبالغة في الرحمة أن يقنط من فضله عاص نكد وكانت للطاغوت الذي يعبد من دون الله سبحانه. الطاغوت من الطغيان (طغى يطغى) والطغيان مصدر مبالغة على وزن فعلان. طغى تعني ربى وعلا. طغى الماء على الربوة أي علاها. الطاغوت هو ما عظم في النفس فهابته وخشيته وإتقته أو أملت فيه وطمعت ويكون ذلك طغيانا ماديا كحاكم جائر أو طغيانًا معنويًا كما يقدس الناس أمواتهم أو أرواحًا إبتدعوها. عندما يطغى ذلك الشعور في النفس لأي سبب يسمى صاحبه طاغوتًا ويسمى الذين يقدسونه أو يعبدونه أو يهابونه ـ إلا تقية ـ عبد الطاغوت وأصلها عبدة الطاغوت ولكن حذفت التاء تيسيرًا للنطق. ليس من شرط الطاغوت أن يكون طاغيًا في الحياة والدنيا ولكن من شرط الطاغوت أن يكون طاغيًا في النفس لأن النفس هي محل العبادة والتقديس والخوف والطمع ولكن الجوارح جنود قد تصدق وقد تكذب.

الكفر بالطاغوت ـ أي طاغوت تعظمه النفوس إلى حد العبادة والتقديس ولأي سبب ـ يعني جحود أن يكون له أي دور في النفع والضر والإحياء والإماتة والرزق والخلق والتدبير والحاكمية والولاية والربوبية والألوهية. إنما المشدد عليه هنا والمؤكد هو أن الإيمان والكفر عمليتان نفسيتان لا ماديتان لأن المادة لا عبرة بها هنا فقد يصحب مؤمن قوما مشركين مستخفيا بإيمانه أو يرقب فرصة سانحة وقد يصحب مشرك قومًا مؤمنين للسبب نفسه أو لغيره. الإيمان والكفر هما أمران قلبيان عقليان إبتداء مبدوء.

المؤكد هنا أنه سبحانه قدم في هذا الموضع بالذات الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله وجعلهما شرطا للإستمساك بالعروة الوثقى لا إنفصام لها .. فعل ذلك لأغراض منها التشديد على أن الحقيقة ـ والإيمان أعظم الحقائق بل هي حقيقة الحقائق كلها ومشكاتها

الأم ـ لا بد لها أن تحتل مكانها من بعد تطهيره مما يشغب وتلك هي الفلسفة التركيبية التي شيدت بها شهادة التوحيد العظمى (لا إله إلا الله) إذ نفت الألوهية أصلا مطلقًا نفيًا كاملا ومن بعد تحقق ذلك في النفس يأتي الإيمان ليحتل مكانه طاهرًا مطهرًا لا أثر فيه لرجز ولا لنجس.

هما يشتركان في التركيب اللغوي نفسه (فمن يكفر بالطاغوت = لا إله) و (يومن بالله = إلا الله). كل متأله هو طاغوت إبتداء مبدوء ثم يأتي الإستثناء لأن الله سبحانه يتكبر ويعلو ويقهر بالحق وليس بغير الحق فهو ليس طاغوتا لأن في الطغيان علو بغير حق شرعا ولكن لغة ليس ثمة مثل ذاك.

هذا الموضع شبيه جدًا بالمعنى والدلالة بإيمان إبراهيم ـ بطل قصة التوحيد كلها تقريبًا في القرآن الكريم ـ الذي قال عنه في عقب رحلته من الشك إلى اليقين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾[الأنعام: 82]. ثم سماها حجة ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾[الأنعام: 83]. ذلك هو الإيمان المطلوب أي الإيمان الإبراهيمي وكل نبي إنما هو على ملته ونحلته عدا من تقدم منهم وهم بالتحديد نوح عليه السلام وربما نبي آخر وليس أكثر.

ذلك يعني أن الإيمان درجات وأعلى درجاته هي أن يكون مسبوقا بالكفر بالطاغوت فمن إحتسى عسلا مصفى في قحف كلب يطعم في حثالته ما يزكم أنفه بما لا يهوى .. أعلى درجاته هي تطهيره من لوثات الشرك كلها وشائبات الكفر جميعها.

ألا ترى أن أكثرنا اليوم غارق في مستنقعات الشرك الأوسط أو الأصغر من مثل تعليق التمائم والبحث عن المفقودات لدى الدجالين والمشعوذين والإستعاذة بالجن لقضاء الحاجة والتطير والتكهن وقراءة الكف والتقحم على الغيب المغيب بصور غريبة وعجيبة ولوثات شركية أخرى كثيرة لا أستحضر منها الآن غير ذاك وهي معلومة معروفة في مجتمعاتنا العربية والإسلامية بمقادير مختلفة .. ومنها كذلك المبالغة في أمور خلافية من مثل التوسل حتى به هو عليه السلام والنذر والإكثار منه وهو (لا يأتي بخير) وما سكن الأفئدة من تلك اللوثات كثير وكبير وخطير.

عندما أعظ الناس فأقول مثلا أنا كافر بهؤلاء الذين تعودونهم إبتغاء شفاء أو ولد ـ وأمعن أحيانا بتسمية بعضهم إستنانا به أنه كان عليه السلام يسب آلهتهم أي يعلن في حضرتهم عدم قدرتها على تدبير أي شيء وذلك يعد سبا في اللغة وعندهم هم ـ عندما أفعل ذلك يهمس إليّ بعضهم أو يسرّ من بعد إنقضاء الموعظة ألا تبالغ أن يعتريك بعضهم بسوء. وكنت أسمع من أمي حديثًا ـ عليها الرحمة ـ ينهاني أن أتعرض لمن هم محل تعظيم من الناس وفي العموم ينصحني الناس دوما أن أدعو إلى الله دون التعرض لما يعتقدون لا بالإسم ولا حتى بالمبالغة في نزع التدبير عنهم.

ذلك هو معنى الكفر بالطاغوت. فلا يتحقق إيمان مثل إيمان إبراهيم عليه السلام حتى يكون منك ذلك. تكون التقية حيال حاكم جائر لمن أراد ذلك وضن بنفسه عن ربه ولكن التقية من الطواغيت الأخرى المقدسة والمعبودة هو إيمان بالطاغوت أو عدم كفر بها كفرًا يرضى عنه سحبانه. ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[النحل: 36]. و﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ .. ﴾[الزمر: 17].

18

هل لك من فطنة إبراهيم حظ؟

إحتل إبراهيم الخليل عليه السلام من كتابنا حظًا كبيرًا. هذا النبي العظيم أحبه لفرط ما قص الله لنا من سيرته الجامعة بين خلوص التوحيد الإلهي الصافي كفرًا بالطاغوت وإيمانًا به وحده سبحانه وبين القوة العقلية والذكاء الفطري الوقاد وبين الجرأة والشجاعة والإقدام وبين التضحية التي فاقت الحدود العقلية إذ قدم فلذة كبده الوحيد وقد بلغ معه السعي قربانا يذبحه بمدية من حديد بيده هو وليس توكيلا.. ومناقب أخرى. قالت العرب قديمًا : قلّ في الناس جدًا من يجمع بين القوة وبين الأمانة أي بين العلم وبين الحفظ. هؤلاء قليل من قليل من قليل. هذا واحد منهم جعله سبحانه للناس إمامًا فكان أمة. فرد في أمة وأمة لا تساوي فردًا.

لما جاء خليل الرحمان يدعو النمرود ويجادله ظهرت قريحة هذا النبي الخصبة الثرة وكان المشهد عقديًا صرفًا فكيف بدأ المباراة أو المبارزة؟ عمد هذا النبي الفطن الذكي إلى مركب من مركبات هذا الكون (الشمس) وقال لخصمه ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾[البقرة: 258]. هل جادله بمثل ما نجادل نحن اليوم نقرظ عقمًا غثًا من مثل واجب الوجود أو أين الله هل هو في السماء أم لا وكيف يكون معك دومًا (يعنون حتى في بيت الخلاء مثلا) وغير ذلك من السفالات والحقارات العقلية. ذلك هو معنى أن العقيدة مصنعها الكون وليس الكتب. لم يكن للصحابة كتب ولا حتى الكتاب العزيز نفسه. كانوا أميين بالكامل في أغلبيتهم الساحقة. عندها ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾[البقرة: 258]. بهت لقوة الحجة وهي حجة متاحة في متناول كل أحد لو تركنا الكلام الفارغ والكبر الجشع النهم.

وكان النمرود قبل ذلك قد إنهزم في الجولة الأولى وذلك عندما قال ﴿قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة: 258]. أي إله مثل إلهك يا إبراهيم. فهم هذا النبي الفطن الذكي أن الإحياء والإماتة عند النمرود هي أن يأتي بإثنين يحكم عليهما بالقتل فيقتل أحدهما ويعفو عن الآخر ومن عفا عنه فقد أحياه. السؤال هو : لم لم يستجب إبراهيم لخصمه في هذه الجولة الأولى؟ لم عدل عن قضية الإحياء والإماتة إلى قضية الشمس؟ هنا ملمح عظيم جدًا لمن ألقى السمع وهو شهيد. إبراهيم الخليل أحرص الناس على حياة الناس حتى لو كانوا كفارا فمهمته هي دعوتهم وليس قتلهم. لذلك عدل عن المشهد الأول أن يقتل واحد من رعية النمرود ظلمًا بدعوى أنه يحيي الموتى. رسالة إبراهيم هي الحياة وليس الموت حتى عندما لا يكون هو القاتل فإنه يتحاشى أن يكون عضوًا في مشهد سفاح ما إستطاع إلى ذلك سبيلا. لو قتل الرجل لما كان على إبراهيم من وزر ولكنه أذكى من ذلك وأفطن.

كذلك الداعية الناجح. يحرص على حياة الناس وحرماتهم وكراماتهم قدر الإمكان فلا يقتل واحد منهم ظلمًا في إثر مشهد من مشاهد الدعوة. وهل أن الحجج على عظمة الله سبحانه ووجوده شحيحة قليلة حتى نضطر إلى ذلك. لنعدل عن ذلك والشمس هنا آية أخرى وألف ألف آية أخرى لمن يريد إنهاك خصمه بالحجة. لو كان إبراهيم يسعى لهزيمة النمرود وربح الموقف لتركه في المشهد الأول يقتل الرجل البريء ولكنه لا يسعى لكسب

موقف يقتل في إثره إنسان بريء مكرم بل يسعى لإقامة الحجة فحسب. الحجة التي لا تراق فيها الدماء.

يظن السذج الذين لا حظ لهم لا في الدين ولا في الحياة أن مثل ذلك هو إنبطاح ولين في غير محله وتطبيع مع الوضع الظالم السائد.. لا. تلك هي الحكمة. غرز فينا سبحانه القرف في إثر شهود الدماء المهراقة حتى لو كانت من عجماوات والداعية الناجح يتحاشى ذلك ما أمكنه وليقل من بعده وفي إثره السذج ما يقولون ويكفيه عند ربه ـ وعند الناس كذلك ـ أنه حفظ على الناس حرماتهم وأذواقهم ودماءهم. المشكلة هي أن صوت الحمقى هو المرتفع دومًا وتظل الأغلبية الصامتة ترقب لا تنبس ببنت شفة. قد يشوش عليك صوت واحد مرتفع لأحمق فتنساق مستخفا ولو ذكرت أن مثله أضعافًا مضاعفة يكبرون موقفك ولكنهم صامتون لأي سبب ما حملك الإستخفاف.

ذلك موضع فطنة ولكن أنظر إلى موضع الجرأة غير المسبوقة.

إبراهيم الأعزل ـ ذلك الفتى الذي يذكر آلهة القوم بسوء ـ يكافح سلطانًا جائرًا متغلبًا متمكنا لو أشار عليه بعشر معشار غمزة من عينه لتناوشته الأسياف وإخترمته إختراما. هما شجاعتان : شجاعة من قبلنا هي شجاعة مادية مباشرة وخلفها بالطبع شجاعة نفسية تعزرها وتغذيها إذ كانت معاركهم وجها لوجه كما حصل في بدر مثلا وغيرها. وشجاعة أخرى هي شجاعتنا اليوم عندما نقاوم من نقاوم بالأساليب المعاصرة المعروفة.

الرسالة هي أن إبراهيم الخليل الذي جمع أركان التوحيد الإلهي الخالص من كل شائبة شرك مهما كانت دقيقة متخفية.. لا يتم توحيده ذاك حتى يكون توحيدا سياسيا أي حتى ينبذ عنه الشرك السياسي ويعلن للناس من خلال هذه المناظرة العقدية السياسية مع النمرود أن مقاومة الجورة من الحكام شعبة من شعب العقيدة. تلك هي الرسالة الإبراهيمية الإسلامية التي جاء بها محمد ولده عليه السلام. أما تعليم الناس أن هناك توحيد للألوهية وآخر للربوبية وثالث لثالث .. إذن تتفرق العقيدة وينقسم التوحيد ويذهب ذلك بجماع الإسلام وجمال الإسلام في جماعه وشموله. لا بل عرفنا اليوم عقائد وتوحيدات منهمكة في المجادلات العقدية السخيفة ولكنها تضفي على الحكام الجورة

شآبيب الحصانة وأردية الإسلام وبراقع الإيمان فهم ولاة أمر شرعيون والخارج عنهم ولو بكلمة حق في العالم الإفتراضي هو خارج عن الشرعية وربما كافر مرتد فاسق صاحب عقيدة فاسدة مفسدة.

19

هل إطمأن قلبك بالإيمان ...

لما سأل إبراهيم الخليل ربه سبحانه أن يريه كيف يحيي الموتى قال له : أولم تؤمن؟ فأجاب قائلا وهو يحاور ربه سبحانه ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[البقرة: 260].

ماذا لو سأل أحدنا اليوم سؤالًا « وقحًا » مثل هذا ؟ ألسنا نوقحه ونقبحه ونحكم عليه بالردة ثم نقيم عليه « حدّ الردّة » الذي خلطنا بينه وبين حد الحرابة فسلطنا حد الحرابة على المرتد ونحن نظن أننا « نطبق الشريعة ».

هل غضب سبحانه من سؤال خليله أم رحب به وأجابه عليه؟

إبراهيم الخليل مؤمن ولكنه أراد أن يطمئن قلبه بالإيمان. إذا كان رجل في وزنه ـ نبي رسول خليل أحد أولي العزم الخمسة وهو أمة إلخ ...ـ ويريد من بعد إيمانه إطمئنانا لقلبه بالإيمان .. فكيف حالي وكيف حالك؟ نحن لا نجرؤ على طرح السؤال لأننا نراه وقحا قبيحا عفوا من الأدب مع الله فهل تلك هي الحقيقة؟ أبدًا.

ألا تشعر معي بأن الفجوة بيننا وبين أمثال هؤلاء ليست بعيدة فحسب بل أشعر أن كل واحد منا في إتجاه مضاد للآخر. وشتان بين من لوث إيمانه بظلم وبين من خلصه نقيًا مصفى لله وحده سبحانه. شتان بين رجل يقول لجبريل وهو يعرض عليه خدمة وبينه وبين النار طرفة عين (أما إليك فلا) وبين « رجل » يقطع أميالًا ليعود مشعوذًا محتالًا يدعي بالجن وصلا وهو ممتلئ يقينًا فيه أنه سيدله على ضالته أو يبرئ منه كمها أو يذهب عنه برصا.

التفكير عندي هو أن الله سبحانه عندما يعرض مثل هذه الصور (صورة الإسرائيلي

صاحب الحمار الذي قال : ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ [البقرة: 259]. وصورة إبراهيم عليه السلام وهو يشهد بعينيه كيف يحيي الله الموتى ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ..﴾[البقرة: 260]. وصورة القتيل الإسرائيلي الذي يضرب بلحم بقرة مذبوحة فيحييه سبحانه ليدل على قاتله إلخ ..) التفكير عندي هو أن الله سبحانه يتوجه بها إلينا نحن الآن ليحول لنا قصة البعث بالصوت والصورة. فمن صدق أن هذا الكلام من عنده سبحانه فسيصدق حتما بمثل هذه القصص المراد منها إقناعنا بالبعث بعد الموت وهي تساق إلينا رواية بأسلوب حواري قصصي حي كأنما تعرض علينا صوتًا وصورة حتى لكأن التالي للقرآن الكريم يظن نفسه عضوا في ذلك المشهد وليس مجرد متفرج. وليس معنى ذلك أن أبطالها غير محتاجين لها وأنهم مجرد أدوات زينة (ديكور). لا. ولكن تقع القصة ثم تنقل إلينا حية نابضة لأجل إقناعنا بمقصدها العقدي لتطمئن قلوبنا نحن أولا.

ذلك أن ركن العلم وحده في الإيمان لا يكفي ليتجذر الإيمان في النفوس. لا بد من حصول الإطمئنان وهو غير التصديق أو قل : هو ثمرة التصديق عندما يقر قراره فيرسخ. الإطمئنان هو السكينة التي تغشى الأفئدة المترعة بالإيمان فترضى به ويصبح لها سجية وعادة وينزل منها منزل اللحم والدم. ربما يسبق العلم ثم يلحق به الإطمئنان فيترسخ. الإطمئنان في الإيمان كمثل الركون في حالة النكاح. إذا ركن المخطوبان بعضها إلى بعض فإنه لم يعد يباح لخاطب أن يخطب على خطبة أخيه أو يبيع على بيعه. الإطمئنان هو الواقي ضد (الضرة) أي ضد أي مسجد ضرار يريد أن يسحب المشروعية من مسجد التقوى.

تعلمنا في هذا الكتاب نفسه اليقين وعلم اليقين وحق اليقين وعين اليقين. اليقين هو الموت وعلم اليقين هو العلم الراسخ كالإيمان باليوم الآخر مثلا وحق اليقين مثل القرآن الكريم والذروة هي عين اليقين أي ما يلقاه الناس يوم القيامة يباشرونهم بأعينهم يقينًا ملموسًا.

الإطمئنان بالإيمان شيء يقترب من عين اليقين حتى قال أحد الصحابة أنه لو رأى عرش ربه بارزا والجنة والنار وفيهما أهلوهما ما زاده ذلك يقينًا ولا إيمانًا.

صاحب الإطمئنان لا يحتاج إلى غث مغثوث يملأ جدران الفضاء الإفتراضي اليوم من

مثل أن الشجرة الفلانية مكتوب عليها إسم الله أو الوليد الفلاني أو حبة البطاطا أو وجود شعرة من شعرات رأسه عليه السلام أو شيئا من ملبسه أو إنجيلا في المكان الفلاني فيها ذكره عليه السلام وتافهات أخرى تحدث لي ورب الكعبة قرفا وتزهدني في هذا الفضاء وفي كثير من رواده. هل بمثل هذه التافهات آمن الأصحاب العظام وفتحوا مغاليق العقل والأرض معًا؟ هل بمثل هذه السماجات كان في تاريخنا رجل حير الأرض من مثل إبن رشد الذي جمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا أو الغزالي الراحل من الشك إلى اليقين أو إبن خلدون القائل بأن علم أصول الفقه منطق الإسلام أو الفاروق الذي قبل الحجر الأسود وقال للصحابة أعرف أنك حجر لا تنفع ولا تضر ولكن قبلك عليه السلام فقبلتك وهو الذي إقتلع شجرة الرضوان المذكورة في سورة الفتح ..

أجل. شتان بين إيمان يكسبه العقل ثم يقر قراره في القلب فيطمئن صاحبه ثم يدفعه إلى الجهاد والمقاومة والكفاح في كل ميدان يغشاه وبين إيمان عجوز يبحث عن مثل تلك التافهات فما تزيده غير وهن على وهن.

ربما لكل واحد منا ما يزيد إيمانه إيمانًا والعبد الفقير إلى ربه يزداد إيمانًا كلما تفكرت ونظرت وتدبرت وتأملت سواء في تضاريس الكون أو في التاريخ الغابر أو الحدث الحاضر أو فيما يعرض علي سمعًا وبصرًا وفؤادًا .. أظن أن سبيل التفكر هو سبيل الإيمان لقوله سبحانه ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾[سبأ: 46].

20

كن تاجرًا مع ربك ..

عمد الوحي الكريم إلى تسمية العبادة ـ سيما في بعض مفاصلها ـ تجارة والتسمية تحمل دلالات ودلالات. ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ ..﴾[الصف:10] و﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾[فاطر: 29] و ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ ...﴾[البقرة: 16] إلخ .. سماها تجارة عند الحديث عن الكفار وعند الحديث عن المؤمنين سيما المفلحين منهم..

لم كان ذلك؟ ليعلمنا أن التدين عملية جادة وفيها المثابرة إذ من ورائها الربح والخسارة وهي تحتاج إلى ما يحتاجه التاجر بالتمام والكمال من رساميل ينطلق بها ومن أخذ الأمر بقوة العزم والفهم والبصيرة ومن إختيار السلعة النافقة والثمن المغري والمكان الأنسب والزمان الأرفق ومن تجنب للإفلاس إلخ ..

هي إذن عملية تجارية بكل ما تعنيه الكلمة من معان ودلالات..

ها هي أمثلة :

1. رتب على الصبر ثوابًا غير معقول فقال ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[الزمر: 10]. وغير حساب هذه لا يدركها العقل فهي مبالغة أريد بها أن أجر الصبر خارج عن النظام الحسابي المعتاد ومن ذا أفدنا أن الصبر هو أفضل عمل يثاب أو هو من أفضل عمل يثاب ولذلك قال عليه السلام « الصبر شطر الإيمان » وإذا كان (الثلث كثير) فإن الشطر أكثر وأكثر فمن حقق شرط الصبر فاز قطعًا.

2. رتب على الإيمان الصحيح الخالص من كل شائبة شرك مهما دقت ثوابا عظيما إذ قال عليه السلام بحضرة أبي ذر « من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة على ما كان منه من عمل » فقال أبو ذر (وإن زنى وإن سرق) وظل يرددها ثلاثا حتى غضب عليه وقال له عليه السلام « وإن زنى وإن سرق ورغم أنف أبي ذر». فعلمنا أن الإيمان ـ الذي شطره الصبر وشطره الآخر الطهارة كما ورد في موضع آخر ـ عندما يكون صحيحًا وعميقًا وخالصا يمحو الذنب كله عدا المتعلق بحرمات الناس.

3. رتب على الشهادة في سبيله سبحانه مغفرة الذنب كله كذلك ـ عدا حرمات الإنسان فهي دوما مستثناة ـ وفي أول قطرة منه وكان شفيعا في عشرات وجبت لهم النار ـ وجوبا ليس سببه الكفر البواح المخرج من الملة ـ وتكون مرتبته الثانية بعد النبوة أي يتأخر عن الصديقية ويتقدم الصالحين.

4. رتب على الإنفاق في سبيله سبحانه 700 درجة لكل وحدة إنفاق ـ فلس مثلا أو درهم أو دينار أو أي وحدة ولو كانت حبة شعير ـ وهو الحد الأدنى وبذا علمنا أن الإنفاق

جهاد في سبيله سبحانه يسبق في الذكر الجهاد بالنفس دومًا لأن الجهاد بالمال يعزر جانب الجهاد بالنفس وهذا يحتاج إلى ذاك « من جهز غازيًا كمن غزا » و « من خلف غازيًا في أهله كمن غزا » و « أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة » و « الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو كالصائم الذي لا يفطر والقائم الذي لا يفتر » إلخ ..

5. رتب على صلاة الجماعة 27 درجة فمن صلى في جماعة كمن صلى صلاته تلك 27 مرة وهو أجر عظيم جدًا وكلما كانت الجماعة أكبر تضاعف الأجر وكلما كانت في المساجد مع الناس تضاعف الأجر وتضاعف

6. رتب على بقية الأعمال ـ ولم أذكر كل شيء هنا طبعًا ولكنها أمثلة فحسب ـ 10 أضعاف ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ ﴾ [الأنعام: 160]. ولكنه رتب على السيئة سيئة واحدة وهي تمحى بالتوبة والإستغفار ما لم تكن متعلقة بحرمات الناس ..

7. رتب في بعض الأزمنة ـ السحر للإستغفار والأشهر الحرم للعمل الصالح سيما العشر الأول من ذي الحجة وليلة القدر المساوية لألف شهر في العشر الأواخر من رمضان ويوم عرفة وعاشوراء وإدبار النجوم وأدبار السجود وقبل طلوع الشمس وقبل غروبها إلخ .. ـ أجورا مضاعفة ومثوبات كثيرة وبمثل ذلك لبعض الأمكنة ـ الحرمات الثلاث ومواضع المرضى إلخ ... ـ

8. رتب لصاحب القرآن ما لم يرتبه لغيره « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » و « إن لله أهلين وأهل القرآن هم أهل الله وخاصته » كما رتب للعلم بمثل ذلك « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم » إلخ ..

9. رتب للعمل الجماعي على الفردي ثوابات مضاعفة فكلما كان العمل متعديا زيد في الأجر « من مشى في حاجة أخيه قضاها أم لم يقضها خير له من الإعتكاف في مسجدي هذا مائة عام » و « الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » إلخ ..

10. رتب على الإخلاص وسلامة النية وصحة الطوية ما لم يرتب للعمل نفسه حتى يجد

المرء يوم القيامة في كتابه أعمالا ما عملها في الدينا فيقال له أثبت بأجر نيتك والنية هي معيار الثواب يوم القيامة فبها يؤجر أو يعاقب بخلاف الدنيا ..

ما معنى التجارة :

معناها أن تعلم سعر كل عبادة لتبادر بها أولا تاركا الأقل سعرًا وتفعل ذلك مع المنهيات فتعلم أعلاها وزرا فتتجنبه وتقع فيما عداها إن كان لا بد من ذلك .. كما يفعل تاجر الدنيا.

21

بين النذر وبين الشرك مرمى حجر ..

أجل. أدرك أن الكلام ثقيل عليك. ولكني أكثر إدراكا ببشارة الإسلام « من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة على ما كان منه من عمل ..». وأكثر إدراكا أن الإيمان ـ العقيدة بالتعبير المستحدث المبتدع ـ عندما يستجمع أسباب الصحة والعمق والإكتمال ـ وليس الكمال ـ فلا تخدشه خادشة شرك ولا تشغب عليه شاغبة كفر مهما صغر ودق .. يثوي بصاحبه في الجنة حتى لو إحتاج إلى تقديم شفاعاته واحدة تلو الأخرى بسبب موت صاحبه على كبائر ـ دون الولوغ في حرمات الناس ـ موبقات غير تائب منها. ذلك هو معتقدي وذلك هو إيماني عندما تكون لا إله إلا الله أصفى من العسل المصفى وأخلص من الحرير الخالص وأنقى من اللبن وأحلى من شربة ماء زلال في ساعة قيظ لاظية. منهاجي هو التشدد في الإيمان والمعتقد والترخص فيما دون ذلك إلا أن يكون فريضة مفروضة أو واجبًا موجوبًا لنا فيه منه سبحانه سلطان وسلطان أو حق إنسان. معتقدي أن الإسلام ليس هو دين اليسر فحسب ولكنه اليسر عينه ولكنه متشدد ـ لأجل صون يسره ـ في زهاء ست حلقات تشددًا مقصودًا مرهوبًا (العقيدة + الفرائض المفروضة عينا وكفاية + الأسرة سيما الوالدين + الجيرة + الرحم + حقوق الناس بشرة ونفسا ومالا وعرضا وكرامة).

الإعتقاد عندي مثل بؤبؤ العين أي حر لطيف حساس تجعله يدمي دموعا حارة بسبب هبة ريح خفيفة ربما تحمل ترابًا وربما لا. فمن لفح معتقده بأدنى لفحة أو نفحة سقط إسمه من قائمة الظافرين بشفاعة لا إله إلا الله التي تعدل كل شيء ولا يعدلها شيء.

ولكن الناس ينذرون اليوم ...

1. **النذر نذران** : معلق وغير معلق. المعلق كقولك (إن حصل كذا أفعل كذا) فهو معلق مشروط. وغيره كقولك (سأفعل كذا) دون رهن ذلك بحصول شيء. غير المعلق لا شيء فيه ولكن تجنبه أولى لسبب واحد هو أن خير العابدين عليه السلام لم يفعله ولو مرة واحدة ولم يأمر به ولو إستحبابًا ولو مرة واحدة ولم يرو لنا أن أحدا فعله وأقره فهو إذن رغم إباحته خلاف الأولى أي تجنبه أولى. أما المعلق فهو منهي عنه بالسنة الصحيحة لقوله عليه السلام « النذر لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل ». وهو إخبار في مقام نهي ومسدد بما أنف ذكره أي لم يفعله هو ولا فعله أحد وأقره عليه.

2. **أعرف سؤالك الآن وهو** : لم ورد ذكره في القرآن إذن؟ ورد في القرآن الكريم ولكن بأي صيغة؟ ورد مرات بصيغة الثناء على من يوفي بنذره ما ورد الأمر بالوفاء بالنذر. وهنا لا بد من وقفة تفصيلية : أما من سبق له نذر ـ نذر صحيح شرعا طبعا ـ معلق أو غير معلق فهو مأمور بالوفاء به لأنه قيس على اليمين ومن حنث فيه عليه كفارة يمين. ولكن من لم يسبق له نذر فما أمر أبدا ولو إيماء بعيدا به بل إن الحديث ـ الذي يتقلد وظيفة بيان القرآن الكريم ـ ينهى عنه (لا عن الوفاء به من بعد وقوعه صحيحًا) نهيا قوليًا ونهيًا عمليًا ونهيًا إقراريًا بل هو نهي معلل. يعني عليك التدبر عند التلاوة وليس مرور الكرام. كل حركة (ولا أقول كل حرف أو كل كلمة أو كل آية ولا كل سورة) فيه بوزنها وثقلها ودورها الكبير والخطير في تحديد دقة الفهم وليس مجرد صحته.

3. ولكن لم كانت تلك هي السياسة الإسلامية مع النذر؟ النذر كان مفردة راسخة من مفردات العبادة الجاهلية إذ كانت النذور للآلهة شيئًا عاديًا طبيعيًا وحلقة قارة.

والإسلام بطبعه ذو منهاج متدرج لا يكر على أي شيء محرم كرا بدبابة بل يتوخى التأني والتريث عملا ويتوخى التفهيم والتعليم والتعليل والتقصيد فكرا ولما ألفى النذر ـ كما الخمر والرق والربا وغيرها ـ مستفحلا في الحياة لا خلاص لها منه إلا بالتدرج سلك التدرج فبدأ بالحث على الوفاء بالنذر ما كان شرعيًا صحيحًا وفي ذلك مقصد عظيم عنوانه صناعة شخصية قوية ماضية عازمة حازمة لا تتردد ولا تلتوي إلتواءات الإسرائيليين. وظل يصاحبهم في قضية النذر فلم يأمرهم به ولم ينههم عنه نهيًا صريحًا ولكنه نهي خفي مبطن عند من يحسن فهم التراكيب العربية ومن مقاصد ذلك إحداث جدار عازل فيهم بين مرحلتين : مرحلة النذر الشركي ومرحلة النذر الإسلامي ولكنه لم يأمر به. فلما إستقر الإسلام في الصدور جاءت السنة تبين القرآن الكريم وتلك هي وظيفتها الأولى والأخيرة فقال عليه السلام أنه لا يأتي بخير وهل يفعل المؤمن شيئا لا يأتي بخير؟

4. الخلاصة هي إذن أن النذر المسكوت عن فعله بالقرآن والمنهي عنه بالسنة نهيًا يبدو خفيفًا لطيفا غير عازم ولكن الصحابة فهموه نهيًا .. كان ـ ولا زال ـ فقرة من فقرات العبادة الجاهلية الشركية ولا بد من إحداث الفرقة معه والأهم من ذلك كله هو أن الناذر ـ في الإسلام نذرًا شرعيًا صحيحًا ـ عادة ـ والعبرة بالعادة ـ ما يقع في قلبه شيء من الخوف من شيء ما يحب حصوله أو لا يحب حصوله فيضطر نفسه مع ربه لما يشبه المقايضة والمساومة (إن يسرت لي كذا أو دفعت عني كذا أفعل كذا) وهذه عقيدة من لم تيقن ثقته في ربه سبحانه يقينا راسخًا بالكلية والمطلق فهو رجراج متهافت بين يدي المطبات. وهي عقيدة يغذيها النذر وخاصة عندما يتحقق فيقضي بقية حياته تاجرًا تجارة شحيحة مع ربه. وهذا تصور إلهي فيه من الدخن ما فيه. لذلك نهت عنه السنة.

5. لا أطلق عليه صفة التحريم الشرعية مادام شرعيًا صحيحًا وحتى معلقًا ولكني أقول أن المؤمن الحق لا ينذر بل يدعو ويتضرع ويفعل الخير ويقترب ويحرك الأسباب ثم يتلقى قضاء ربه شاكرًا أو صابرًا. ذلك أدنى أن تكون مشفوعا فيه من لدن لا إله

إلا الله. بديل النذر هو الدعاء الخالص المثابر الضارع من في مؤمن بالله موحد إياه مستعينا به وحده. لنا قصة أصحاب الغار الثلاثة الذين عولوا على الدعاء بأصلح فعل فعله كل واحد منهم أن يفرج عنهم ففرج عنهم سبحانه. ذلك أن النذر وسيلة ووسيلة المؤمن هي ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ ﴾[الإسراء: 57]. وسيلة المؤمن الخالص هي الدعاء وليس النذر.

22

عندما نضل سبيل الفقه المستقيم ...

من أسباب دقة الفقه للكتاب العزيز مراعاة السياق والتمييز بين الغاية والوسيلة ومن بعد ذلك كله إستصحاب فريضة الجماع الموضوعي في الفقه لا تافهة التجزئة الموضعية.

كيف ذاك؟ لنأخذ آية الدين ـ أطول آية ـ مختبرًا ونموذجًا.

ما هو الإتجاه العام لهذه ا لآية أي لسياقها الموضوعي أي ما هو هدفها ووسائلها؟

1. حفظ حقوق الناس المالية والمادية لأنها متعلقة بالمخلوق الذي إستخلفه سبحانه في أرضه وإستأمنه عليها وأستودعه دينه فلا بد من أن يحيا حرًا كريمًا مسؤولاً وإلا حق فيه قول الشاعر (ألقاه في اليم مكتوفا ... وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء).
2. لحسن بلوغ ذلك الهدف أشار سبحانه إلى وسائل تكفله ومنها (الكتابة لأنها توثيق يعسر النكول عنه) ومنها الإشهاد إمعانًا في التوثيق لأن التوثيق قد نزوره تضليلاً أو نخفيه ولكن نعزر ذلك بالتوثيق البشري في الصدور ومنها إباحة الرهن المقبوض عند تعذر الكتابة أو الإشهاد بسبب سفر أو أي مانع. ووسائل أخرى أدنى درجة.
3. تحصل عندنا الآن إذن : أطول آية موضوعها الدنيا والمال وهدفها حفظ حقوق الناس المالية أن تغتصب وتؤكل ظلمًا ولها وسائل كفيلة بذلك الحفظ (كتابة وإشهاد ورهن).

4. نحن في حقل دنيوي وليس في حقل ديني وكلاهما حقل إسلامي. معنى ذلك أن الهدف يظل محفوظا لا يتغير ولكن الوسائل تتغير في الحقل الدنيوي إذ العبرة هنا ـ في الدنيا ـ ببلوغ الغاية كتطهير الفم يستوي فيه السواك والأراك مع أي مطهر آخر. غاية وسبب والحقل دنيوي.

5. تنصيف شهادة المرأة هنا في أي سياق وأي دور؟ هو سياق حفظ الحقوق المالية للناس وهو دور الإشهاد وسيلة لذلك الحفظ المنشود. السياق إذن ليس هو سياق بيان منزلة المرأة وشهادتها ولكنه سياق آخر مختلف تمامًا. عندما تحدث عن المرأة قال ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[البقرة: 228]. وقال ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ..﴾[التوبة: 71]. وقال عليه السلام في الحديث الصحيح « إنما النساء شقائق الرجال » و صدق عليه السلام بصفته الرئاسية في فتح مكة على عمل سياسي عسكري أمني خطير جدًا باشرته إمرأة هي أم هانئ بمنحها حق اللجوء لمشرك دون إذن مباشر منه. و أخذ برأي أم سلمة في الحديبية فإرتأب صدع أمة كادت تضل يومها بسبب ما رأته من إجحاف في بنود الإتفاق. وسمى الفاروق الشفاء ـ وهي إمرأة ـ على السوق المركزي في المدينة إلخ .. بل ثبت البخاري في صحيحه ـ على شروطه القاسية المعلومة عند طلبة علم الحديث ـ إمرأة هي أم محمد يأخذ عنها الدين. فأي الشهادات أثقل في الدنيا والآخرة (شهادة دينية قحة أنه عليه السلام قال أو أمر أو نهى عن كذا أو كذا أو شهادة دنيوية في حق مالي لهذا أو ذاك). كلاهما مغلظ كبير دون ريب ولكن الدين الذي يبيح للرجال ـ مثل البخاري وشارحه العسقلاني وغيرهما ـ الأخذ دينا عن النساء لا يمنع عنهم أخذ شهادتهن ـ حتى منفردات عندما نضمن سلامة الحق المالي للناس ـ عن الدنيا. ذلك هو منطقي العقلي الذي به أعبد ربي وليعبد من شاء ربه بغير ذلك ثم نلتقي يومًا.

6. إنما حجتي الكبرى هنا في أن تنصيف شهادة المرأة هنا هي وسيلة لضمان مقصد أعظم إسمه حفظ حقوق الناس المالية والوسيلة تتغير دورانا مع مقصدها فهو الحاكم وهي المحكومة وهو المتبوع وهي التابع .. حجتي الكبرى هي أن المسألة معللة مقصدة

مفهومة معقولة بالنص ذاته الذي يقول ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: 282]. ذلك يعني أن ذلك التنصيف الذي فهمنا منه نحن لشقائنا الذهني عدم مساواة بل دونية وهوانًا .. معلل بمقصده أي معلل بإمكانية طروء النسيان ﴿أَن تَضِلَّ﴾ على إحداهما فتذكرها الأخرى التي لم يطرأ عليها نسيان. فإذا أمنا النسيان ولو غلبة ظن بتعبير الفقهاء فلا حرج علينا أن نشهد أيًا كان لتأمين حق الناس المالي. وكل أمر مقصد معلل سيما بنصه مدار إجتهاد على أساس القاعدة الشهيرة (يدور الحكم مع علته وجودًا وعدمًا). ولكن عندما تتفتق قريحتنا لنستنبط من ذلك تنصيفا لسعر المرأة وثمنها حيال سعر الرجل وثمنه .. عندها يكون تديننا بحاجة إلى تدين جديد.

7. والسؤال هو لم يطرأ النسيان على المرأة وليس على الرجل؟ ليس ذلك قدرًا محتومًا أولًا وثانيًا لأن زمن النزول لم تكن فيه المرأة معالجة للأمر المالي الدنيوي بمثل الرجل لذلك قد يطرأ عليها النسيان الذي قد يفضي إلى غمط الناس حقوقهم المالية فتحوط التشريع. ولكن عندما نأمن على أي شاهد ـ إيجاب شاهدين هو كذلك وسيلة فحسب للتحوط ولكن وجود شاهد واحد قوي حفيظ أمين عليم كاف ـ تحصنه أن يؤتى حق الناس من قبله فلا نحتاج لتنصيف.

8. ولكن في عصرنا هذا ألم تحسم قضية الشاهد بوسائل عصرية أخرى كثيرة وقوية من مثل الإشهاد الإداري المنظم في المؤسسات الحكومية ومن مثل التصوير المتاح اليوم بهاتف نقال جوال في أي دغل في الأرض وبصور أخرى للتوثيق لم تكن تخطر على بال؟ وسؤالي الذي يحرجك هو : عندما تذهب إلى مؤسسة حكومية طلبا للإشهاد على تداين فألفيت نساء هناك موظفات ولم تجد بينهن فحلا واحدًا فهل تمضي عملك أم تقول هذا مخالف للشريعة ولا بد من جمع نساء الدولة كلهن لجعل شهادتهن مجتمعات نصف شهادة فحل واحد تأتي به ربما من الخمارة أو رصيف الشارع؟

إفقه دينك يرحمك الله خير لك من اللهث وراء التقليد الببغاوي العقيم.

23

حذار حذار أن يأثمن قلبك ..

لم ينسب الإثم إلى القلب إلا في موضع واحد هو موضوع الشهادة ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾[البقرة: 283]. نسب الإثم هنا في كتم الشهادة للقلب. والقلب هو ربان سفينة الإنسان. أي نسب إلى قيادة الإنسان أي عقله البصير. وعندما يضل ربان السفينة فإن السفينة غارقة. القلب أميرك والجوارح خدمك فلا تمهد لإنقلاب فيك تكون فيه الجارحة قائدًا والقلب مقودًا.

نحن اليوم آثمة قلوبنا بسبب السياسة ...

الشهادة هي إقرارك بأي صورة كانت أن الشيء الفلاني أو الأمر العلاني أو فلانًا هو كذا أو غير كذا . ومنها شهادتك أنه لا إله إلا الله. يعني قولك بلسانك من بعد إقرارك بقلبك أنه لا إله إلا هو سبحانه. شهادتك أن فلانًا يصلح لأن يكون متقلدًا لأي مسؤولية أو زوجًا هي كشهادتك أنه على فلان مائة درهم لفلان . هي شهادة واحدة إختلفت مواضعها فحسب.

لذلك قاس الفقهاء اليوم شهادة الإنتخاب ـ أي إنتخابك فلانا لمنصب كذا ـ على شهادة المال. وهو قياس صحيح لأنهما يشتركان في العلة نفسها فهذا يشهد أنه لفلان على فلان كذا فإن كان صادقًا كان ذلك أدعى إلى عودة الحق لصاحبه. وإن كان كاذبًا فقد غش و« من غش فليس منا » وحال دون صاحب الحق ودون حقه. وذاك يشهد أن فلانًا أهل للمسؤولية يعني أنه يعطيه من الحق ما هو له وللناس ما لهم إن كان صادقًا ـ وهنا يكفي صدقه فحسب بدرجة أولى ـ وإن كان كاذبًا فهو يحرم الناس من مسؤول آخر أولى منه ويحرم المنتخب نفسه من فرصة لمراجعة أمره والبعد عن مواضع هو ليس أهلا لها.

بل إن الناصح هنا في الإنتخاب السياسي أعظم أجرًا من الشاهد في قضية مالية

محدودة بين رجلين لأنه ينصح أمة وينقذها. والغاش لها هنا غاش للرعية كلها لأنه يخدع أمة كاملة برجل قد يكون سببًا في مديونيتها ومن بعد ذلك في إحتلالها ماليًا أو سياسيًا أو عسكريًا.

هل معنى ذلك التأخر عن الشهادة السياسية ؟

لا أبدا. بل إن التأخر عن الشهادة السياسية هو تأخر عن أداء الشهادة المطلوبة نفسها. وإثم القلب يلحق من تخلف عن تلك التزكية وهو يقدر عليها لأنه بتخلفه مكن لشهادة أخرى ـ قد تكون فاسدة غاشة ـ تقوي نصيب المشهود له زورا. ويعظم أمر الشهادة ـ في أي حقل مدني أو سياسي ـ عندما يدعى إليها الشاهد. فمن لم يدع يتردد أمره بين الإثم وبين الإباحة وذلك بحسب حظوظ المشهود له أو عليه في إسترجاع حقه.

بعضنا يتأخر تدينا ولو علم الدين الحق الصحيح لما تأخر بل ذهب ليدلي بصوته لصالح الأمة بتزكية من يراه أنسب ولو بمعنى أقل شرا وأدنى ضررًا. الميزان هنا هو الإختيار بين السيء والأقل سوء عندما نكون في وضع حرج متدهور وبين المؤهل والأكثر أهلية عندما نكون في مربع أفضل من مربعنا الأول.

كلاهما آثم قلبه : من تأخر عن الإدلاء بشهادته وكان قادرًا عليها فإن كان مدعوا لها عظم إثمه. ومثله من شارك في الشهادة ولكنه ـ لأي سبب كان ـ زكى من يعلم أو يغلب على ظنه أن هناك من هو أولى منه. هنا لا رخصة أبدًا. هنا أمر عزيمة لا رخصة فيه. لم؟ لأنه حق الله وحق الله في الشريعة يعني حق الأمة أي حق المجموعة.

لذلك عظمت شهادة الزور وعدت رابع أكبر كبيرة موبقة مهلكة. لما سئل عن أعظم الذنب قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » قيل : ثم أي؟ قال « أن تزاني حليلة جارك » قيل: ثم أي؟ قال « أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك » قيل : ثم أي؟ قال وكان متكئا فقام «ألا وشهادة الزور » وظل يكررها مرات ومرات ربما ربت عن العشرة حتى قال السائلون والحاضرون وددنا أننا لم نسأله وذلك لفرط الخوف عليه والشفقه. شهادة الزور واليمين الغموس جريمتان ليس لهما عقوبة في الدنيا لتؤجل العقوبة إلى يوم

القيامة وهي الغمس في النار. جزاءً وفاقًا. فمن غمس الناس في النار بشهادة سياسية آثمة ظالمة زكى بها من ليس أهلا أو هناك من هو أكثر منه أهلية جزاؤه أن يغمس في النار يوم القيامة.

هذا فقه سياسي ضامر فينا ونحن اليوم به شبه كافرين. نحن نعد السياسة ملعبًا خاصًا بالسياسيين وهم عندنا كذبة فسقة وهذا خطأ. وحتى لو لم يكن خطأ فالواجب الديني هو عدم تركهم يعبثون بنا وبمصالحنا في زمان تكون الدولة فيه كل شيء فهي الأم وهي الأب وهي الراعي وهي المهيمنة بهيمنة السياسة على كل شيء. ومن رضي أن يكون مفعولا به خشية السجن أو النفي أو القتل لن يلقى ربه عليه راضيا لأنه عرض قلبه للإثم. وإثم القلب أن تتخلف عن أداء شهادتك في أي حقل ولو كان حقلا سياسيا فيه الإنتخاب أو أن تزكي من تعرف أنه أقل من تلك المسؤولية. أما من أخذ مقابل ذلك مالا ليزكي صاحب المال وليس صاحب الأهلية فقد غش نفسه وغش أمته وغش صاحب المال وإثم قلبه مضاعف.

هل مازلت تعتقد أن التقوى هي عدم تعريض القلب للإثم بكتمان شهادة مالية بين رجلين أما تعريض أمة بأسرها للضعف والهوان والقهر بتزكيتك من تعلم أنه ليس الأولى لا علاقة له بالتقوى؟ هل إنشطر قلبك ليكون تقيا هنا وفاجرا هناك؟ لو فكرت قليلا لألفيت أن شهادتك السياسية اليوم تربو على شهادتك المالية مرات ومرات. المصلحة العامة أولى من الخاصة عقلا لا دينا فحسب. هل تظن أن إغراق ملايين من الناس في يمّ القهر أهون عنده سبحانه من إغراق مظلوم واحد في مائة درهم أو مليون درهم؟ إذا رهبت الناس فأمامك طريقان : إما أن تغرب عنهم فلا تشهد لا لهم ولا عليهم وإبتعد أن تدعى إلى الشهادة فإنك إن دعيت فأبيت ولو بسبب الخوف والرهبة أثم قلبك وإن شهدت بالباطل أوحلت نفسك في السعير يوم لا يشفع فيك شفيع. وأي شفيع يتقدم للشفاعة يوم الدين في شاهد زور؟ وإما أن تشهد بالحق وتتحمل المسؤولية كاملة. أما الطريق الثالث : شهادة باطل وزور .. فشرب الخمر حتى الثمالة أهون عليك والله. وأكل لحم الخنزير أهون عليك والله.

24

ماذا لو وقعت مؤاخذتنا بما نسرّ؟

ختمت (البقرة) بأطول دعاء في القرآن كله وهو جزء من آخر آيتين لهما فضل كبير بجانب آية الكرسي (أعظم آية) لأنهما ختام لأول سورة وأعظم سورة من جهة ولأنهما يحويان أركان الإيمان من جهة أخرى ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ .. ﴾. ولأن الله سبحانه منّ علينا فيهما بغفران ما نسرّ.

أصل القصة هو أنه لما نزل قوله ﴿ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ ﴾. فزع الصحابة إليه عليه السلام وهم ككل بشر يحدثون أنفسهم ـ وتحدثهم أنفسهم ـ بما يحدث به كل واحد منا نفسه مما لا يقال ولا سلطان للمرء عليه. فأنزل سبحانه ما بعدها ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا .. ﴾ ثم ألهمهم الدعاء الضارع الطويل يهدئ به لوعتهم ويطامن به فزعتهم ويختم به أعظم سورة ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ .. ﴾. ففرح الصحابة.

وفي موضع آخر من الحديث جاءه بعضهم عليه السلام يسألونه أن الواحد منهم تحدثه نفسه بما يرجو أن تبتلعه الأرض فلا يحدث به. فقال عليه السلام « أوقد وجدتموه؟» قالوا: نعم. قال : ذلك محض الإيمان.

لا أكاد أفرغ من موعظة أو درس حتى تنهال علي الأسئلة التي سميتها لكثرتها أسئلة الوسوسة إذ أكثر الناس يشكون مما يجدون في صدورهم أو أن الواحد منهم يتطهر مرات ومرات وفي كل مرة يظن أنه لم يغسل هذا العضو أو ذاك أو يصلي مرات ومرات وفي كل مرة يظن أنه صلى كذا بدل كذا .. وهكذا يفسد الشيطان على الناس أمرهم ودينهم فيدعهم في حيص بيص كما يقال ..

أصل المشكلة هي أننا نتصور الدين والإنسان شيئًا آخر غير الحقيقة . نظن أن الدين عقوبة سماوية حلت بنا وأن هذا الجبار القهار إبتلانا بهذه العقوبة. كما نظن أن الإنسان غير ذلك الكائن الذي عرفنا به سبحانه في قوله ﴿ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴾

[الشمس]. بعضنا يظن الإنسان كائنًا مثاليًا ما ينبغي له أن يخطئ وإن أخطأ فلا توبة له وتصورات أخرى أعجب ورب الكعبة فمن أين يأتي بها الناس؟

الناس لا يتعلمون كيف كان الصحابة يحيون معه عليه السلام. لو ذكرت لهم مثلا مناسبة نزول قوله ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: 114]. في رجل ـ أي صحابي ـ أصاب من إمرأة لا تحل له شيئًا (بعضهم يقول قبلة وبعضهم يقول كل شيء عدا الإيلاج) .. إستعجبوا وإستغربوا وربما لا يصدقونك. جرى معي هذا مرات حتى أصبحت أحجم عن مثل ذلك أحيانًا . الخطباء يقدمون لهم صورة مثالية محلقة لا وجود لها ثم يعقبون عليها : أين نحن من هذا؟ ولسان الحال ـ بل المقال ـ هو أننا اليوم هلكى لأننا ليس مثل أولئك. تراكمت عوامل كثيرة ومخيفة بعضها عند الوعاظ والخطباء وبعضها عند عامة الناس والنتيجة هي أن الإسلام وزر ثقيل لا يحمل وأن الله جبار قهار يعسر جدًا أن يرحمنا وأن الصحابة ملائكة لا يخطؤون ..

عندما أذكر الناس بالحديث القدسي الصحيح « أنا عند ظن عبدي بي » تصيبهم الدهشة. هل هو سبحانه رحمان رحيم إلى هذه الدرجة؟ من بعد تجربة دعوية عمرها اليوم أربعة عقود كاملات تحصلت لي خلاصة عنوانها أن الناس في أغلبهم الكاثرة لا يظنون به سبحانه الظن الحسن الطيب أي ظن الرحمة (الظن هنا إعتقاد طبعًا وليس شكًا ولا ريبة). والأغرب من هذا أن أولئك أنفسهم لا ترى منهم عملا يناسب ذلك الوجل أو الخوف.

منهاجي الدعوي يقوم في الأغلب على بث الأمل فيه سبحانه. وعزما أغلّب ذلك على بث الخوف وأعرف أنهما يتكاملان فلا بد من هذا ولا بد من ذاك ولكني أغلب جانب الأمل والرجاء لأن الناس فيما أرى ينقصهم العلم كثيرا وظروف العمل ليست مواتية دومًا للعبادة الدائبة الخاشعة.

عقيدتي تخبرني أنه سبحانه رحمان رحيم ودود حليم وقد غلبت رحمته غضبه وسبقته وأنه يرضى منا بالقليل مادام ليس على الطريقة الإسرائيلية الخبيثة ولكنه يبغض التكلف والتصنع والتقوى المزيقة والتدين المغشوش أي يحب منا التلقائية والواقعية والتوازن والإعتدال والتوسط والمهم حفظ الإيمان من الشرك واللسان والقلم واليد من حقوق

الناس إذ لا يغضبه شيء سبحانه أكثر من العدوان على الإنسان حتى لو كان كافرًا إبن كافر ما لم يكن محاربًا. فمن حفظ إيمانه من الشرك وحافظ على عباداته سيما الصلاة التي تصبحنا وتمسينا بمعدل زهاء كل أربع ساعات على مدار الحياة وخص الأسرة الموسعة بالبر والإحسان سيما الوالدين والرحم والجيرة وأنفق قدر ما يستطيع وتجنب الكبائر التي لا تجاوز الثلاثين تقريبًا ـ عدا كبائر المسؤولين السياسيين فهي أكثر من ذلك بزهاء ثلاثة أضعاف تقريبًا ـ .. من سدده سبحانه لذلك فقد نجا برحمته وليس بعمله.

تبدأ السورة بمركز العقيدة ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾[البقرة: 2] فهو الكتاب الذي يجمل العقيدة ويتسع لها ثم تختم بالدعاء الضارع أنه سبحانه تجاوز عنا ما أسرت به نفوسنا مما لا طاقة لنا به.

ذلك هو مصداق سورة الصلاة ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[الفاتحة: 6].

ذلك هو مصداقها وهي تفتتح بالإعلان عن أعظم صفاته وأكبر أسمائه (الرحمان الرحيم).

ذلك يؤكد أكبر قاعدة أصولية فقهية دينية ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[البقرة: 286]. الحمد لله رب العالمين : بلدة طيبة ورب غفور. الأرض كلها بلدة طيبة والرب الواحد سبحانه رب غفور . غفور رحيم لأنه لا يحاسبنا عما تحدثت به نفوسنا مهما كان سيئا لا يحتمل بشرط واحد مشروط وإلا نسف كل شيء وهو ألا نحدث بذلك السوء أحدًا أبدًا البتة البتة البتة.

25

مبتدأ العلم هو : محكم أو متشابه.

أنهيت بحوله سبحانه وفضله إدكاراتي في أول سورة وأعظمهن (البقرة ذلك الحصن من الشيطان وتلك الزهراء التي لا تستطيعها البطلة والشفيعة) واليوم

أواصل نزهتي الجميلة في سورة الزهراء الثانية وهي كذلك شفيعة [آل عمران: 7]: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ ﴾.

نزل الجزء الأكبر الأول منها في نصارى نجران القادمين من اليمن ينافحون عن المسيحية ثم تفرغت السورة لواقعة أحد. فمن قائل أن المحكمات والمتشابهات هنا هي الكبرى العظمى التي تفصل ـ أو ترسم الحد ـ بين الإسلام وبين المسيحية نظرًا لمناسبة نزولها ومن قائل أنها تحت السقف الإسلامي نفسه والحقيقة أنها لهما معا وتلك هي طبيعة الكتاب المعجز يلبي ما يعجز عن تلبيته كل أحد.

مبتدأ العلم لطالب العلم ـ بل لطالب الفقه ـ المثابر الذكي وليس الكسلان هو هذه الآية التي جاءت في أول آل عمران. ليس كل القرآن محكم من حيث الدلالة وليس كله متشابه من حيث الدلالة ولكنه كله محكم من حيث مصدر النزول ومن حيث الصحة والنظم وغير ذلك. هو جامع بين الإحكام وبين التشابه وبين الإجمال وبين التفصيل ولكنه محكم كله من زاوية مصدره وبنائه ومناطات الإعجاز الأخرى . ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ .. ﴾[هود: 1]. ولكن المحكمات هنا ليست هي المحكمات من حيث قصر الدلالة على معنى واحد في آية هذه الحلقة أي ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ .. ﴾. هما إحكامان وهما متشابهان كذلك : تشابه بمعنى تشابه الآيات ونظمها ومثانيها وفواصلها وأحيانا تكون متطابقة بالكلية وتشابه بمعنى إحتمال دلالة من دلالات متنوعة أو إحتمالها جميعا والتشابه هنا هو ضد الإحكام.

مبتدأ العلم هو أن تمسّك بأم الكتاب. وأم الكتاب ـ أي قلبه وروحه ومخه الذي يكفل لك قلبًا وعقلا وذاكرة وصراطا مستقيما ويؤهلك لمراقي الفقه ولتكون للناس به معلمًا وهاديًا ومفتيًا وواعظًا بليغًا ومزكيًا وإمامًا ـ .. أم الكتاب هي : محكماته وليس متشابهاته. مبتدأ العلم هو أن تعرف الآيات المحكمات منه أي من زهاء 6236 آية. هن قليلات جدا نادرات حقا. ليس هن آيات الأحكام فحسب. الآية المحكمة التي هي جزء من أم الكتاب هي كل آية كانت دلالتها جلية واضحة صريحة لا تحتمل أي رأي آخر ولم يختلف عليها العرب

الأوائل الذين نزل بلسانهم متحديا لهم في عقر دارهم. الآيات المحكمات هن المعلومات من الدين بالضرورة ومنهن قطعا : آيات العقيدة والإيمان أصولا وليس فروعًا و آيات العبادة وآيات الخلق وآيات الأحوال الشخصية بالتعبير المعاصر أي الأسرة من الخطبة حتى الطلاق أو توزيع الإرث وآيات الشريعة وهذه عادة ما تأتي في صورة كليات ومبادئ ومقاصد. وهن كذلك المقاصد المنصوص عليها نصًا .. تلك هي أهم مفاصل الإحكام في أم الكتاب أي في آياته المحكمات. وكل آية إختلف فيها الناس ـ إختلافًا معتبرًا وليس كل إختلاف مما نرى اليوم ونسمع من عبيد الفكر الغربي وأذنابهم أو من المتطفلين الحمقى ـ فهي متشابهة وليست محكمة.

فائدة هذا العلم (العلم بالمحكم والمتشابه أو علم أم الكتاب) هي أن طالب العلم من بعد عمق علمه بذاك وجماعه به وصحته يمكن له أن يدعو الناس إلى المحكمات الراسخات الثابتات القطعيات أي إلى أم الكتاب (أم الإسلام وأم الدين وأم الحياة وسفينة السعادة وقارب النجاة الجماعي لا الفردي) بما يرص الصف الواحد ويتيح حق الإختلاف في محاله ويحقق مقاصد الدين العظمى فهي المرادة من الشارع الحكيم.

ومن لم يعلم علم المحكم والمتشابه أي لم يميز في الكتاب بين أمّ وبين ولد أو رضيع أو فرع فليس له أن يرقى المنابر ويعظ الناس ويتصدر مجالسهم إن كان يؤمن بالله واليوم الآخر أو كان يحترم نفسه ويحب مثل ذلك من الناس أو كان في قلبة مثقال حبة من خردل من هيبة للعلم الذي عليه إرتكز هذا الدين وبه نزلت أول آية من آياته ﴿ٱقۡرَأۡ﴾[العلق: 1] ومن كان يؤمن بسورة القلم. أما إن ورط نفسه في الإفتاء وهو جاهل لأم الكتاب فقد تودّع منه.

فمن فعل ذلك حشر نفسه مع أبغض من يبغض سبحانه أي مع الذين ﴿فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾ [آل عمران: 7] فهم يتبعون ما تشابه منه ويعرضون عن محكمه. هؤلاء يمكن أن يكونوا أهل كتاب يعرّضون بديننا ويمكن أن يكونوا منافقين مثلهم ويمكن أن يكونوا منا جهلة حمقى متعالمين والنتيجة هي واحدة سوى أن هؤلاء يفعلون ذلك الإثم المسخط بجهل والجاهل لا يعذر بجهله من بعد البلاغ المبين وأولئك يؤدون مهمتهم أي التلبيس والكذب على الله سبحانه والقول عليه بغير حق أو بغير علم.

بينك وبين ذلك مسافة قصيرة ـ بل طويلة حتى أصدقك القول ـ هي مسافة العلم والفقه والمعرفة. هي مسافة سنوات ملؤها المثابرة والوله والولع والهيام بالعلم إبتغاء مرضاته سبحانه لأن العلماء ورثة الأنبياء ولأن فضل العالم على العابد كفضله عليه السلام على أدنى مسلم في الأرض والتاريخ ولأن من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ولأن خيرنا من تعلم القرآن وعلمه ولأن أهله وخاصته سبحانه هم أهل القرآن ولأن القرآن شفيع وأول من يشفع فيهم أهله الذين آمنوا به ثم فقهوه ـ وليس تعلموه فحسب ولا فهموه ـ ثم عملوا بما يقدرون عليه منه ثم دعوا إليه وعلموه الناس حرفًا وحدّا معًا.

26

أم التزكية : وجبة السحر.

لم يرد فضل الإستغفار في الأسحار إلا في موضعين: ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران: 17]. و ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات: 18].

التزكية ثاني مهمة من مهمات النبي عليه السلام أي هي ثاني مهمة من مهمة ورثته أي العلماء وقد مرّ بنا هذا. أم التزكية أي ترويض القلب والنفس للتطهر والتزكي والتخلق بما يرضيه سبحانه من حب وإيثار وإقبال على التقوى وبعد عن الفجور ورحمة وحلم وأناة وكظم غيظ وجرأة وكرم وخفض جناح إلخ .. أم التزكية هي تقحم حصون السحر المحصنة بهوى النفس وتزيينات الشيطان وثقل الجسم لأجل لقاء المحبوب الأكبر سبحانه وولي النعمة الأعظم جل جلاله إذ يتنزل في تلك اللحظات إلى السماء الدنيا ليقول هل من مستغفر فأغفر له وهل من داع فأجيبه ومن سائل فأعطيه.

لم هي أم التزكية؟ لأنها الأعسر على النفس والأثقل على البدن وهي أخصب سوق نافقة للعدو الأكبر والأعظم بل الأوحد ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾[فاطر: 6].

السحر هو الوقت الذي يسبق دخول الفجر وربما يكون مبتدؤه في الثلث الأخير من الليل أو سدسه الأخير أو غير ذلك ولا يهمنا هنا تحديد مبدئه ولكن يهمنا تحديد منتهاه وهو دخول الفجر أي عندما يحل لك مباشرة صلاة الفجر أو الصبح وهو الوقت الذي يتسحر فيه الصائم في العادة أي آخر وقت لسحوره لمن أراد تطبيق السنة في تأخير السحور ليكون بركة. وبركة السحور هنا ليست بركة جسمية فحسب بل هي بركة روحية لأن المتسحر عادة ما يصيب ما شاء له الله أن يصيب من العبادة ولو إستغفارًا بشفتيه مع حضور قلب.

عرفنا قيمة السحر لأنه زمن محروس من النفس والشيطان ولأنه بين يدي صلاة وعبادة وبكور يوم جديد وعادة ما تكون عباداتنا في الأوقات التي تتحول فيها الأزمنة (الفجر بين الليل وبين النهار والعصر كذلك بين النهار وبين الليل والحج بين عام فات وعام آت).

ولكن ما معنى الإستغفار.؟ الإستغفار إما يقصد به طلب المغفرة ـ أي التجاوز والصفح ـ منه سبحانه ويكون ذلك باللسان مع حضور القلب فإن غاب القلب أصبح الأمر لهوًا ملهوًا ويكون ذلك بصيغ كثيرة أعظمها (أستغفر الله العظيم أو يزيد عليها : الذي لا إله إلا هو الحي القيوم) أو (أستغفر الله الحي القيوم ...) أو(أستغفر الله وأتوب إليه ..) أو ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[الأنبياء: 87]. أي دعاء ذي النون عليه السلام. والعبرة هنا ليست بالصيغة ولكن العبرة بحضور القلب وذكره تقصيره وذنبه وشروده وإسرافه وإستغراقه في حالة من الذلة والإنكسار كمن ينكسر ويذل بين يدي ملك جبار قهار يمكن أن يحكم له بعطاء لا قبل له به أو يحكم عليه بقطع رقبته .. ومالك الملك سبحانه وملك الملوك سبحانه هو القهار الأولى بذلة عبده بين يديه وإنكساره له.

أو يقصد بالإستغفار إعلان التوبة وتحشد القلب لها وحدوث ما يشبه الإنقلاب العسكري المفاجئ في داخل الإنسان بسبب فراغ روحي أو شعور بالتيه والضياع فيتجند اللسان لاهجًا والقلب فزعًا ويكون ذلك مبعثا حقا لتوبة نصوح.

المعنيان مقصودان بل مرتبطان ومتكافلان وخير الإستغفار هو حالة الإنقلاب العسكري المفاجئة التي تحيط بالإنسان فيهرع إلى ربه كمن خشي شيئًا وخافه خوفًا شديدًا فهو يغذ السير غذا لجهة تؤويه وتعصمه وتحصنه. أي الإستغفار الجامع بين القلب واللسان والعمل.

كان عليه السلام يستغفر ربه في اليوم مائة مرة أي بمعدل مرة واحدة في كل عشر دقائق تقريبا على مدار الحياة. الإستغفار والتوبة وما في حكمهما مطلوبان دومًا ونافعان دومًا ولكن فضّل وقت السحر لهما تفضيلا لأن من يقوم في تلك اللحظات متغلبا على حلاوة النوم وإغراءات الفراش مؤثرًا الآخرة على الدنيا والنصب على الفراغ لا بد أن يكون إيمانه باليوم الآخر غير إيماننا نحن. طعم الإيمان ليس هو هو. ومن يقوم عندها لا بد أن يصلي ما شاء له الله أن يصلي راكعًا وساجدًا وذاكرًا وهي أحلى ساعات حلاوة الإيمان وأغلى ساعات العبادة سيما عندما يكون العابد منفردا لا يراه غيره سبحانه أو أهل بيته ممن لا بد منهم ولأن ذلك أنفى للرياء وأكسب للإخلاص وأطهر للقلب وأزكى للنفس أو يكون المحيط من حوله ساكنا حتى ليتراءى له كأنه يناجي ربه سبحانه وهو ماثل أمامه لفرط تعمق الشعور بالأنس والقربى والزلفى.

لذلك أمره ربه عليه السلام ـ من بعد نزول أول سورة عليه ـ بقيام الليل وقام حتى تفطرت قدماه الشريفتان دمًا وقال له معللا ذلك ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا﴾ [المزمل: 6]. ولأن الحياة كلها ثقيلة بتحدياتها ومشاكلها وصعابها فلا يذللها سوى السحر الخالص بمدرسته التطهيرية العظيمة. المستغفر بالسحر لا بد له أن يعانق أعظم عبادة : الذكر. وخاصة الذكر الصامت أي تفكرًا وتدبرًا وتأملا لينهل علمًا وفقهًا ومعرفة وتزكية وطهارة لن يجد لها أثرًا ورب الكعبة إلا في ساحات الوغى حيث يقاتل المقاتلين بأي سلاح تسنى له.

إنها مدرسة السحر المتخصصة في تأهيل المجاهدين والمقاومين الذين لا ترهبهم الحياة بما فيها من إبتلاءات كادحة لا تني وكريهات كابدات لا تفتر ولا تسأم. حياتك معركة ضارية شرسة قاسية وأحد أعدائك ممن يقاتلك يختفي فيك أنت فلا فكاك لك منه

إلا بمقاومته بما يكره أي بالمواظبة على مدرسة السحر التي تغذيك بقوة لا تخشى بعدها الفقر حتى لو أنفقت ما أنفق الصديق في تبوك أي ماله كله كله ولا الموت فداء لقيمك التي إنخرطت فيها.

ولكن لا تنخدع يا صديقي. كلمة حق لا بد منها الآن : صاحب هذا القلم لا يزيد على الإستغفار بلسانه كلما إستيقظ في ساعات السحر إذ لم يرتق بعد إلى درجة إيمانية تجعله في تلك اللحظات الغالية جدًا راكعًا وساجدًا يرجو رحمة ربه ويخشى عذابه. فهلا خصصته بدعوة منك في تلك الساعات الغالية؟ لا تضن عليه لأن الملك الموكل بك سيقول لك : ولك بالمثل. شكرًا.

27

الولاء والبراء بين الحق و الباطل.

الولاء والبراء من الكلمات التي نفق سوقها في الأعوام الأخيرة وإختلط فيها الحابل بالنابل والحق بالباطل. وكثيرة هي الكلمات التي أصلها حق ولكن يراد به باطل من حيث علم صاحبها أو لم يعلم. وأشهر تلك الكلمات تاريخيًا هي آية يوسف عليه السلام ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ﴾[الأنعام: 57]. التي رفعها الخوارج في وجه علي عليه الرضوان يوم صفين بعدما إنشقوا عنه لمّا رضي بالتحكيم بينه وبين معاوية وكانوا من حواريه. فقال قولته الشهيرة (كلمة حق أريد بها باطل). ذلك هو معنى الميزان المنزل جنبًا إلى جنب مع القرآن في سورة الحديد. الميزان هو العقل السديد الذي يجعلك تحسن الفهم ومن أحسن الفهم أحسن إستخدامه ومن أساءه أساء تنزيله. الحكم لله : كلمة حق. ولكن أي حكم؟. وكيف؟ هو الحكم القدري لا الحكم الشرعي لأن الحكم الشرعي يمكن أن يسير وفق ما لا يرضيه سبحانه معصية وهذا كثير. ولكنه لا يقع إلا من بعد إذنه أي من بعد علمه وقضائه ومشيئته. يفعل ذلك سبحانه إبتلاء. وهل يتصور الخوارج أن الله سبحانه هو الذي سينزل بنفسه ليحكم بين المتخاصمين؟ كيف نحكم في خصوماتنا إذن ومن

نحكّم؟ ألم يحكّم عليه السلام سعدًا عليه الرضوان في بني قريظة بطلب منهم وحكم عليهم. فقال عليه السلام :« لقد حكمت فيهم بحكمه سبحانه من فوق سبع سماوات». لو كان الخوارج يومها هناك لواجهوه عليه السلام بمثل ما واجهوا عليا.

الولاء والبراء مثل ذلك بالتمام والكمال.

الولاء معناه موالاة المؤمنين من دون غيرهم والبراء معناه التبرؤ من الكافرين. هذا المعنى وارد في الكتاب بكثرة.ولكن كيف نفهمه؟. تلك هي مشكلة الذين يؤمنون بالكتاب ويجهلون الميزان عن جهل أو غرور.الولاء والبراء عندما يكون عقيدة ـ أي يوالي المؤمن في قلبه مؤمنًا ويتبرأ من غير مؤمن ـ فهي عقيدة صحيحة. وعندما يوالي في قلبه غير المؤمن أو لا يتبرأ من الكافر فهي عقيدة فاسدة. ولكن أنّى لنا أن نعرف ذلك؟. لذا نلجأ إلى العمل. فمن والى المؤمن وتبرأ من غيره فهو المؤمن ومن فعل ضد ذلك فهو غير المؤمن.

كيف يكون ذلك عمليا.

عمليا يكون ذلك في الحقل الديني الخاص وليس في الحياة العامة التي فيها تفصيل. عند الضرورة ـ ضرورة الخوف على النفس مثلا ـ يوالي المؤمن مشركا كما فعل عليه السلام عندما إستجار بمشرك في مكة وهو عائد من الطائف فأجاره وأمّنه. أليس ذلك ولاء منه لغير مؤمن؟ بلى. لأن الولاء هو جعلك أحدا وليا لك. مثل هذا النوع من الولاء لا شيء فيه لأنه لا يجعل للكافر على المؤمن سلطانا على دينه وعقيدته. ومثلها عندما والى عليه السلام قبائل مشركة موالاة سياسية فأستلف سلاحًا من قريش وهي مشركة ليحارب قبيلة أخرى مشركة. أو عندما عقد في الحديبية عقدًا سياسيًا مع قريش وهي مشركة وفيه بنود عدّها الصحابة مجحفة. ولمّا عاهد اليهود في المدينة. ولمّا قتل قتيل ذهب إليهم ـ بني النضير ـ وأخذ منهم نصيبهم من الفدية. الولاء السياسي إذن عندما يكون لا سلطان له على الدين يكون واجبًا أو مباحًا أو مستحبًا أي بحسب الحالة التي يقدرها أصحابها. علة الولاء هي جعل سلطان لغير مؤمن على مؤمن وهو سلطان يفقد

به المؤمن حريته فيفتن. ذلك هو الولاء المحرم بشدة.وما عدا ذلك فهي أعمال سياسية ومالية وعلاقات دولية لا بد منها للحياة ويغشاها المسلمون لتحقيق مصالحهم ولا يعرضهم ذلك إلى الفتنة أو الإكراه أو الكفر. في كثير من الولايات القديمة في تاريخنا تحمّل بعض اليهود حقائب وزارية بتعبيرنا المعاصر حتى قرظ بعضهم في ذلك شعرًا وقال : تهود الزمان ألا فتهودوا ...

أما البراء فيكفي فيه القلب فلا تعلن براءتك من كافر هو حليفك سياسيًا. تلك حماقة تعرض حلفك الذي تحتاجه لمصلحة دينك وأمتك إلى النسف. هل تظن أنه عليه السلام لما إستلف سلاحًا من قريش المشركة ليقاتل بها قبيلة أخرى مشركة يحب قريشًا أنها أسلفته حبا دينيا؟. كلا. ولكن إعلان البراءة له زمانه والحاجة إليه وليس هو عمل فوضوي لا يخضع لعقل.

وعندما إضطر بعض الصحابة إلى قول كلمة الكفر تحت سياط التعذيب في مكة خافوا على أنفسهم فاستفتوه فقال عليه السلام « إن عادوا فعد » أي إن عادوا لتعذيبك فلم تعد تتحمل عد إلى قول كلمة الكفر حتى تتخلص من العذاب ونزل قوله سبحانه ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[النحل: 106]. أي عندما يكون القلب مطمئنا بالإيمان فلا حرج عليك أن توالي ظاهريًا أقوامًا غير مؤمنين لمصلحة سياسية تقدرها ولا حاجة لإعلان البراءة منهم. وكل عمل ـ حتى العبادة ـ لا يكون في موضعه المناسب و زمانه المناسب لا يعدّ عملا مشروعًا إسلاميًا بل يعدّ حدّة وطيشًا. وعندما يكون ذلك من القادة فهو وبال على المجموعة بأسرها.

ولذلك فإن آيات الولاء والبراء متعلقة بالعقيدة ومتوجهة إلى ولاء مع غير مؤمنين وهي آيات تخص في الأغلب الحكام وليس الناس العاديين لأن الولاء سياسي بالدرجة الأولى فلا تسئ الفهم فتظلم نفسك وتظلم الناس غير مميز بين مقامات التشريع.

بين مغالاة سلفية في الولاء والبراء ومغالاة شيعية في التقية .. تتوه الحقيقة.

النسبية ـ أي التوازن والإعتدال ـ هي بلسم ذينك الغلوّين. فمن ألغى التعاون مع الناس على إختلاف دينهم في الشأن الدنيوي التدبيري بدعوى الولاء والبراء فقد غلا وعطل مصالح الأمة. ومن ألغى الحدود الدينية بدعوى التقية فقد غلا وجعل للكافرين على المؤمنين بطانة وولاية. أرأيت كيف أن الأمر نسبيّ لأنه عمليّ؟ نعم للتقية في حدود توقي الشر. ونعم كذلك للولاء في حدود تحقيق المصالح التي لا بد منها لنا في الحياة السياسية والمالية وغيرها.

28

مريم البتول .. تلك المرأة العظيمة.

هلا سألت نفسك لم خلق سبحانه عيسى عليه السلام فحسب على غير العادة التي خلق بها الناس من قبله ومن بعده؟ أكثر أسئلة الناس هي : كيف تم ذلك؟ والسؤال عن الكيفية لا يسمن ولا يغني من جوع. حتى عندما نعلم أنه خلقه من نفخة فيها من روحه سبحانه .. لا يضيف لنا ذلك شيئا. لأننا أصغر من أن نعرف روحه سبحانه وأدنى من أن نعرف كيف نفخ منها في فرج مريم البتول عليها السلام. هو سؤال الفارغين البطالين المتسكعين.

السؤال الذي يحبه سبحانه هو : لم كان ذلك؟

ما كان ذلك بدعا من الخلق سوى لحمل بني إسرائيل ـ أي من بعد موسى عليه السلام ـ على الإيمان بالله وحده إيمانًا خالصًا سائغًا للأفئدة الظامئة إلى الحق. كانت تلك البدعة الخلقية التي لم تتكرر إلى يوم الناس هذا للعلاج بالصدمة التي يحتاجها الإسرائيليون الذين قالوا ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾[التوبة: 30]. فكان مناسبًا أن يصدمهم بصدمة خلقية باهرة لعلها توقظهم من سباتهم أو تهزم إلتواءهم ولعل ذلك يكون دافعًا قويًا وباعثًا جديًا على تخليص الإيمان الإسرائيلي بالله سبحانه من لوثات البنوة والأبوة فيعبدوا من

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[الشويى: 11]. إلهًا واحدًا أحدًا فردًا صمدًا لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد. الغافل يحتاج إلى الصدمة تعالج سدره في غياهب الجهالة. لذا لم يضن عليهم سبحانه بتلك الصدمة وأي صدمة أن يقف الإنسان ذات يوم في رحلته الطويلة على آدمي يخرج من رحم إمرأة حصين بتول عذراء لم يمسها بشر؟ بدعة في الخلق المنتظم بادعة وصدمة عاتية كفيلة بطرح السؤال الذي يريده سبحانه : من خلق هذا كذلك؟ هذا الخالق الذي خرق عوائد الخلق وتقاليد الصنع لا بد أن يكون عظيمًا حقًا وقدوسًا فعلًا وذا قدرة عجيبة لا تؤتى لغيره.

ولكن النتيجة كانت مخيبة لكل الآمال ..

أجل. يا خيبة المسعى. الذين حباهم سبحانه بالصدمة لعلهم يفيؤوا هم الذين فاء عقلهم السمج إلى أن هذا المخلوق الصغير الذي خرج من رحم إمرأة لم يمسها بشر لا بد أن يكون إلها أو بعض إله. وكذا أمه لا بد أن تكون ﴿ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾[المائدة: 73]. كلما تفكرت في الموقف وحدي أسفت لهذه الجهالة الجهلاء. نحن في الدنيا عندما يتكرم علينا مهندس (VW أو Peugeot أو غيرهما) بتخريج طراز جديد من هندسته نكبر فيه قدرته ونشيد بعظمته ونغبطه على ذكائه. ذلك هو الذي حدث مع الحمقى الإسرائيليين بالتمام والكمال : حباهم سبحانه بشيء خارق لعله يفيئ بهم إلى الإيمان الحق تعظيمًا لخالق عيسى ومن قبله أمه فإتجهوا في الإتجاه المضاد بالتمام والكمال ظانين أن هذا الصبي الصغير ـ حتى وهو يتكلم فور خروجه من رحم أمه قائلا لهم أنه عبد الله ـ خلق نفسه أو خلقته أمه أو هناك ثالوث خلاق مشترك (الرب ـ مريم ـ عيسى). لم أجد في التاريخ البشري نذالة ولا حقارة ولا صفاقة مثل هذه. وليس هناك برهان مادي يناسب عقولهم المادية الكالحة الجوفاء مثل هذا البرهان. ورغم ذلك آثروا الكفر.

مريم البتول .. تلك المرأة العظيمة.

كلما ذكرت قصتها أحببتها والله. هي المرأة التي إختارها سبحانه ليخرق بها سنته الماضية وليبين لنا نحن اليوم كذلك أن الله خالق السنة. وهو الذي يخرقها متى شاء

وكيفما شاء ومع من شاء. يريد أن يقول لنا : كما لا يعجزني أني خلقت أباكم آدم من عدم أي من تراب وماء وطين وصلصلة فخار ونفخت فيه من روحي فأضحى إنسانًا عاقلا مكرمًا بتلك النفخة التي ما نفخت بها إلا في الإنسان ليكون مفضلا مستخلفًا مستأمنًا .. كما لا يعجزني ذلك ظللت أخلق بنيه كلهم من زوجين ﴿ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾[الحجرات: 13]. ولما أردت هداية الإسرائيليين بالعلاج بالصدمة العقلية خرقت سنتي وخلقت لهم عيسى من أنثى فحسب دون ذكر مسها. ثم أمضيت سنتي تلك في الخلق أي من زوجين ذكر وأنثى. كما لم يعجزني ذلك فإنه لن يعجزني أن أبعث الأموات الذين يحرقون بالنار بأيديكم فلا يبقى منهم شيء. الرسالة هي : من دلائل قدرتي وعظمتي أني أنوع الخلق. فأخلق من عدم ثم من زوجين ثم من أنثى بلا ذكر بل خلقت حواء من ذكر بلا أنثى. أفعل ذلك التنويع لعلكم تصدقون حقًا أني أنا الله لا إله إلا أنا فلا تعبدون سواي. أليس أشقانا فعلا هو من يشرك به من بعد كل ذلك؟ أليس فينا اليوم من لا يعتقد أن عيسى هو إبن الله ولكنه يعتقد أن الجن لها في ملكه شيء من التدبير أو للكهنة من المشايخ والعلماء وأصحاب البخور الكثيف والشعوذات المحيرة. أجل. فينا. ويوم القيامة يكشف أمرنا ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾[سبأ: 41]. فينا من يقول مثلك : الله أكبر بلسان مقاله ولكن لسان حاله يقول : الجن أكبر. الشيخ الفلاني أكبر. ولسان الحال أبلغ لو كنا نعلم. لسان الحال هو الوعي الباطني كما قال علماء النفس.

عيسى إبن مريم.

لا يفتأ يذكرنا بأنه إبن مريم وليس إبن الله. ميلاده عجيب وموته أعجب إذ توفاه سبحانه ورفعه إليه فلم يصلب ولا حاجة لكاهن الفاتيكان أن يعتذر لليهود كما فعل قبل زهاء عشرين عامًا أنهم برآء من دم الصليب عيسى. هو صليب ولكن اليهود برآء من دمه. ألا تفعل شيئا لأجل إقناع هؤلاء أنه لم يقتل ولم يصلب ويوم تستقيم الموازين يعلم الخلف منهم أن حضارتهم التي أقاموها على الصليب منخرمة إنخرام سقف خرت أركانه فدابة الأرض تأكل منسأتها. للبتول مريم إبنة عمران ـ ومنهم من عدّها نبية

ـ سورة في كتاب الإنسان. كانت منذورة لخدمة دار العبادة لما كانت في بطن أمها فلما وضعتها تعذر ذلك ليدخرها سبحانه لما هو أعظم من ذلك بكثير. هن أعلام بهن تقتدي البشرية (إمرأة فرعون التي أحصنت عقلها أن يعبث به زوجها وأم موسى التي أحصنت فؤادها أن يتسلل إليه اليأس من عودة رضيعها وإبنة عمران التي أحصنت فرجها ليخرج منه أحد أولي العزم من الرسل).

29

القرآن يعلّمنا الإنصاف والموضوعية والعدل ...

﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾[آل عمران: 75]. (من) التبعيضية .. وردت مرات ومرات في الكتاب العزيز. فمرة تنسب إلى الناس ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ ﴾[البقرة: 204]. ومرة إلى المنافقين ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾[التوبة: 58]. ومرة إلى المؤمنين أنفسهم ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ .. ﴾[الأحزاب: 23].

يريد سبحانه أن يروّضنا على الإلتزام بالحق والإنصاف والعدل مع الناس كافة وخاصة عندما يكونون مخالفين لنا في الإعتقاد أو في حالة حرب. أهل الكتاب الذين يتحدث عنهم دوما بصيغة التبعيض هم مصنع النفاق في المدينة. ولكن حتى لو كان واحد منهم فحسب غير كذلك ـ أي غير مورط في خيانة أو غيرها ـ فإنه يأخذ في الخطاب الإسلامي حقه فلا يوضع مع الناس في كيس واحد. يريد سبحانه منا جمع الناس في جبهة واحدة. فإن حالت دوننا ودون ذلك سننه ـ وقد حالت ـ فلتكن جبهات تتعايش بالسلم والأمن وليس بالحرب والدماء. قال علي عليه الرضوان لأحد عماله « الناس رجلان : إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق ». أجمل خلق هو عدم بخس الناس أشياءهم. إذ أن أكثرنا في حالي الرضى والغضب لا يحسن سوى جمع

الناس كلهم في كيس واحد ليسهل لنا لعنهم. إتجاه القرآن هو الإتجاه المضاد لذلك. فهل جعلنا القرآن متبوعًا؟

ذهب الخطاب القرآني في إعتبار حرمة الآخر المخالف مذهبًا بعيدًا إذ قال ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾[سبأ: 24]. بل قال ﴿ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: 6]. بل قال ﴿ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾[سبأ: 25]. هل تجد مثل هذا في أي خطاب أنتجته البشرية من آدم حتى اليوم؟ ألا تخترمك مشاعر الفخر إختراماً وأنت تقرأ مثل هذا؟ ألست كمن يطأ الثريا بإخمص قدميه؟ ولكن من منا يلتزم بذلك حتى في حالات الرضى بله الغضب؟

هو خلق بضاعتنا فيه مزجاة. هو خلق الواثقين من بضاعتهم. أما من يستبد بهم اللسان الأعمى أو الغضب الأصم فإنهم يبررون عدوانهم بقولهم أن الكفر ملة واحدة. وهو ليس ملة واحدة. ولو كان ملة واحدة فما علينا سوى التربص بأنفسنا والترفق بها أن نصيب قوما بجهالة فنبيت على شوك الندم. هذا خلق العفو والصفح والحلم والأناة. لّما جاء نفر من اليهود يحيّونه ليّا بألسنتهم وهم يريدون قول (السأم) بدل السلام غضبت عائشة عليها الرضوان إذ رد عليهم عليه السلام بقوله : وعليكم. ثم قال لها يا عائشة السأم ـ أي الموت ـ علينا وعليهم وعلى الناس أجمعين. أجل. بذلك الصدر الرحب والخلق العظيم تجاوز الموقف عليه السلام. وأي كسب يجنى من الخصومة مع الحمقى وكل إناء بما فيه يرشح.

ليس الإنصاف وحده بل معه تقديم الخير.

أهل الكتاب في حرب شعواء ضد الله ورسوله عليه السلام ورغم ذلك قدم أهل الإنصاف فيهم لينصفهم فقال ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ ﴾[آل عمران: 75]. أي بدأ بالجهة الإيجابية فيهم حتى لو كان فيها واحد منهم فحسب. هي رسالة إليهم أن الإسلام ليس دبابة (مثل دبابة شارون أو السيسي) تجرف كل شيء لتشيّد على أنقاضه شيئًا جديدًا. بل هو دين يزكي النافع المفيد الذي سبقه لينمّيه. وهي رسالة

إلينا نحن عنوانها أن نسج خيوط التعارف ونبذ نصال الإحتراب مطلوب مع المخالفين حتى لو كان فيهم واحد فحسب من أهل الوفاء. الناس كذلك في كل زمان و مكان و دين : منهم .. ومنهم. لذا وجب تقديم الخير إذ لا تكسب القلوب إلا بالرسائل الإيجابية والإنسان مجبول على حب من أحسن إليه. في جانب الوفاء ذكر قنطارًا ولكنه في جانب الخيانة والغدر ذكر الدينار وتلك هي المسافة التي يجب قطعها من لدنّا تأليفا لقلوب أخرى إلى الإسلام. الخطاب الإسلامي هو خطاب الدعوة التي تجمع ولا تفرق والتي تحلم ولا تظلم وتحسن ولا تسيئ. فهل يعي الدعاة اليوم ذلك؟ أم نسير على خطى (أئمة الجمعة) الذين يمطرون الناس في كل أسبوع بهذا الدعاء المعتدي (اللهم أهلك اليهود والنصارى ودمرهم ..). هل وجدت ذلك في أي دعاء مأثور عندك؟ أم تأمر بالسنة وتخالفها في الدعاء؟ وهل أنت في إثر نبيك داع إلى الخير أم قاض بالهلاك. هل ترقب من بعد ذلك من يهود بلادك إيمانا؟ وما شأن النصارى الذين يسبقونك اليوم ـ في كثرة منهم ـ إلى سنة نبيك في حلف الفضول؟ ألا يسعك أن تؤثر أدعية القرآن والسنة فهي جامعة مانعة؟ إذا كنت ممتلئا شجاعة ضد هؤلاء فهل تمطرنا بشجاعة مثلها ضد الظالمين من أبناء الجلدة؟ لا. تلك دونها الذي دونها.

أين نحن من قائد الدعوة عليه السلام وهو يقول لولد رأس النفاق الذي يستأذنه في قتل أبيه أن يقتله غيره فيقتل هو مؤمنًا بكافر فيلج النار « لا. بل نصاحبه مادام فينا ». بل أين نحن منه وهو يقف على قبور المنافقين ويستغفر لهم حتى نهي عن ذلك فقال : لو أعلم أنه سبحانه يغفر لهم لأستغفرت لهم أزيد من سبعين مرة. إذ قال له ربه ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾[التوبة: 80]. بل أين نحن منه عليه السلام وهو يكفّن رأس النفاق الذي أساء له في عرضه في بردته؟ أصحاب الإتجاه المضاد لهذا سيواجهونك بكل السبل لأجل إبطال مثل هذا. فمن قائل : ذاك نبي. وهي حجة عليهم وليس لهم فهو نبي لنتخذه أسوة. ومن قائل : ذاك زمن ولّى. ومن قائل : أنها حالة خاصة. المهم ألاّ نتأسى به في هذه لأننا ثوريون وهو إصلاحي. لن يكون إيمانك مرشحًا للشفاعة فيك حتى يكون هواك تبعًا لما جاء به قائد الدعوة. وإياك أن تعتقد أنه لم يزاول السياسة بمثل

ما تكون أحسن سياسة. إياك أن يثور فيك الغرور الأحمق لتظن أنه عفا في غير محل عفو أو قسا في غير محل قسوة.

الكلمة هي التي تسعر الحرب أو تنسج عرى التفاهم. فهي ذروة الجهاد الذي هو بدوره أفضل عمل « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ». فمن أحسن الكلمة إسلامية أصيلة معاصرة مؤتلفة لا مفرقة وعافية لا منتقمة فقد أحسن إنتاج خطاب إسلامي تتقدم به الدعوة ومن تنكب ذلك نفّر عن دينه وهو يحسب أنه يحسن صنعا.

30

من أكبر محكمات الكتاب : الإعتصام.

سبق أن عالجت بعض هذه الحلقات من سلسلة ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ موضوع محكمات الكتاب التي هي أم الكتاب و التي أمرنا بالعض عليها بالنواجذ غير متبعين لما تشابه منه لأن إتباع المتشابهات صنعة الفتّانين الذين يمزقون الصف الواحد المرصوص أو الذين يبتغون التأويل فيما إحتفظ به سبحانه بتأويله. هي محكمات قليلة العدد ولكن أثرها عظيم في حفظ الدين والأمة وقواطع الإجتماع البشري التي بها يسعد الناس. ومنها ما ذكر هنا بمناسبة في سورة آل عمران. المناسبة هي خصومة جدّت بين رجلين ينتميان لقبائل مختلفة في المدينة بسبب سقي ودلو وبئر ماء. وهي مشكلة تقع بين الناس. ولكن تلقّفها رأس النفاق إبن أبي سلول ليفرق صف الأمة وحرّش بين المتخاصمين اللّذين إستصرخ كل منهما قبيلته بالدعوى الجاهلية فغضب عليه السلام غضبًا شديدًا وقال « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم » ونزل قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: 100]. وإجتمعت كلمة المفسرين على أن المراد بالطاعة هنا ليست الطاعة العقدية بل طاعتهم فيما تكون نتيجته تفريق صف الأمة الواحد.

من أكبر عوامل صحة الفهم ودقة الفقه : إعتبار السياق.

لضمان حسن الفقه ودقة الفهم عوامل منها اللسان العربي وإعتبار التكامل ومناسبة النزول إن وجدت والمقصد والأساس العلمي أو الواقعي. ومنها ملاحظة السياق حتى لا ينتزع الفهم إنتزاعًا من سياقه فيضل صاحبه. السياق هو مثل مناسبة النزول أي أنهما محل تحكيم لحسن فقه المطلوب ولكن لا يجمد عليهما ولذلك جاءت القاعدة الشهيرة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب). نحرص على حسن فهم السياق ولكن لا نرهن الأمر به هو فحسب فلا نعدّيه لغيره عندما يحين أوان ذلك. السياق هنا يأمرنا بتقوى الله حق تقاته وهو أمر لن يأتمر به أحد لأنه لا يقدر عليه أحد حتى لو كان أمين الوحي جبريل نفسه. ولذلك نلجأ إلى السياق لنحسن الفقه إذ نلفى قوله ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾[آل عمران: 103]. وندرك أن الأمر غير المقدور عليه (حق التقوى) يتحقق بمقدور عليه وهو الإعتصام.

الإعتصام محكم من أم الكتاب وله شرطان وسبب.

أما السبب فنعالجه في لوحة قابلة من لوحات هذه السلسلة ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾. وأما الشرطان فهما : أن يكون الإعتصام بحبل الله منا جميعًا وبحبل الله جميعا. جميعا هذه تعرب حالا وهي حال مزدوج. فهي حال للفاعل الذي جاء هنا ضميرًا مستترًا تقديره أنتم. وهي كذلك حال للمفعول وهو حبل الله. فلا يتحقق إعتصام إلا بتحقق شرطيه أي أن يكون الإعتصام منا جميعًا وبحبله سبحانه جميعًا. فلو إعتصم بعض منا ولم يعتصم الآخرون ما حصلنا على ثمرة الإعتصام ولو إعتصمنا جميعًا بجزء أو أكثر من حبل الله ـ وحبل الله هو دينه في محكماته وأمه وقواطعه ـ ولم نعتصم بالحبل كله ما حصلنا على ثمرة الإعتصام. الإعتصام هو المعبّر عنه بسورة الصف وهو مؤكد بنفي الإفتراق ﴿ وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾. والعرب تستخدم الإتيان بالضد لتأكيد الشيء. فهو إعتصام جماعي بالدين كله في قواطعه وهو إعتصام لا تفرق بعده. تشديد في قضية الصف الواحد لأنه قضية الإسلام العظمى. ولذلك قال المفسرون كلهم أن الكفر هنا معناه التفرق. وعندما يسمي سبحانه تفرق الأمة كفرًا فذلك يعني أنه أكبر كفر نعمة وبينه

وبين كفر الملة طرفة عين. كفر الفرد هو بإتيان ناقض من نواقض الإيمان وكفر الأمة هو تفرقها إذ لا يغني عنها إيمان أبنائها من بعد تفرقهم. لم؟ لأن التفرق يغري العدو فيحتل الدار ويفتن أولئك المؤمنين المتفرقين بشتى ضروب الفتنة ترغيبًا وترهيبًا فيكفرون فعلا كفر ملة وتنهدم شعائر الإسلام وتختفي شرائعه.

الإعتصام بأمرين لا فكاك لأحدهما عن الآخر.

1. الإعتصام بالله أي بحبله المتين وعروته الوثقى ويكفي هنا الإعتصام بالمحكمات التي هي أم الكتاب أي القواطع المعلومة من الدين بالضرورة في شتى حقول الحياة من الصلاة حتى العلاقات الخارجية وتدبير الدولة والحكم وتداول المال وسن التراتيب المنظمة.
2. الإعتصام بالأمة نفسها أي بجماعتها المعصومة إذ ماتت العصمة الفردية مع صاحبها عليه السلام ودفنت معه في قبره فلا عصمة لفرد من بعد موته عليه السلام. دعك من خزعبلات بعض الشيعة الذين يخلعون على بعض أئمتهم من عصمة ما لهم بها من سلطان. ولكن بقيت لنا عصمة واحدة هي عصمة الأمة التي لا تجتمع على ضلالة وهي التي سنت الإجماع أول مصدر من مصادر التشريع إجتهادا من بعد المصدرين الأوليين اللذين لا يجادل فيهما إلا منافق. الإعتصام بالأمة معناه لزوم جماعة الأمة تحت سقف صف واحد لا يخرق بأي سبب. الإعتصام بالأمة معناه إتباع الأمة ـ أي أكثرها إذ الإختلاف فيها ضربة لازب ـ في القضايا الكبرى التي أجمعت عليها. خذ مثلا معاصرًا : المقاومة للعدو المحتل في فلسطين ونبذ التطبيع. هذا أمر صرفت له دوليًا وعربيًا ما يزن الأرض ذهبًا وفضة ولكن باء بالفشل الذريع لأن الأمة في جملتها الغالبة ظلت معتصمة بعضها ببعض خلف الحبل المتين الذي يجرم الظلم ويؤثم الإحتلال ويدعو إلى مقاومته بالروح الغالية الثمينة.

خلاصة مركزة : لن يتقي الله مؤمن حق تقاته أبدًا حتى يعتصم بالأمة المعتصمة بالحبل المتين وحتى يساهم بما يقدر في ذلك. فمن خرق صف الأمة فليس منها وليس من حبلها.

31

الدعوة إلى الخير فريضة على الأمة مفروضة ..

الإعتصام بالإسلام ـ بمحكماته لا بمتشابهاته ـ وبالأمة ـ في إتجاهها الأعظم الغالب ـ هو الفريضة العظمى التي تحقق للأمة وحدة صفها المرصوص مهما كانت الأمة متعددة متنوعة دينًا ومذهبًا ولسانًا ولونًا وعرقًا. ولفرط علو تلك الفريضة ـ الإعتصام ـ أبى الوحي الكريم إلا أن يفرض لها وسيلة قارة راسخة ثابتة لحسن حمايتها وصونها وهذا قليل جدًا في الشريعة الحريصة على بيان الغايات أكثر من حرصها على بيان وسائلها إلا عندما تستوي الغايات والوسائل أو تقترب كما هو حال الإعتصام غاية والدعوة إلى الخير وسيلة. إذ لا يعتصم الصف الواحد المرصوص بأمته ولا بمرجعيته الدستورية العظمى ـ الكتاب والسنة ـ إلا بوسيلة قوية ثابتة تدعى لها الأمة جمعاء قاطبة وهي وسيلة الدعوة إلى الخير كما سميت في مواضع أخرى كثيرة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فريضة الدعوة إلى الخير بين أولوياتها وقوانينها

1. لكل شيء أولويات في العقل البصير المستنير بالوحي وبالإجتهاد معا. أولوية الإسلام هي الحرية التي تثمر التوحيد فلا يؤمن بالله مسترق مأسور مستعبد لأنه معرض للفتنة وإن آمن كاتما إيمانه في صدره عمره كله فلن تتاح له فرص إستثمار إيمانه. وأولوية التوحيد هي إنشاء أمة وليس اللبث في الصدر مخزونا لا ينفع حتى صاحبه. وأولوية الأمة هي حفظ صفها المرصوص الواحد. والإختلافات تحت ذلك السقف تقويه وتثريه. وأولوية الصف هي صون الإعتصام به وبالمرجعية الدستورية العظمى. وأولوية الإعتصام هي إتاحة الدعوة إلى الخير من لدن الأمة جمعاء قاطبة لصنع الرواحل والعدول والدعاة والمصلحين والأئمة في كل حقل. وبذا تكون تلك الفريضة فريضة مؤسسة أي فريضة قانونية تقوم عليها الدولة نفسها بالرعاية والصنع

والتخريج والتأهيل والتكوين والمجتمع يحضنها في مختلف دواليبه فلا توجد صورة مثلى تكون فيها الدولة خادمة للمجتمع ويكون المجتمع فيها مسؤولا على الدولة إلا بمأسسة فريضة الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر أي فريضة الدعوة إلى الخير. فإن تركت للمبادرات الفردية ربما عزف عنها أهلها وعلاها الدخلاء فيكون فساد من حيث أردنا الصلاح أو تموت بالكلية وعندما يفرغ مجتمع من تلك الفريضة فهو طعام عفوًا من الملح أي لا يصلح إلا للمرضى والمصابين ومن حرم جسمه من كمية معلومة من الملح يوميا أصابه القعود لفرط الهوان البدني. الدعوة إلى الخير هي بوصلة الخير والصلاح في الأمة وهي الإبرة التي تدل على معدل حرارة المحرك. هي القلب النابض الذي ينبه للأمراض والعاهات قبل وقوعها لأجل حسن تداركها. هي بإختصار شديد : جهاز المناعة الداخلي الذاتي الذي يصاب من فقده بداء فقدان المناعة ومن فقد المناعة الذاتية الداخلية فجسمه معرض لكل الأدواء ولو بأثر من نسيم عليل.

2. بحسب السياق فإن أولوية الأولويات لفريضة الدعوة إلى الخير ـ أو جهاز المناعة الداخلي ـ هي رص الصف الواحد ليكون متينا قويا وتوظيف الإختلافات تحت ذلك السقف لخدمة تلك الوحدة فإن وظفت لهدم الوحدة فالذنب ذنبنا نحن وليس ذنب الدين الذي جعل التنوع إرادة مرادة لله ليعلمنا وليمتحننا. ذلك لأنه عقب في إثر الأمر بهذه الفريضة بقوله ﴿ وَلَاتَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ .. ﴾[آل عمران: 105]. أي : من فرط في إقامة هذه المؤسسة المشتركة بين الدولة وبين المجتمع فقد أتاح لجرثومة التفرق البغيضة أن تغتالنا بدم بارد.

3. وفي سياق موال بالتمام والكمال أناط سبحانه خيرية الأمة ـ خيرية تفضل بها الأمم الأخرى كلها غابرها وحاضرها ـ بالقيام على هذه المؤسسة : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وعندما تؤول الأمة ليس إلى التفريط في هذه المؤسسة المفروضة فحسب ولا حتى إلى عدم رعاية أهلها بله تأهيلهم وتكوينهم فحسب .. بل تؤول إلى إعلان الحرب عليها وعلى أهلها من مصلحين ودعاة وعلماء وفقهاء ومعارضين سلميين ومثقفين وإعلاميين وطنيين وأدباء ملتزمين وفنانين مبدعين .. عندها لا يستغرب أي

واحد منا أن تؤخر الأمة من مقام الخيرية العالمية المطلقة إلى مقام الذيلية والذنبية أو مقام الببغاوية القرودية.

4. في حال مثل هذا ـ ونحن فيه ـ فما على الأمة بمختلف مجتمعاتها وشعوبها وفعالياتها إلا أن تتقلد هذه الفريضة المكروهة من لدن دولتنا والمحاربة من لدن لفيفها العالماني المؤثر وأن تعد ذلك جهادًا في سبيله ومقاومة لأجل إعادة الإعتبار للمجتمع وهويته. التكلفة باهظة جدًا سواء تخلفنا عن هذه الفريضة المؤسسة العليا ـ التي هي وسيلة غائية لخدمة فريضة الإعتصام وبناء الصف الواحد ـ أو قمنا بها. فإن تخلفنا تسلل العدو الخارجي إلى أرضنا وضرب هويتنا وفتننا وهو حاصل. وإن قمنا بها سجنّا ونفينا وعذبنا وهجرنا وأوذينا منه هو بعصا دولتنا. والعاقل الحصيف المؤمن بالله حقا وباليوم الآخر فعلا يقدم التكلفة الباهظة الثانية على الأولى أي خوض غمار المقاومة السلمية دعوة إلى الخير قدر الإمكان ضمن جمعيات ومنظمات وأحزاب وغيرها وليكن منه الصبر على لأواء المقاومة فإن مات مات واقفًا لا مدبرًا وإن جاء نصر الله والفتح تمكن عقبه من بعد عقود وقرون من ناصية الحكم والسلطان ومواقع التأثير. وذلك هو مراد الله سبحانه من خلقه بالضبط إذ جعل لهم الحياة دار إمتحان ومحل إبتلاء.

32

حبل الله وحبل الناس...

الحبل هو الآلة التي تستخدم لوصل شيء بشيء ولأي غرض من أغراض ذلك الوصل ولذلك سميت الحبلى أنها حبلى لأنها تصل نفسها بشيء جديد يوشك أن يخرج منها. فالأيام حبلى والأنثى حبلى. كما يكون الحبل أداة قتل وتعذيب ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾[المسد: 5]. أو أداة إنجاء ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾[آل عمران: 103]. تقول العرب إختلط الحابل بالنابل كناية على التصرم.

جاءت بياناً عن أهل الكتاب من آل عمران. ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ ﴾[آل عمران: 112]. هي ذلة الكفر سيما إذا إقترن بظلم. وإلا فإن أكثر أهل الأرض اليوم عزا وغلبة وعلوا إنما هم أهل الكتاب. هي ذلة الشعور الداخلي التي تخز الظالم وتهينه في نفسه ولا تنسب الذلة للإيمان حتى في أوج ضعفه. إلا ذلة القلة في بدر ﴿ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾[آل عمران: 123]. الإستثناء هنا (إلا) موصول لا مفصول لإستقامة المعنى. وبه نفهم الذلة المضروبة عليهم وفق ما أنف.

فما هو حبل الله؟

1. هو قدره القاضي بالمساواة في العطاء الدنيوي فلا محاباة لأهل إيمان لأجل إيمانهم إذا نبذوا سنة العطاء ولا عقوبة لأهل كفر لأجل كفرهم إذا أخذوا بسنة العطاء وقد قال في الإسراء ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾[الإسراء: 20]. حبل الله الذي به يستثني بعضهم من الذلة هو قدره القاضي بالتسوية في العطاء فإذا أخذ أهل الكتاب ـ كما هو الحال اليوم ـ بسنن النهضة وقوانين العمران نزعوا عنهم الذلة ـ ذلة الفقر والحاجة والفاقة والغلبة والجهل ـ وذلك خضوعًا لمشيئته سبحانه التي هي الوجه الآخر لحكمته. حكمته الإبتلاء ومشيئته حرية الإنسان في الدنيا ليتحمل مسؤوليته كاملة يوم القيامة.
2. وحبل الله هنا أيضًا هو تدحرج المسلمين عن سدة القيادة وغرفة الريادة في رأس السفينة الواحدة التي تقل البشرية جمعاء قاطبة وهو تدحرج لا يرضاه ولا يحبه ولكن عندما يرتضيه المسلمون لأنفسهم فإنه لا يكرههم على سواه. ذلك التدحرج هو الذي جنّب أهل الكتاب أن يكونوا أذلة. الذلة تكون في مقابلة الوضع الإسلامي القوي وعندما يتخلف ذلك فليس هناك من يثقفهم ليذلهم.

وما هو حبل الناس ؟

1. هو حبل الأمة الإسلامية العظمى عندما تكون قوية قائدة شاهدة تحمي أهل الكتاب المسالمين من الإضطهاد والقهر فهم أهل ذمة عندها أو مواطنون لهم ما لها وعليهم ما عليها

أو لاجئون ريثما تعود الحرية لأوطانهم. حبل الناس هو حبل الأمة الإسلامية الواحدة القوية بمثل ما كان لنا ذلك ذات يوم وهو حبل ينزع الذلة عن أهل الكتاب أي ذلة الدنيا.

2. وهو حبل الموازين الدولية المنخرمة عندما تكون مائلة إلى غير الجهة الإسلامية من مثل الوجود الإسرائيلي الصهيوني اليوم الذي هو محمي بحبل الناس بسبب إنخرام الموازين إذ ليس كل من يحمي الدولة العبرية المحتلة هم أهل كتاب فحسب بل هو لفيف عربي إسلامي و غربي مسيحي.

ثمرات الآية :

1. لله سبحانه إرادة ومشيئة قدرية كونية عليا مبناها حكمته في الإبتلاء لأن الدنيا كلها دار إبتلاء يعتلج فيها الناس أجمعون ليكسبوا منها بحسب عملهم وليس بحسب دينهم سيما عندما ينبذون دينهم الذي يجعل من عمارة الدنيا وكسب قوتها فريضة دينية. وهي إرادة عادلة منصفة لا تعاقب كافرًا في الدنيا وبالدنيا بسبب كفره ولا تحابي مؤمنًا في الدنيا وبها بسبب إيمانه لأن الناس كلهم عيال الله فهو خالقهم وهو مولاهم وهو الذي يحبوهم بالغذاء والحياة فهم عباده والدنيا موضوعة لهم جميعا فيها يتنافسون وبكسبهم فيها يحاسبون يوم القيامة. هي دار عمل لا دار جزاء إلا تنبيهات ضوئية حمراء من حين لآخر فردية أو جماعية قليلة.

2. حبل الله ذاك ـ أي قدره الماضي ـ لا يعطل حبل الناس ولا يحجزه أن يعمل عمله إبتلاء منه حتى يجرد له كتاب حسابه يوم القيامة فهو اليوم حر طليق بحبله الذي يرفع الذلة عن أهل الذلة بحق أو بغير حق. الحبلان (حبل الله وحبل الناس) يخضعان لمشيتة إلهية واحدة وحكمة ربانية واحدة بخلاف ما يوحي التعبير هنا بإختلاف الحبلين. حبل الله يمنح قدرًا من الحرية لحبل الناس حتى يحاسبهم على ذلك يوم القيامة. تلك هي منزلة الإنسان وذاك هو دوره : حر تحت سقف منيع مشيد لا ينفذ من أقطاره وهي حرية مجهزة بإرادة وعقل وسلطان فهي حرية مسؤولة أي تتعرض للإيقاف والسؤال يوم القيامة.

3. ومن حبل الله أيضًا وحبل الناس أن يهتدي أهل الكتاب ـ أي من أراد منهم ذلك ـ لتنزع عنهم ذلة الدنيا فحبل الله يهديهم إلى ذلك بالوحي وبالعقل وحبل الناس يهديهم إلى ذلك بالدعوة بالتي هي أحسن. وأحسن دعوة هي دعوة يمتزج فيها الحق بالقوة ثم بالخير. فما يؤمن بالإسلام اليوم من أهل الكتاب أحد إلا بالحق وهو أعزل. ويوم يتجهز بالقوة علمًا ومعرفةً وإعتدالا متكافئًا لميزان الإرهاب يدخل الناس في دين الله أفواجًا.

33

هلاّ لك أن تكون أقوانا وسيدنا فتكظم غيظك ..

لما قرأت ـ قبل عقود ـ حديثه الصحيح عليه السلام « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » قلت في نفسي ـ وكتبت ذلك ـ أنه ليس للإسلام عنوان هو به أقمن وأخلق سوى أنه رسالة أخلاقية جامعة وأي تعريف آخر للإسلام لن يكون دقيقًا حتى لو كان صحيحا. ولما قرأت حديثه الصحيح الآخر عليه السلام مخاطبًا الأشج إبن قيس « إن فيك لخصلتين يحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة » .. قلت في نفسي ـ ثم كتبته ـ أن ذروة سنام الخلق العظيم الطيب الكريم الذي هو بدوره عنوان الإسلام إنما هي الرحمة. أليس ذلك أدنى إلى بسم الله الرحمان الرحيم أو إلى الحمد لله رب العالمين الرحمان الرحيم أو إلى ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾؟[الأنبياء: 107] بلى. هل تظن أنه عليه السلام كان عاجزًا أن يرد عن نفسه الأذى وسلا الجزور مترعًا دمًا وروثًا يطرح على عاتقه وهو ساجد حول الكعبة؟ أم تظن أنه أعجز عن ذلك والأعرابي الغليظ الجلف يلوي عليه قميصه خنقا حتى إحمرت عنقه فلما تركه أمر له بشيء؟ الضعيف يرى ذلك ضعفًا والقوي في إثره عليه السلام يرى ذلك قوة. أليس هو القائل « ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب ». أليس هو العافي عن إسرائيلية دست له السم في خيبر تريد إغتياله إن كان دعيا وإختباره إن كان نبيًا؟ أليس هو صاحب أشهر وأعظم عفو تشريعي عام كامل مطلق في التاريخ بقوله لقريش الذي ظلت تعذبه عقدا

ونيفًا وتطارده وتحاربه مثل ذلك « إذهبوا فأنتم الطلقاء ». لكم صدقت العرب في قالتها (كل إناء بما فيه ينضح). أليس هو الذي تربع فوق عرش الغلبة ضد قريش بشهادتها هي فيه (الصادق الأمين)؟ هل أتاك حديث رجل ينتصر بشهادة عدوه فيه؟ نحن دخلنا الإسلام من نافذة جانبية تاركين لجهلنا الباب الرئيس ـ باب الإستقبال ـ ولذلك نرى القوة دوما في العضلات المفتولة ورد الصاع صاعين كما قالت الجاهلية العربية.

كظم الغيظ أعسر عبادة

هي مواقف ثلاثة : أحسنها الصفح والعفو والحلم بكظم الغيظ بشرطي القدرة على الإنتصاف وإخلاص النية له وحده سبحانه. ثم العدل والقسط أي العدوان على من إعتدى عليك على أساس ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾[الشوررى: 40]. ودون بغي ولا تعد تشفيًا ونكالاً. ثم جزاء العدوان بعدوان أقسى منه غرورًا وعجبًا ورياءً. ثلاثة لا رابع لها. تبيع الأنبياء موقفه الأول وهو الذي يبوئ صاحبه مقام الإحسان أي مقام المقربين. وتبيع المقتصدين موقفه الثاني وهو مقام أصحاب اليمين. أما تبيع هواه فلن يفدى يوم القيامة بملء الأرض ذهبًا أن نال ممن إعتدى عليه بأكثر مما إعتدى عليه قطميرًا.

ورد في الحديث الصحيح من قصة بني إسرائيل أن رجلا ما وجد له الملائكة ـ من بعد إيمانه ـ شيئًا سوى أنه يتجاوز عن الناس فدخل بذلك الجنة.إنما سمى نفسه الرحمان سبحانه والحليم ـ وأكثر أسمائه وصفاته في إتجاه الرحمة والحلم وليست في الإتجاه المضاد ـ لعل عباده يتمثلون رحمته قدر الإمكان و(الراحمون يرحمهم الله يوم القيامة) و (من لا يرحم لا يُرحم).

هذا الذي أخطه الآن كلام نظري لا قيمة له أبدًا البتة. إنما قيمته في تمثله مني ومن قارئه حتى يكون لنا ذلك سجية أو إمتحانًا عسيرًا نعالجه في كل مرة بتسديده بما يرضيه عنا. ليس هناك أعسر على كل آدمي ـ حتى الأنبياء أنفسهم لولا أنهم معصومون لأجل البلاغ والإتساء ـ من النجاح في إمتحان كظم الغيظ إذ الجرعة

الواحدة الصغيرة منه أمرّ من الحنظل وأشد إيلامًا من السم الزعاف ولسكراتها فحيح مثل فحيح سكرات الموت. نحن اليوم نعبر عن ذلك بكلمة سيئة جاهلية فنقول هذا كبرئائي وهي مجروحة إلى آخر مما يزين لنا الشيطان الذي لم نؤمر بإتخاذ عدو سواه. تلك هي العقبة الكأداء حقًا وليس هناك عقبة أكأد من تلك الجرعة من غيظ مكظوم. ويشتد عسرها عندما نكون في ملإ من الناس ويزداد شدة عندما يكون الظالم مجهولا مغمورًا أو مدحورًا بين الناس ويكون المظلوم مرموقًا فيهم بعلم أو مال أو بسلطان وجاه أو بحسب أو نسب. كل ذلك جمعه عليه السلام فهو خيار من خيار من خيار وساغ محيطات هادرة من الغيظ فكانت في فؤاده أحلى من العسل المصفى.

الكظم لغة ضد السفاهة فالكظم ينسب للقارورة أو لأي وعاء به يضبط فلا يندلق ما فيه والسفاهة هي لين ذلك الوكاء الضابط وهوانه فسرعان ما يفسق ويجري ما كان يحفظه جريان فؤاد مستطلق مبطون. كما يتبين لي سياقًا أن مما يجعل المرء للغيظ كظاما المسارعة إلى المغفرة بالإنفاق في السراء والضراء والمستغفرين في إثر كل فاحشة أو ظلم. ولكن يظل كظم الغيظ أعسر عبادة طرًا مطلقًا ولذا يكون الجزاء عليها إحسانًا و ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾[الرحمن: 60]. روى لي ذات مرة في دنهاخ الهولندية ـ 1995 ـ رجل عاش الأمر بلحمه ودمه. قال ذهبت كعادتي من سوريا إلى الخليج أجمع أموالا لمدرسة قرآنية ولما وقفت أمام تاجر ثري معروف أقدم له ملفي وأسأله أفرغ في صفحة وجهي جرعة كبيرة من نخامته تأففًا مني وطردًا. قال فمسحتها بيدي بلطف مبتسمًا وقلت له : هذا قدري لديك وأعرف أنه ليس لي قدر لدى الناس ولكن ما هو قدر الله لديك؟ قال : فما كان منه سوى أن مدني بحزمة في يده من المال كبيرة وسيقة وهو يعتذر بلسان حاله. مذ روى لي ذلك الصديق هذا إنحفرت في ذاكرتي فما فارقتني والله. ولكني لست للغيظ كظاما ولا من العافين والناس من حولي يكظمون غيظهم من سيئاتي وعفوهم عني جزيل. اللهم أعف عنهم بما عفوا عني فإنك عفو تحب العفو يا عفو يا كريم.

34

القرآن سفر سنن وكتاب قوانين..

كلمة السنة وردت مرات في كتاب السنن ـ القرآن الكريم ـ وما وردت ولو مرة واحدة بالمعنى الشائع عندنا بل وردت دوما بمعنى الطريق والسبيل والمنهاج والشرعة والصراط أي بمعناها الجذري (س ن ن) أي نهج نهجا فيه علامات.

هو كتاب النهضة والتقدم وفيه قوانينها.

نحن نظن أنه كتاب حلال وحرام فحسب أو كتاب دين بالمعنى الكنسي المسيحي فحسبه منا الصلاة وغيرها. هو كتاب كل واحد منا وليس هو كتابنا المشترك بيننا جميعًا به نرسم نهضتنا كما فعل الأصحاب الكرام. نعامله على أنه إنجيل يهدينا فرادى أما الهداية الجماعية إلى مواطن القيادة والتأثير لإصلاح حالنا فلا تكاد تظفر لها بركز.

قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض ..

أمرنا مرات بالسير في الأرض سيرين : سيرًا بالأقدام سياحة للتدبر والتأمل والتفكر والتذكر لننهل إيمانًا لا يرتد وعقيدة ذات شغاف ولود لا ينضب. وسيرًا بالقلوب والعقول قراءة في التاريخ وحركته التي شغلت الوحي كثيرًا. فهل سرنا؟ وكيف كان سيرنا؟ أكبر سنة حفل بها القرآن الكريم هي سنة الإنجاء والإهلاك للذين عمروا الأرض من قبلنا إذ بيّن لنا في زهاء أربعين قصة أن من سار على نهجه ـ ولو بالمعاصي إذ لا ينجو منها ناج ـ نجا ومن تنكب نهجه أخذه أخذ عزيز مقتدر ولا تشفع له من بعد ذلك طاعات ممزقة مقطعة هنا أو هناك. العبرة بالمنهاج أي بالإتجاه فما هو إتجاهك يا عبد الله؟

وسنن أخرى حرية بأسفار من البيان.

1. سنة الزوجية أو الإزدواج فهي أقوى سنة و لا حظ من حسن فهم لمن جهل هذه السنة.

ومن الموافقات العجيبة أنه لم يتحدث عن سنة الزوجية بلسان المقال إلا في موضعين تناسبًا بين مبناها ومعناها ﴿ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ ﴾[الذاريات: 49]. حسن فقه هذه السنة يقود إلى أحسن توحيد خالص من شوائب الشرك كلها عفوا من كل لوثات الوثنية والصنمية.

2. سنة التدافع ﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ ﴾[البقرة: 251] .و﴿ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ ﴾[الحج: 40]. أنت ومن معك مدفوعون شئتم أم أبيتم بقدره فهلا دفعت بنفسك في يم المعركة لتكون مختارًا لا مكرهًا كما تسير الكواكب لا مزية لها في حراك؟

3. سنة الإصطفاء والإستبدال ﴿ وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ﴾[التوبة: 39]. الإستبدال في القديم يتمّ بموت المستبدل منهم. أما في الدين الجديد فيستبدل الناس بأجيال تخلف أجيالًا قعودًا أو بإنقاص الأرض من أطرافها أي بإندحار حضارات كانت تعمر أطرافها ليصطفى الأخيار.

4. سنة التعدد أوقانون الإختلاف والتنوع ﴿ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ﴾[فاطر]. هي سنة فرع عن سنة الزوجية الأقوى. أحيانًا يستقل الفرع بالذكر لقيمته وأثره. إن قراءة متأنية في شبكة السنن تفضي إلى أن سنتي الإزدواج والإختلاف يثمران سنة التدافع وهذا بدوره يثمر سنة الإصطفاء والإنتخاب. شبكة السنن في الكون والخلق مثل خلية نحل عاملة تتكافل لصنع الحياة والحركة بإذن واهب الحياة سبحانه.

5. سنة الإبتلاء وهي أظهر سنة لكثرة إنبثاثها في الوحي. ﴿ لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ ﴾[آل عمران: 186]. إبتلاء بالخير والشر فتنة.قال المحققون أن شكر النعمة أعسر من الصبر على النقمة.

6. سنن النهضة والإندحار وهي تخصص إبن خلدون أبي التاريخ السياسي وفقه

العمران. وهي من أكثر السنن معالجة في الوحي لشدة الحاجة إليها من لدن الأمم والحضارات.

7. سنن التغيير والإصلاح و الفصل فيها هو ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]. أي تغيير في أي إتجاه صالح أو طالح لا يكون إلا من بعد معالجة الحقل النفسي للإنسان فإن تبدلت النفس تبدل الوضع وإن تأبت عن التبدل تأبى الوضع من حولها كذلك.

بيان غرضي وكلمات أخر.

1. فقه السنن مظنة التقوى لقوله تعقيبًا على سنة التعدد ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: 28].

2. السنن قوانين أودعها سبحانه كونه العابد كرها وخلقه العابد طوعًا فهي مثل الغرائز والجبلات والفطر أي من أحسن فقهها فطلبها بلا طغيان ولا إخسار إنسجم مع حركة الكون العابد فأفلح وفاز ومن جهلها أو تجاهلها أو طلبها بإفراط أو تفريط خسر وهلك.

3. غرضي هو التحريض على تغذية علوم الإجتماع المعاصرة ـ العلوم الإنسانية ـ بفقه السنن كونية وخلقية مما بث في الوحي فإذا كان مقصد تلك العلوم هو بيان الإنسان للإنسان لمساعدته على حسن إدارة رسالته فإن الباب الرئيس لحسن فقه الإنسان إنما هو باب السنن المودعة في كونه وفي خلقه وفي حركته.

4. وغرض آخر أحرض به على نحت تفسير خاص بالسنن المذكورة في القرآن وقد خطا الشيخ الغزالي عليه الرحمة في ذلك خطوات في تفسيره الموضوعي الذي وافته المنية قبل إكماله وكذا في كتابه الذي يكاد يتخصص لذلك أي كيف نتعامل مع القرآن الكريم. ولكن ظل هذا النهج من التفسير والبيان يتيمًا وما أكثر مواطن اليتم فينا.

35

وما كان لنبي أن يغل ..

الغلول هو أخذ شيء من المال العام بدون إذن. جيء ذات مرة إليه عليه السلام في أعقاب معركة بقتيل ظل الصحابة يثنون عليه فرحين بنيله الشهادة ففاجأهم عليه السلام بقوله « هو في النار ». قالوا : لم؟ قال « في شملة غلها ». الشملة هي طرف الثوب الذي يشتمل به ومن يقرأ الفقه يجد نهيًا عن الإشتمال أو إشتمال الصماء. قطعة ثوب لا قيمة لها أخذها صحابي مجاهد بدون إذن من الأمة أو مؤسستها يومها أي هو عليه السلام فجرّته إلى النار. مثل هذه الحوادث من المفترض أن يزداد بها وعينا بالإسلام وشريعته وغيرته سبحانه على حقوق الناس حتى ما كان ماليا منها. بل ما كان منها ماليا بالمقام الأول. شملة لو قسمت على عشرات المقاتلين يومها ما ظفر كل واحد منها بخيط يربط به خفه أو يرقع به ثوبه. إنما العبرة بالقيمة أي قيمة حفظ المال العام. ولذلك جاء النهي هنا ـ في سورة آل عمران تعقيبًا على واقعة أحد ـ منسوبًا إليه هو عليه السلام. هل تفهم أنه يمكن أن يغل عليه السلام شيئًا من المال العام ليستأثر به لنفسه؟ طبعا لا. فما المقصود إذن؟ المقصود هو أنه يحرم على أي كان أن يستأثر ولو بحبة خردل من مال عام لنفسه من دون إذن ورضى. ولو كان ذلك ليحلّ لحلّ لنبي من مثل محمد عليه السلام. وإذا حرم شيء عليه هو عليه السلام فالرسالة عنوانها : ذاك حرام مضاعف وهو جريمة شنيعة. ولم يتوقف الوحي عند ذاك بل قال ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[آل عمران: 161]. أي يفضح على رؤوس الخلائق يوم القيامة لتكون المصيبة أنكى. ولذلك قال عليه السلام « ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة فيقال هذه غدرة فلان إبن فلان ». وليس كفضيحة المحشر فضيحة. وأي فضيحة أشنع على إمرئ عندما تتقدم إليه الأمة جمعاء قاطبة يومها كل واحد منهم يطالب بحقه في تلك الشملة التي لم تكن تساوي في الدنيا جناح بعوضة؟ إذا كانت الأم يومها لا تظفر من فلذة كبدها بعشر معشار حسنة تتزحزح بها عن النار وتدخل الجنة فالخطب أجلّ مما نتصور.

حرمة المال العام.

كلما درست شريعة الإسلام إزددت يقينا أنه ليس أغضب لله سبحانه من العدوان على الإنسان سواء في عرضه أو ماله أو دمه. لم ندرك بعد قيمة الإنسان عند رب الإنسان. مازلنا نظن أن مثل هذا الخطاب هو خطاب السياسيين الذين يريدون أصوات الناخبين أما علاقة هذا بالدين فهي علاقة أوهى من خيط العنكبوت. من غرس فينا مثل هذه العقيدة الفاسدة المرذولة؟ تراكمات تاريخية أشد فسادًا.

وعندما يتحدث أحد مبرزًا أن كثيرًا من البلاد الغربية ـ التي هي كافرة ـ هي بلاد قوية آمنة مطمئنة تعيش رغد الحياة يتهم بأنه منبهر أو ربما هو غربي الهوى. يريدون منا أن نثني على الفساد الذي ينخر بلداننا عدوانا على المال العام وسرقات لا تحصى وإرتشاءات ومحسوبيات حتى إن الصلحاء عندما ينتخبون لا يقوون على فتح ملفات الفساد المالي تقديرًا منهم أن القطط السمينة ستنتقم وتحرك أذنابها في الشرق والغرب ومن ذا تنشأ فتنة وربما يفضي ذلك إلى تدحرج الثورة أو حركة الإصلاح إلى الوراء أو غير ذلك من التقديرات التي تجعلهم يتأخرون عن فتح ملف واحد من ملفات الفساد. يريدون منا أن نثني على ذلك أو يريدون منا عدم الإشادة بالحكمة والخير حتى لو نضح من وطاب غربي كافر. عندما يكون الكافر أمينا في الأرض فأنا أولى بإلتقاط الحكمة منه. وعندما يكون (المسلم) فاسدا أكالا للمال العام نهابا سلابا فإن الحكمة هي مقاومته.

وقف ذات يوم من أيام 1995 على ما أذكر (هلموت كول) المستشار الألماني الإتحادي الأسبق الذي حكم البلاد لمدة عقد ونصف ونيف فتوحد شرقها مع غربها في عهده .. وقف ذات يوم أمام المحكمة ـ قادمًا بسيارته الخاصة من مكتبه الرسمي ـ متهما بالتحايل بما قدره خمسة ماركات فحسب ـ أجل. والله خمس ماركات فحسب أي أقل من عشرة دنانير تونسية ـ في قضية متعلقة بدفع الأداءات المترتبة عليه. أجل. لبى الدعوة الكتابية وخرج من مكتبه ومثل أمام القاضي وخضع للإستجواب ولما تبين أنه بريء أطلق سراحه وعاد إلى مكتبه.

وقبل ذلك وتحديدًا في عام 1986 كتب الفقير إلى ربه مقالا في الصفحة الأولى من الجريدة الأسبوعية (الأيام) في تلك الأيام بعنوان سيارة إدارية تحمل الخمور يوميًا إلى مكتب المتفقد الجهوي للشغل بمدنين ووثقت فيه كل شيء إذ كنت يومها موظفا هناك وخضعنا جميعا إلى مساءلات رسمية بعضها من لدن الوزارة وبعضها من لدن الأمن ثم إنتهى كل شيء وطوي الملف ولم يبرز من جديد إلا يوم إعتقلت (الثلاثاء 24 مارس 1987) من لدن مصلحة الأبحاث الأمنية إذ خصصت لي وجبة دسمة من التعذيب البدني لزهاء نصف ساعة بسبب أني صاحب ذلك المقال الذي فضح مشهدًا من مشاهد الفساد الإداري.

عجب لا ينقضي..

عجبي لا ينقضي من أنفسنا إذ نجد في كتابنا عشرات المواضع التي تنظم حياتنا الجماعية ومنها حياتنا السياسية والمالية والتنظيمية وغير ذلك ـ الغلول مثالا ـ ونقرأ ذلك ونصدق الله في قوله ونشفع المصحف بقبلة حارة ثم ينتهي كل شيء. سؤالي الذي لم أجد له جوابًا : هل فهمنا ما قرأناه أم لا ؟ هل تألمنا من بعد ما فهمنا أم لا ؟ هل حدثنا أنفسنا بفعل شيء لتغيير هذا الوضع الفاسد أم لا؟ هل من مجيب يريحني من عبء السؤال؟

36

قل هو من عند أنفسكم أو تفسير الهزيمة ..

هذا الكتاب سفر جمع كل شيء ومن ذلك قوانين الغلبة وسنن الهزيمة ولكنا قوم نقرأ القرآن بحثًا عن البركة فحسب وليس بحثا عن منهاج يقود حياتنا ويحل مشكلاتنا ويفسر لنا فقه الحياة. ورثنا فكرًا إنحطاطيا عنوانه : القرآن كتاب بركة فحسب وربما يذهب سموم العقارب أو لسعات الحيات أو يهب لمن يشاء الذكور ذكورًا ويذهب العقم

عمن يريد ولدًا. وهو في الأعم الأغلب للموتى من بعد موتهم تعاويذ نتلوها عليهم. وما شأنه بالتقدم والنهضة والتحضر والترقي والسؤدد والغلبة والهزيمة والسياسة والحكم والدولة والمال العام والعلاقات الخارجية والأنظمة الدستورية. نجحت العالمانية فينا فالتقطت منا آلافا مؤلفة إذ جعلت نظرتنا لدستورنا الأول والأعظم نظرة كنسية بئيسة.

لما وضعت معركة أحد أوزارها دار بين الصحابة الكرام عليهم الرضوان جميعًا سؤال عنوانه : أنّى لهذه الهزيمة العسكرية المدوية بنا؟ ألسنا مسلمين مؤمنين؟ أليس بيننا المؤيد بالوحي المعصوم عليه السلام؟ أليست قريشا كافرة مشركة معتدية؟ كيف توصل المشركون إليه عليه السلام ليكسروا رباعيته ويخدشوا وجهه حتى يسيل بالدماء؟ هي أسئلة مشروعة لأنها أول هزيمة عسكرية ثقيلة من بعد أول إنتصار مدوّ في بدر. وما أثقل الهزيمة من بعد النصر. وكعادة الوحي لم يتردد في النزول مصححا الوضع ومجيبًا عن السؤال بقوله ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾[آل عمران: 165].

قل هو من عند أنفسكم. عنوان حياة جديدة إسمها : الإنسان مسؤول على أفعاله وتصرفاته وإعداداته فلا ينصر لأنه مؤمن فحسب ولا يهزم لأنه كافر فحسب. قل هو من عند أنفسكم: عنوان لعقيدة القضاء والقدر بمعنى أن الإنسان الذي يريد النصر ويعمل للنصر مستجمعًا شروطه ينصره الله سبحانه إن شاء. أما الذي يريد نصرًا ولا يعمل له أو يتهاون في العمل له إستجماعًا لشروطه المقدور عليها فلا ينصر. قل هو من عند أنفسكم : عنوان لمعركة الحياة الجديدة بمفردات مفتاحية منها أن الإنسان سبب من الأسباب وليس هو ضحية الأسباب وهو سنة من السنن وليس هو ضحية السنن وهو قدر من أقدار الرحمان سبحانه وليس هو ريشة في مهب ريح لا فعل له ولا مسؤولية له ولا إرادة له.

قل هو من عند أنفسكم أو : عصيان النبوة يثمر الهزيمة

لا بد من الجمع بين السياق الخاص وبين المعنى العام. السياق الخاص عنوانه أن المسلمين إنهزموا في أحد من بعد ما كانوا منتصرين بسبب مخالفتهم لأمر نبيهم ـ أي مخالفة بعض رجال جبل الرماة ـ . إذ صدرت إليهم الأوامر القيادية العسكرية واضحة

صريحة ألاّ تبرحوا مكانكم حتى لو رأيتمونا بأمّ أعينكم نحصد الأفياء والغنائم. فلما رأوا النصر بأمّ أعينهم أضافوا إلى ذلك العصيان عصيانا آخر إذ عصوا أميرهم هناك. فانقسموا ونزل بعضهم تاركًا المكان شاغرا لأبي سفيان عليه الرضوان الذي ظل يبحث عن ثغرة في جدار محمد عليه السلام في الأرض فوهبت له هدية من السماء على طبق من فضة وورد. لذلك لمّا تساءل الصحابة كيف نهزم جاء الجواب ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾. أي لم تهزموا لأن الأقدار شاءت هزيمتكم نكاية بكم ولا لأن العدو أقوى منكم. ولكن هزمتهم لأنكم عصيتم.وهو عصيان فرضتموه على أنفسكم. بل هو عصيان ثلة صغيرة منكم جنى عليكم جميعا. نحن في سفينة لا تحتمل تصرف أي واحد منا بحسب ما يريد هو.

اليوم كذلك يقال لنا : قل هو من عند أنفسكم.

قل هو من عند أنفسكم : درس قاس ولكنه خصيب ثري لنا نحن اليوم كذلك. ليس هو قصص مضى وإنقضى بل هي عظة حية ماضية مطردة لا تتخلف. هزيمتنا اليوم هي تفرق وتمزق وهوان بل وهن بتعبيره هو عليه السلام. هزيمتنا اليوم أرض محتلة ومديونية وإنقسام وهوية فيها دخن وأفن وفردية وأثرة وأنانية ولهث خلف التكاثر الملهي وجهل وأمية بلغت حد 43 بالمائة ونحن أمة عنوانها (إقرأ). هزيمتنا هي أن الحديد الذي أمرنا بإعداده وصناعته يفترسنا بأيدي صنّاعه الغربيين وهو في كتابنا فريضة (سورة الحديد). هزيمتنا هي أن لنا سورة إسمها (الصف) وصفنا ألف صف وصف. وكل صف فينا يدعي إمارة المؤمنين. هزيمتنا هي أن لنا سورة إسمها (الشورى) ونحن طرائد ضعيفة منهكة تفترسها الدكتاتوريات والإستبداد والفردية وتسام الخسف. ومساجين الرأي والفكر والمعارضة السياسية الإصلاحية لا يخلو منهم سجن على إمتداد وطننا العربي الكبير. هزيمتنا هي أن الإنتخاب عندنا إما بدعة وحرام بلسان عبيد السلف الماضي وببغاواته أو هو مسرحية فجة لنظل سقط متاع نورث كما يورث متاع الهالك. ونحن هلكى على عتبات السلطان. هزيمتنا هي أننا نقترض من البنك الدولي غصبًا عنا وبنسب ربوية عالية لنستثمر تلك القروض فيما يمليه علينا ذلك البنك وليس فيما يعود علينا نحن بالفائدة ونظل لعقود طويلات منهكين

من تسديد فوائد القروض الربوية وليس أصول تلك القروض. وبذا نظل في حالة من الإستقلال المغشوش وباطنه إحتلال مالي وإقتصادي وسياسي لا مكان فيه لسيادة ولا لإستقلال قرار.

هو الدرس نفسه : قل هو من عند أنفسكم.

أجل. كل ذلك هو من عند أنفسنا نحن أو بسبب ما أسماه مالك بن نبي القابلية للإستعمار. إذ يمكن أن يتحرر كل مسترق إلا مسترقًا واحدًا يعتقد أن الحرية كفر أو مفسدة فهو لا يطيق سوى أن يكون عبدًا نكدًا يباع ويشترى في أسواق النخاسة ولسان الحال يقول : لا ترحل لطلب المعالي وأقعد فأنت الطاعم الكاسي.

قل هو من عند أنفسكم :

1. قانون يلغي نظرية المؤامرة أو يحدّ من أثرها على الأقل.
2. قانون يلغي نظرية الجبر القديمة/الجديدة ويصحح إعتقادنا في القضاء القدر.
3. قانون يحقق كرامة الإنسان بتحقيق مسؤوليته على أفعاله.

37

كل نفس ذائقة الموت . .

قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ﴾[آل عمران: 185]. ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ ﴾[الأنبياء: 35]. ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[العنكبوت: 57].

الموت يقين والأحياء نيام والموتى أيقاظ

سمي الموت يقينًا ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[الحجر: 99]. لأن الميت يكشف عنه

حجاب الغيب ليرى الملك ومقعده وبعض مشاهد الآخرة في حياة برزخية فاصلة تحيا فيها الروح منفصلة عن جسدها الذي وعاها قبل الموت. ثلاث حيوات يحياها الإنسان. واحدة للعمل ووسطى للتربص وأخرى للجزاء. اليقين الذي يغشانا ساعة السكرات هو بداية اليقظة (الناس نيام فإذا ماتوا إستيقظوا). في الدنيا نحيا كما يحيا النائم مع مناماته فما إن يبعث من (موتته الصغرى) أي نومه حتى يعانق اليقين. مصداق ذلك كثير منه قوله ﴿ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾[ق: 22]. الغيب الذي نؤمن به جزء منه حاضر مشهود سوى أن بصرنا قدّ بطريقة تحجبه عن ذاك فلا نرى الأرض إلا مهدًا مبسوطًا وهي مدحاة مكورة عندما ننظر إليها من خارج قطرها الفضائي.

عذاب القبر بين مادية غربية جوفاء ومادية شرقية عرجاء.

من عجائب ما قرأت في الفضاء الإفتراضي أن مجموعة من (المتدينين) أرادوا إثبات عذاب القبر فحفروا عن قبر ووصلوه بآلة تصوير ثم إكتشفوا بالصوت والصورة ما يعانيه صاحب القبر من عذاب يذهب بالأفئدة. وآخرون إلتقطوا حيات في القبور أو حولها وشعوذات كذوبة تجعلك تشمئز من هذا التدين الأخرق. هؤلاء إسرائيليو الهوى فلا يؤمنون بالغيب إلا كما يؤمن اليهود في قصة البقرة مثلا أي لا بد من آية مادية تظل لها الأعناق خاضعة. هذا لا يسمى إيمانا بالغيب بل هو إيمان بالشهادة وصاحبه أدنى إيمانا دون ريب. عذاب القبر حقّ لقوله عن آل فرعون ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ [غافر: 46]. فضلا عن حديث صحيح. ولكن عذاب القبر إنما نسب إلى القبر لغلبة الأمر كما تقول العرب أي أنه في العادة يقبر الميت. ولكن من مات فلم يقبر وقد حقّ عليه عذاب القبر أفلا يعذب؟ أين يعذب وقد أحرق مثلا فلم يبق منه شيء؟ أو إلتهمته الحيتان؟ عذاب القبر عذاب روحي لا حسي. حياة البرزخ كلها روحية شعورية لا حسية مادية مثلها مثل الرؤى والأحلام بالتمام والكمال. هذه جثة فرعون الذي هو الآن وآله يعرضون على النار صباح مساء. أليست هي أمام كل من يريد الفرجة في مصر بل نقلت ذات مرة إلى باريس. ألم يفحصها الأطباء هناك ليكتشفوا أن صاحب هذه الجثة

مات غريقًا؟ هل سمعوا ألما أو شعروا بعذاب؟ جرّب هذا بنفسك إن شئت. أما تستحي كذبًا على الله؟ ألا تلجم لسانك وقلمك أن يتحدث عن الغيب إلا بإذن صحيح صريح من القرآن أو من الحديث؟ ما الفرق بينكم وبين المادية الغربية؟ ألستم أصحاب إيمان مادي لا يؤمن إلا بالخوارق والمعجزات والكرامات؟ لو كنتم تؤمنون بالغيب حقًا كما يرضيه سبحانه لقلتم : سمعنا وأطعنا وحسب. هل تتبّع الصحابة مثل هذا؟

أنت مطالب بذكر الموت لمقاصد عظمى فحسب.

لم نتفصى مما أمرنا به لنرهق أنفسنا خلف غيب لم نؤمر بالكشف عنه ولا سبيل لنا إلى ذلك؟ أليس هو القائل « أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَادِمِ اللَّذَّاتِ »؟ أليس هو القائل « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكركم الآخرة »؟. عندما سئل عن الساعة عليه السلام بم أجاب؟ ألم يقل « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل؟ ». ألم يقل « ماذا أعددت لها؟ ». ألم يقل « تبدأ ساعتك يوم موتك؟». ألم يقل « إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة؟». يعني أنه يتلقى الأسئلة فيردها إلى أصحابها ملأى إيجابية ليشغل الناس بما هو أجدى وأنفع في قضيتي الموت والبعث ولا يدعهم أسرى الخزعبلات والشعوذات. إذا كنت مدعوًا في الدنيا إلى المثول أمام أي قاض أو محكمة بصفتك شريكًا في قضية أو متهما هل تسأل عن اللون الذي زينت به قاعة المحكمة؟ أو عن لون عباءة القاضي؟ أو عن سيارته؟ لم لا يسأل أي واحد منا عن مثل ذلك في الدنيا؟ لأننا نعرف بالسليقة والفطرة أنها أسئلة الأطفال الصغار التي لا تقدم ولا تؤخر. ولكن نسأل عن الوكلاء الشطّار. نسأل عن تفاصيل القضية. نسأل عمّا يمكن أن يخلصنا منها. لم؟ لأننا نأخذ الأمر بقوة وجد لا لهو فيه. لو أخذنا قضية الآخرة والموت والحساب بالجد نفسه والقوة ذاتها لما سألنا عن ميعاد يوم القيامة ولا عمّا يقع لنا بعد الموت أي في القبر. هل يسأل التلميذ أو الطالب عن ربطة عنق الأستاذ ما لونها؟ أو عن جدار القاعة بم بني؟ وعندما يكون إيماننا بالبعث إيمانًا مهزوزًا ـ دعك من الدعاوى الكثيرة التي لا يعجز عنها لسان ـ فإنا نخلص إلى مثل تلك الأسئلة الفارغة التي لا تقدم ولا تؤخر. أنّى لنا أن نكون في الدنيا وما يتصل بها إيجابيين مقاصديين عمليين أما عندما يتعلق الأمر بالآخرة فإنا نفقد صوابنا لنرتد صبيانا تلهى

بأكوام التراب. الذين يشغلون أنفسهم بمثل ذاك لا يؤمل منهم أن يعمروا الدنيا لأن عمارة الدنيا تتطلب تفرغا وتجردا عن مثل ذلك اللهو.

بديلك عن الفراغ واللهو هو ثلاثة مشاريع إستثمارية عظمى.

1. إما أن تنكح فترزق بولد (ذكر أو أنثى) صالح يدعو لك من بعد موتك إذ يحتاج الميت من الحي الدعاء والإستغفار والصدقة وقضاء الدين ولا يحتاج الحي من الميت أي شيء.
2. وإما أن أن تعمر الدنيا بالعمل لتكسب مالا فتجعله صدقة جارية تظل تدر عليك الحسنات وأنت في قبرك حتى يوم القيامة أي جراية تقاعد في حسابك لا تنفد أبدًا.
3. وإما أن تجاهد لطلب العلم ـ أي علم ديني أو دنيوي ـ مما ينتفع به الناس من بعدك.

قال عليه السلام: « إذا مات إبن آدم إنقطع عمله إلا من ثلاث : ولد صالح يدعو له أو صدقة جارية أو علم بثه في الصدور ». تلك هي المشاريع الإستثمارية الكبرى التي هي اليوم لك متاحة وهي خير لك من السؤال عن الساعة وعن أحوال القبر وكل غيب ليس لنا فيه شيء.

38

إذا كنت تاجرًا فعليك بالصبر.

موضوع التجارة في الدين موضوع يسرني ويبهجني ولا أسأم منه وعظا وبيانًا. أعجبني جدا تشبيه الدين بالتجارة في القرآن. المتدين تاجر أو لا يكون. كلاهما يحتاج لرساميل يبدأ بها عمله وكلاهما يحتاج إلى مصلحة حسابات يمسكها ليعرف مرابيحه وخساراته وكلاهما يتجنب الإفلاس لأن إفلاس التاجر في الدنيا يقوده إلى السجن والحجر عليه والمفلس في الدين يقاد إلى النار حتى لو جاء بإيمان وعبادة بسبب عدوانه على حقوق الناس. إنفعلت بتمثيل الدين بالتجارة ثم بحثت عن وجه آخر مشترك فألفيت أن الدين كالتجارة فيه أعمال طيبة سعرها عال وتطير بصاحبها إلى الفوز والفلاح

طيرانا فهي أولى بالجني. وأعمال خبيثة وزرها باهظ وتهوي بصاحبها إلى قاع النار هويا فهي أولى بالتجنب. فمن تدين بعقلية تاجر فاز ومن تدين بعقلية غير تجارية ما جنى من الفوز حظًا.

الصبر سلعة التاجر

لن أنبسط هنا في أغلى بضاعة تجارية مع الله لأجل توقي الإسهاب. فمن ذلك (الإيمان النافع المتجدد لا المثلج. و الخلق الطيب. والعبادة. وحياة القلب ذكرًا وشكرًا وصبرًا ويقينًا وتوكلا وأملا ورجاء وحسن ظن بالله وبالناس معًا. والدعوة إلى الخير. والجهاد بالمال وبالنفس وبالفكر. والإجتهاد. والحدب على الأسرة وتوقي نارها سيما العقوق والقطع والأذى..) وما عدا ذلك عمل عادي سعره (الحسنة بعشر أمثالها) فحسب. ولكن الإنفاق مثلا ﴿سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ﴾[البقرة: 261]. ومنها الجابّة لكل ما قبلها « الإسلام من بعد كفر والهجرة والحج والتوبة النصوح الصدوق ». ذلك هو معنى التجارة في الدين.

دعنا مع واحد منها أي الصبر الذي هو في أعلى القمة إذ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10]. وهو صبر ثلاثي : صبر على الطاعة له جزاؤه وصبر على المعصية له ثوابه كذلك ولكن أعظم أجزية الصبر هو الصبر على المصيبة بما يجعل اللسان لاهجا بالترجيع أي إنا لله وإنا إليه راجعون ولا يلهج اللسان بذلك لهجا عند الصدمة الأولى إلا من بعد إمتلاء القلب باليقين والأمل. فاللسان بريد القلب كما قالت العرب.

الصبر ثلاثة أنواع.

1. الصبر الفردي العادي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾[آل عمران: 200]. الصبر لغة الحبس وهو قتل الشهوة في النفس قتلا فلا تبرز حتى لو طارت بها الوساوس داخليا. إذ العبرة في اللسان هنا وفي العمل. الصبر هو حبس الشهوة أن تنطلق في إتجاه لا يرضيه سبحانه. الصبر هو ثمرة العقل وضده أي الفسق هو ثمرة الشهوة والهوى وهما في حرب ضروس أبدًا.

2. الصبر الجماعي أو الصبر الدائم الذي لا ينقطع ويسمى مصابرة ﴿وَصَابِرُواْ﴾[آل عمران: 200]. على وزن المفاعلة والمشاركة فهو صبر من الجماعة لأن الإسلام منهج الجماعة ولو صبر بعضنا وفسق الآخرون خسرنا جميعا في الدنيا. وخسارة الدنيا مؤلمة إذ قال ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾([الصف: 13] . والمصابرة هي كذلك لزوم الصبر من الفرد أغلب الحياة ولا يأمن العاقل على نفسه إنفلاتا أبدا والعبرة بالأعم الأغلب أي بحصيلة الميزان النهائي كما هو عند التاجر فقد يخسر مائة صفقة ثم يربح صفقة واحدة تعوضه كل شيء. الصبر مرة ومائة مرة مقدور عليه ولكن لزومه ليكون سجية ومصابرة أمر لا يخلو من مجاهدة ومقاومة.

3. الصبر الفردي المغلظ المقترن بلزوم دائم لا يفتر ولا يسأم وهو الإصطبار. إصطبر فعل ثلاثي مزيد بحرفين والطاء حرف زيادة تفيد التغليظ والتضخيم. ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾[طه: 132] . كعادة القرآن دوما يجعلك مترددا بين أمرين لتجمعهما لا لتفرقهما. على من يعود ضمير ﴿عَلَيْهَا﴾ هنا؟ هل تصطبر على أهلك التاركة للصلاة بالكلية أو بالجزئية ومن الأهل أهل الدار كلهم من ولد وغيره.أم تصطبر على الصلاة نفسها لتكون قدوة لا آمرًا بلسانك فحسب؟ أهل الفهم الموضوعي ـ لا الموضعي ـ يؤثرون فهما يجعل الإصطبار فريضة عليهما معا. إصطبر على أهلك عملا بإستراتيجية الدعوة ﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[النحل: 125] بالحكمة والموعظة الحسنة) وإصطبر على صلاتك ليرى أهلك بأم العين أنك تدعو بلسان حالك قبل لسان مقالك وعندما يروا فيك ذلك (محافظة على الصلاة ودعوة إليها بلسان لين هين وأنت معهم تؤاكلهم وتشاربهم وتنادمهم وتجالسهم وتضاجعهم وتضاحكهم سنين وعقودًا) يهديهم ربهم سبحانه بك كما هداك أنت بغيرك ويكون لك أجر الدعوة وأجر الصبر معًا.

النبي عليه السلام يرسم سبيل الصبر.

قال عليه السلام : « ومن يتصبر يصبره الله ». الصبر أمرّ من الحنظل وجرعة منه صغيرة كفيلة بتكدير محيطات هادرة ولكن ثمرته عسل مصفى. وهو مكروه كالقتال

﴿كُرۡهٞ لَّكُمۡۖ﴾[البقرة: 216]. لأنه قتال النفس و من يحمل نفسه على الصبر يصبره الله. ولذا أستأهل أن يكون الثواب عليه ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[البقرة: 212]. جزاءً وفاقًا.

كيف يكون الله صبورا ؟

لله أسماء وصفات علينا تمثلها قدر الإمكان عدا ما يختص به لوحده من مثل (الرحمان والمتكبر..). الله صبور معناها أنه يصبر على عبده ـ سيما الظالم والكافر والمؤمن شديد الفسق ـ فيرزقه رغد عيش على كفره ويمدّ له في أجله وعافيته عساه يفيئ إليه. ولذلك قال عليه السلام : « لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء ».

من عرف الحياة وتدبرها أدرك بيسر أنها معركة قاسية سلاحها الصبر ولا شيء غير الصبر. صبر العاملين الآملين وليس صبر القاعدين القانطين.

39

تقوى الأرحام من تقوى الله..

باشرت اليوم سورة النساء. ثلاث دعوات للتقوى في أول آية بها (إتقوا ربكم. وإتقوا الله. والأرحام). الأرحام : مفعول به ثاني معطوف ومنصوب بالفتحة الظاهرة. وهو جمع رحم. والمعنى : إتقوا الله وإتقوا الأرحام. ولم تنسب الأرحام لأنها معلومة إذ لكل مخلوق آدمي رحمه الذي خرج منه. سئل صحابي عن التقوى فقال : هل مشيت يوما في طريق فيه شوك وأذى؟ قال : بلى. قال : ما فعلت؟ قال : شمّرت على ساقيّ أن ينالني من ذلكم من شيء. قال : تلك هي التقوى. كما تتقي شوكة أو شرًا أو أذًى أو ضرًا تتقي ربك سبحانه أو تتقي رحمك. أي تتجنب ما يسخطه ويسخطهم. التقوى هي التجنب والإبتعاد مخافة أذى.

لأي مقصد يعلى أمر الرحم إلى هذه الدرجة المرتفعة جدا.

« الرحم معلقة في العرش تقول اللهم صل من وصلني وإقطع من قطعني ». وهي مشتقة من الرحمة والرحمان سبحانه. هي حميمية لك كرحم أمك. فمن رحم أمك خرجت وفيه خلقت وأكلت وحييت هناك زهاء عام إلا قليلا. ومن رحم قرباك ولدت قبل ذلك أي قبل أن تكون نطفة وبعضهم ولد منك. قال عليه السلام « لا يدخل الجنة قاطع». لم يقل قاطع ماذا. لأنه معلوم أن القطع الذي يحجز عن الجنة لا يكون إلا قطع ما لا يقطع بل يوصل أبدا أي الرحم. فمن قطع رحمه قطع نفسه وحاد عن فلكه وأبق من ذاته فلا يرحمه راحم. الإسلام : عقائده وأقواله وأعماله مقصدة معللة مفهومة معقولة المعنى لا تقصد لذاتها بل تقصد لغيرها. المقصد الأسنى من صلة الرحم وتقواها هي بداية رص الصف الواحد على إختلافه وتعدده. أي من الحلقة الضيقة الأولى. أي حلقة الرحم. فمن وصل رحمه وصل صفّ أمته ومن قطع رحمه فلا أمل فيه أن يكون برحم أمته أبرّ. لا أجد في الإسلام شيئًا أحدب عليه من الصف الواحد المرصوص فهو أمّ مقاصد الإسلام والحرية بابه. فلا يكون توحيد خالص إلا من بعد التحرر من الوثنيات والصنميات ومن بعد التحرر من التمزق والتفرق. هما بابان للإسلام رئيسان من ولج من أي منهما وصل وذاق (الحرية والصف الواحد). ومن تسلل من النوافذ الخلفية وهي كثيرة حسبه الموضع الذي تسلق منه والذي تسلل إليه.

الرحم جبلّة فهي أمر فطري وشرعي في آن واحد.

الأوامر الفطرية الجبلّية لا نؤمر بها شرعا من مثل الحدب على ولد الصلب لأننا أمرنا بذلك جبلّة فهو أمر لا يعصى كرهًا منا. ولكن أمرنا بالأوامر التي يمكن أن تعصى أي الأوامر الشرعية من مثل الإحسان إلى الوالدين إذ فيه أمر شرعي مغلظ. جاءه عليه السلام رجل يشكو رحمه قائلا (أعطيهم ويمنعونني وأحسن إليهم ويسيؤون إلي وأصلهم ويقطعونني) فقال له عليه السلام « إن كان حقا ما تقول فكأنك تسفّهم الملّ ». ليس في الرحم كفر ولا إيمان ولا طاعة لا عصيان إذ قال عليه السلام لأسماء : « صلي أمك ». وأمّها مشركة. وقد ظل واصلا لرحمه عليه السلام وهم مشركون بل محاربون.

الإسلام جاء لتجميع الناس لا لتفريقهم. يدعوهم إليه ولكنه لا يفرّق شملهم بإسم الدين. الدين عنوانه الجماعة والتجميع فمن فرّق الناس بإسم الدين أو الدعوة فما فقه من الدين شيئًا.

كيف أتقي رحمي؟

1. مداومة الوصل بأي وسيلة وصل. ويكون الأمر فريضة في حالات التهنئة والتعزية والإنفاق بسبب فاقة. قال الفقهاء أن الإنفاق على الرحم المحتاج واجب على الرحم الذي يسعه ذلك. وهو قول صحيح مناسب للإسلام. ولذلك لا تجوز الزكاة مالا ورأسًا لمن تعول و لمن يجب أن تعول. وعلة ذلك أن يفيء ما أنفقت إليك بالنتيجة وهو تحايل منكور.

2. مداومة الصبر على أذاهم إن حصل منه شيء ومداومة الشكر لهم إن حصل منهم خير. أليس الذي « يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم ». والرحم ناس من الناس. عندما يكون الرحم جارًا تتضاعف الواجبات وعندما يكون محتاجًا تتضاعف أضعافًا مضاعفة وعندما تكون معه في خصومة يحملك هو بنفسه ليس إلى الجنة بل إلى فراديس الجنة وأعاليها. رحم وجار ومحتاج وشاحن أو مشحون. من جمع في نفقته كل ذلك طار إلى الجنة طيران جعفر الطيار عليه الرضوان. لا عبرة بالدين هنا لأن الإنسان مكرم بقضاء إلهي وبسبب النفخة الروحية الرحمانية فيه. فلا تظنّنّ أن جارك ـ أو رحمك ـ المؤمن إذا إستوى في الحاجة ـ أي في الفاقة ـ مع جارك ـ أو رحمك ـ غير المؤمن ـ هو أولى بخيرك. لم؟ لأن المقصد من خيرك ـ سيما المادي منه ـ هو طاعة الله في إكرامه الإنسان. عندما يستوي الناس في الحاجة فلا يبجّل مؤمن على كافر وتكون الأولوية لأكثر الناس حاجة دومًا وبحسب تقديرك. ولا تظنّنّ أن من قدّم مؤمنًا محتاجًا على كافر أكثر منه حاجة قد أطاع الله. لا. هذا عصى الله فإن كان جاهلا فالله يغفر له ولنا وإن كان عالمًا فقد عصى ربه عصيانًا شديدًا لأنه عصيان فكري مثل عصيان إبليس لمّا أبى السجود وليس كعصيان آدم لأنه عصيان شهوة يقع فيه كل أحد.

3. مداومة الإحسان أعلى درجات الإسلام والإيمان وذلك بالسؤال عنهم وعيادتهم وزيادة في الإنفاق لهم هدية وعطية وخلقًا طيبًا كريمًا.

تقوى الرحم من تقوى الله سبحانه فلا عبرة بهذه دون تلك. مقصدها الأسنى رصّ الصف الواحد بداية بمربعه الأول الصغير. وليس هينًا أبدًا أن يقرن سبحانه في الآية نفسها والسياق ذاته الدعوة إلى تقواه والدعوة إلى تقوى الأرحام.

40

وأرزقوهم فيها ... فارزقوهم منه ..

أمران إجتمعا فهما يصنعان البهجة والسعادة : لسان العرب العجيب ثرا خصيبًا سليقًا قحا يقول إرتجالا لا تدوينًا فيعرب ولذا إختير ليكون حمّال رسالة السماء الأخيرة إلى الإنسان حتى يوم الدين. و هذه الشريعة الأعجب. لا يدرك ذلك سوى من تدبر القرآن وهو يتلوه أو يستمع إليه. أما الذي لا يتدبره فلا حظ له من شيء. التدبر هو التوقف المطول المركز عند كل حرف وليس عند كل كلمة فحسب أو آية أو سورة أو سياق. لا. في هذا الكتاب الذي جمع إليه حسنني الشريعة والنظم العربي البليغ لا بد من التركيز تدبرا في كل حرف.

عندما تحدث عن السفهاء من أهل البيت الواحد قال ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا﴾[النساء: 5] أي إرزقوهم في تلك الأموال. والسفهاء هنا هم الأيتام المكفولون قبل بلوغهم الحلم أي سن الرشد فلا حجر عليهم بعدها أن يتصرفوا في أموالهم. إذ السفيه في السياق المالي هو من لا يحسن إدارة المال ومعالجة الموقف الأصلح فيه بسبب صغر سن أو نقص شديد في الحكمة والتدبير. وإذا وردت في سياق إجتماعي سياسي فإن السفيه هو الرويبضة الذي يتكلم في الأمر العام للناس دون علم. ومن السفهاء الإسرائيليون الذين حاربوا الإسلام ودعوته فحوربوا. كلاهما سفاهة و السياق هو المحدد.

عندما تحدث عن قسمة المال وحضر المحتاجون من عامة الناس قال ﴿فَٱرۡزُقُوهُم مِّنۡهُ﴾ [النساء: 8]. هنا مكمن الفقه. حروف الجر ينوب بعضها عن بعض ولكن عندما تكون في سياق واحد يختلف معناها وليس هذا خاصًا بها بل كلما وردت بعض الكلمات المنتمية إلى حقل دلالي واحد في سياق واحد إختلفت المعاني وكلما تفرقت توحدت تلك المعاني. كلمتا الإسلام والإيمان مثالا : ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الذاريات].

الرزق في المال هو الإستثمار

وأرزقوهم فيها معناها إستثمروا لهم تلك الأموال أو بعضها بحسب تقديراتكم لأنهم الآن سفهاء وعندما يكبرون يجدون أموالهم ذات مشاريع تدرّ عليهم المال. وهي الفلسفة نفسها مع الزكاة إذ الزكاة ضريبة على المال الراكد حتى يتحرك ويستثمر ولذلك لا تجب الزكاة إلا من بعد حولان حول أو حصول صابة وبيدر وغير ذلك. أي أن الزكاة تفرض خشية أن تخلد الأموال إلى الركود فيكون الأمر شبيها بكنز الذهب والفضة وما في حكمهما ولذلك تكون الزكاة ذات مقصد أولي هو تشجيع صاحبها على الإستثمار بها والإتجار. ذلك هو معنى الرزق فيها. أي رزقا في أصلها الذي يتحول بسبب الإستثمار إلى فوائد وأرباح وغير ذلك. الرزق فيها هنا أنسب لأن الرجل مسؤول على أولئك السفهاء من الأيتام وغيرهم وهو الذي أبيح له أن يأكل بالمعروف منها إن كان في حاجة إلى ذلك. هو تصرف وليّ يفكر في مصلحة كفيله. ولا يتسنى له رزق السفهاء في المال إلا بسبب أنه ولي عليهم أو وصي ومسؤول فهو يدبر لهم أحسن وجوه معالجة الأموال.

الرزق من المال صدقة

فارزقوهم منه معناها التصدق على الذين يحضرون القسمة من غير أهلها ومن غير أهل ذلك البيت أصلا فهم فقراء وأرامل وأيتام وغير ذلك. لذلك يكون الرزق من المال مباشرة ولا مكان هنا لإنشاء إستثمارات بعيدة المدى زمنيا تدرّ عليهم أموالا وأرباحًا

لأن المتصدق أي صاحب المال المعدّ للقسمة ليس مسؤولا على ذلك مسؤولية مباشرة. وأولئك بحاجة إلى أكل سريع وطعام أسرع فهم محتاجون إحتياجًا مباشرًا وسريعًا وليس لهم ـ ربما ـ من ينفق عليهم حتى تستثمر تلك الأموال وتؤتي أكلها.

معنى ذلك أننا مأمورون بالتخطيط.

أعمق الناس إيمانًا بالآخرة هم أكثرهم قياما على التخطيط لليوم الموالي أو العام الآتي كما فعل يوسف عليه السلام وهو يخطط لخمس عشرة سنة مقبلة في إثر رؤيا الملك وبمثل ما خطط عليه السلام لمحو الأمية وغرس العلم بما سنّه من إجراءات في أسرى بدر. وأضعف الناس إيمانا باليوم الآخر هو من يقصر إهتمامه على حاضره ويومه فإن فعل ذلك بإسم التدين الكذوب والقضاء والقدر فهو إلى التطيّر الوثني أقرب. ألا ترى اليوم أن أنجح الإقتصادات ما كان بناؤه الإستثمار لا الإستهلاك. لأي مصلحة تفرض علينا المصارف الدولية المقرضة إما سياسة إستهلاكية أو إستثمارية ولكن في الحقول الهشة المتقلبة (السياحة مثلا)؟ لمصلحة إبقائنا في حالة تبعية لا إستقلال. لا يريدون لنا (رزقا في) أموالنا بل يريدون لنا (رزقا منها) فحسب. الإستثمار تخطيط دون ريب.

لا إيمان لمن فصل بين الإعتقاد وبين الإنفاق

ألم تقرأ الكتاب العزيز مرات؟ ألم تلف أنه يحض على المحتاجين حضًا عجيبًا؟ ألم يشدك إليه أنه يتعرض لموضوع الإنفاق ورعاية المحتاجين في كل سورة تقريبا؟ هذا أمر شدني إليه شدًّا عجيبًا. أقول مطمئنا : لا إيمان لمن لا حظ له من الإنفاق وليس حده الأدنى الزكاة المفروضة فحسب. ماذا لو صرفنا عشر معشار ثروتنا البترولية على فقراء المسلمين؟ ألسنا نكون أغنى أمة؟ لكم صدق المرحوم الغزالي وهو يقول ملتاعًا : أمة يمشي فقرها على موائد مائجة موّارة من البترول والذهب والفضة. وعندما تكون أرضك أغنى أرض وتكون أنت متسوّلا فلا قدّست ولا قدّس لك إيمان. ذاك إيمان الكذبة الفجرة. بئس إيمان رجل وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم. الجيرة جيرة دول وحكومات وليست جيرة أفراد فحسب.

41

للذكر مثل حظ الأنثيين ..

علم المواريث من محكمات الآيات وليس هو متشابه. أورد الدكتور زغلول النجار أن عالما بريطانيا أسلم لمّا علم أن قانون الإرث في الإسلام لا يتجاوز في القرآن الكريم صفحتين في حين أن مجلة الإرث في بريطانيا كراس قانوني ضخم. الخوارزمي كان متخصصا في علم الفرائض والمواريث فاهتدى بواسطته إلى إجتراح معادلات رياضية في علم الجبر تلقفها الأروبيون وتسمى بالإنجليزية بإسمه (Algorism).

الإسلام هو العدل في المال بين الناس.

القرآن ممتلئ بالحديث عن المال والعدل فيه وبتفصيلات في توثيقه والإشهاد عليه وكتابته و توزيعه. ذلك معناه أن الإنسان كلّ لا يتجزأ فمن إعتدى على حقه المالي كمن إعتدى على حقه المعنوي أو البدني. ولكن أورثنا ثقافة بئيسة منافقة فهي تبث تحقير المال ولكنك لا ترى سوى اللاهثين خلفه بلعاب سائل. يتعرض الداعية إلى ألف سؤال وسؤال : لم كذا؟ وكيف كذا؟ ومتى كذا؟. ومن حق الناس أن يعلموا دينهم سيما مقاصده وعلله ومعاقده وجوامعه وعزائمه ومحكماته أي أم الكتاب. هب أن ألمانيا دخل عليك مسجدك أو مجلسك قائلا : أنتم العرب تتكلمون كثيرا وليس للوقت عندكم حرمة وأنا أريد منك كلمة واحدة عن دينك وكتابك ونبيك. ليس لي وقت يتسع لغير كلمة واحدة. فهل أحضرت جوابك. أم تظل فاغرًا فاك مندهشًا. أم تسخر منه. أم تدعوه ليجلس إليك فتغدق عليه من ثرثرتك ليفرّ من دينك. في القرآن مما طلبه هذا الرجل مواضع ومواضع. نحن لا نقرأ وإذا قرأنا فلا نتدبر.

لم كان نصيب الرجل مضاعفا؟

سؤال لا يخلو منه حديث بينك وبين أي غربي. إن قلت لا أدري حرمت نفسك من فرصة دخول الجنة بهداية رجل إلى الله على يديك. وإن قلت : الإسلام يظلم المرأة ولو

بلسان حالك دون مقالك فقد إقترفت الخطيئة العظمى أي القول على الله بغير علم . بعض الناس يغرقون في إحصائيات تفيد أن حالات كثيرة يتناصف فيها الرجل والمرأة التركة وحالات أخرى تأخذ هي أكثر منه. بل قرأت أن أكثر حالات الإرث تمنح المرأة أكثر من الرجل؟ لو كان ذلك صحيحًا لما كان لقوله الذي تكرر مرتين في سورة النساء من معنى ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: 11]. صحيح أن حالات كثيرة تأخذ فيها المرأة أكثر من الرجل ولكن ليست هي الحالات العامة السائدة في المجتمعات الإسلامية السويّة (ديمغرافيًا). نحن نعمد إلى إحصاء عشرات الحالات من هذا النوع لنخفي هزيمتنا الحضارية عن أنفسنا ولنقول لعبيد الفكر الغربي أن قوله ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ ما هو إلا كلمة زيّنت السورة فحسب أما الحقيقة فهي مخالفة. مثل هذا على صحة بعضه لا يعجبني. الأصل هو مضاعفة النصيب ولكل قاعدة إستثناءاتها. هذه مسألة يتعلق بها أعداء الإسلام كثيرًا يغرون بها فئات نسوية أرستقراطية منّا بأن الإسلام رجعية عربية لم تعد تغري المرأة العاملة والقاضية والمحامية والأستاذة والطبيبة.الذنب ذنبنا. لا يأكل الذئب إلا شاة قصت عنك. عندما أكون في عيون بعض الناس ذئبًا مفترسًا فلا أنزعج من فرارهم عني إلى من هو في عيونهم حملا وديعًا.

فلسفة الإرث

شريعة المواريث حكمتها الحيلولة أن يكون المال دولة بين الأغنياء منا فحسب ولذا توزع هنا بحسب القرابة وليس بحسب الحاجة. وكذلك رصّ الصفّ الداخلي القريب بما يجعله موطن ود وحب وتراحم والمال ينسج الخير عندما نحسن توظيفه. وكذلك بيان الأولى للناس بعضهم ببعض إذ يرث الزوجان بعضهما بعضًا وترث الأصول والفروع بعضها بعضا ثم ينداح الأمر إلى الأجنحة من أشقاء وغيرهم ويقدم المكلف بالإنفاق على غيره أبدًا عملا بالعدل وليس المساواة. المساواة بين غير المتساوين في الواجب حيف وليس عدلًا. وعندما يكون التراحم بين مكونات الرحم فريضة مالية يشيد الصف بقوة فلا تغتاله لا دولة ظالمة ولا إحتلال مقيت. ذلك هو النسيج الذي صمد قرونا في وجه الدولة ووجه الإحتلال معًا.

بين الإرث وبين الوصية والدين

الدين أولى بالقضاء ناهيك أنه عليه السلام لم يصل على صحابي عليه دين ولكن أمر بالصلاة عليه. حقوق الإنسان لا مساومة فيها عند الله. وحد الوصية لغير الورثة ـ إلا إجازة منهم ـ هو الثلث (والثلث كثير) أن يستبد الشيطان بهالك فيتشفّى من رحمه قبل موته ويختم له بالسوء. في الثلث فرصة للهالك حتى يختم لنفسه بالجهاد بالمال. خارطة الفرائض هندسة رياضية وفكرية لذيذة لمن وضعها أمامه متدبرًا. في عرفنا السيء أن المرأة التي لا تتنازل لأخوتها عن حقها بسيف الحياء تظل اللعنة تلاحقها حتى موتها. جاهلية جديدة. هي جديرة بالجنة مثل الرجل لعلّها توصي بشيء من مالها فيكون لها جواز عبور.

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾[البقرة: 187] : المرأة التي تأخذ نصف الإرث أخذت نصفها الآخر من المال عندما أعفيت من الإنفاق على البيت من أول يوم من تأسيسه أي الخطبة والهدية والمهر والوليمة حتى آخر يوم. وبين اليومين لا تطالب بإنفاق فلس واحد لا على نفسها ولا على أبنائها ولا على زوجها وفي كل الحالات إلا تطوعًا منها فهو لها صدقة جارية ومهما تكن غنية موسرة. بل لا تطالب بخدمة البيت سيما فيما يشقّ عليها لذلك كان بعض الصحابة يتخذون خدما.ثم ترث مع الرجل لتحقيق إستقلالها الإقتصادي وإلا فلا معنى لقوله ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ ﴾[الأحزاب: 35]. لو تصدقت بمال زوجها فما هي بمتصدقة.

﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ﴾[النساء: 11] : الموت لا يميّز بين شيخ يأخذه وشاب يدعه فلا ندري هل ننتفع بميراث أبنائنا أوّلا أم بميراث آبائنا أوّلا. يعني : إلزموا حدود الله في توزيع المال وكسبه فالموت كفيل بخلط الأوراق وإفساد ما خططنا له.

نحن لا نقرأ وإذا قرأنا فلا نتدبر لنفهم ونفقه ونتعلم.

42

إجتنب الكبائر فحسب تدخل الجنة ..

هي أرجى آية أي أكثرها بعثًا للأمل في النفس ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾[النساء: 31]. خطاب الله إلينا أمل ورجاء وترغيب وترهيب. قال عن الرومان الذين زجوا بالإسرائيليين في أخدود ملئ نارًا نقمة منهم أنهم آمنوا فحسب : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ ﴾[البروج: 10]. سورة البروج. حتى هؤلاء السفاحين المجرمين الذين يعذبون المؤمنين بالنار ـ ومنهم المرأة التي تكلم رضيعها في حضنها ـ حتى هؤلاء تفتح لهم باب التوبة؟ من لم يعرف من هو الله في هذا المشهد فلن يعرفه. من لم يحسن الظن بربه فلن يظفر بشيء. في موضع آخر قال : ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ ﴾[الزمر: 53].

سؤال التجار الأذكياء هو : ما هي الكبائر حتى أتجنبها فأظفر بالجنة؟

أحصيت الكبائر بنفسي وأعددت فيها كراسًا أنشره عما قريب بحوله فألفيت أنها في الكتاب الكريم زهاء تسعين كبيرة. زهاء ثلثيها تخص الحكام والمسؤولين في علاقات خارجية وأخرى داخلية. أمارة الكبيرة هي ترتيب عذاب ـ أي حد ـ في الدنيا (السرقة والزنى والرمي والقتل العمد والحرابة) أو وعيد في الآخرة دون ترتيب عذاب في الدنيا (الردة السلمية وشهادة الزور وأكل الربا..) أو غضب أو لعن أو التعقيب بفاصلات العزة والقوة والشدة في أواخر الآيات. هي علامات ثلاث للكبيرة لتتاح لك معرفتها دون الحاجة لأحد سوى لصبرك. لو إشترط علينا سبحانه إجتناب ما ننهى عنه كله ما دخل واحد منا الجنة ولكنه بنا رحمان فما طلب منا سوى إجتناب الكبائر فحسب. الكبائر ضروب ثلاثة : ضرب لا يغفر لمن مات عليه دون توبة وهو الشرك الأكبر. المؤمن مطهر منه فمن تلوث بشيء منه فلا يلومنّ إلا نفسه. وضرب لا يبالي به سبحانه وهو ظلم المرء نفسه سيما من بعد صون العبادات المشدد فيها (الصلاة والصيام والزكاة والحج وبر الوالدين وصلة

الرحم والإحسان إلى الجار). وضرب ثالث هو الذي تدور عليه أكثر الكبائر وهو أكثر الأبواب إفضاء بالمؤمنين إلى النار من بعد إعلان الإفلاس يوم القيامة. وهو العدوان على حرمات الناس وحقوقهم وحرياتهم بغير حق وعدم نيل المغفرة منهم في حياتهم. عنوان الكبائر هو رعاية حرمات الناس وتجنب الإساءة إليهم فمن سلم الناس من يده ولسانه لا يحجزه عن الجنة إلا شرك أكبر. أو ـ بصفة مؤقتة إن كان مؤمنا خالص الإيمان ـ نقصان كبير في العبادات وخاصة الصلاة التي لا تسقط عن واع أبدا ولو كان طريحًا مقعدًا.

ما نهينا عنه درجات ثلاث (كبائر وسيئات ولم). وهذه بعض درجات الكبيرة.

1. أن تجعل لله ندًا وهو خلقك أي الشرك الأكبر.
2. **المهلكات الثلاث وهي كبائر قلبية** : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه.
3. **أكبر الذنب** : الزنى بحليلة الجار وقتل الولد مخافة الطعم معك وشهادة الزور.
4. **الموبقات** : السحر وقتل النفس وأكل أموال الناس بالباطل ومنه الربا وقذف المحصنات والتولي يوم الزحف.
5. **درجة أخرى من الكبائر منها ثلاث لا يدخل صاحبها الجنة** : لا يدخل الجنة نمام ـ لا يدخل الجنة عاق ـ ولا يدخل الجنة قاطع. العقوق للوالدين والقطع للرحم.
6. **درجة أخرى** : القول على الله بغير علم أو بغير حق وأمارتها أنك تلفاها عادة مقدمة بقوله ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ﴾[البقرة: 114]. يتورط فيها كثير من المتصدرين للمشهد الديني. منها قوله ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾ [النحل: 116]. أكبر الذنب أن تقول على الله أو على نبيه عليه السلام بغير حق أو بغير علم في أي أمر كان. ذلك هو الشرك. فمن قال بغير حق فقد إدعى له الولد سبحانه ومن قال بغير علم فقد إعتدى على حقه في التشريع وكلاهما شرك. تحريم الحلال مثل تحليل الحرام في الإثم. بعض الناس بإسم سد الذريعة يعمدون إلى تحريم المباح وهذا قول عليه سبحانه بغير علم. المباح يقيّد ولا يحرّم. فمن فعل ذلك رياء ليقول الناس : عالم. فقد هلك هلاكًا بعيدًا.

أجمع آية ـ بعد تفصيلات الأنعام والإسراء وغيرها ـ في الكبائر هي آية الأعراف ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الأعراف: 32]. هي خمسة أصول للكبائر وتحت سقفها زهاء تسعين كبيرة ليتمّ سلم الكبائر ثم تكون سيئات وصغائر ولمم وكلها تسميات قرآنية.

1. كبيرة في حق ربك لا بد من إجتنابها وهي : الشرك به سبحانه فهو لا يغفر أبدًا.
2. كبيرة في حق نفسك وهي : التهاون جزئيا أو كليا في محطات التزكية الكبرى التي لا بد منها لك أنت (الصلاة التي لا تسقط أبدًا) و(الصيام والزكاة والحج) قدر الإمكان.
3. كبيرة في حق الناس وهي الإساءة إليهم بلسانك أو يدك في أموالهم أو أعراضهم أو أبدانهم بدء من الوالدين والأسرة المضيقة و مرورًا بالأسرة الموسعة (الرحم والجار) وإنتهاء بالناس كلهم بغض النظر عن قربهم منك أو بعدهم دينًا ولسانًا ولونًا ما لم يكونوا محاربين وخاصة المحتاجين منهم لمساعدة معنوية منك أو مادية أو مالية.

بينك وبين الجنة مسافة إسمها : **حقوق الإنسان. فمن ضمنها للناس فقد فاز**.

43

﴿ وَاضْرِبُوهُنَّ ... ﴾[النساء: 34]

ثلاثة أمور لا بد منها للشخصية السوية المستقيمة المعتدلة :

1. الموضوعية بدل الموضعية و الجماع بدل التجزئة فعندما تنظر لأي شيء في الدنيا ـ حتى لو كان شيئًا ماديًا ـ فلا تأسر نفسك فيه لينحبس تفكيرك هناك إذ الحياة مبناها التشابك والتعاقد والإتصال فلا يقوم شيء بنفسه أبدًا عدا الله سبحانه.
2. المقاصدية والغائية وما هو مراد ومفهوم بدل الظاهرية وما هو مقول ومنطوق فعندما تلتقط أي كلام مفيد سل نفسك : ماذا يريد هذا المتكلم؟ فمن يحدث حركة

أو صوتًا أو لونًا أو هيئة يبلغك رسالته بطريقته هو فالتقط مراده ودعك من كل شيء عدا مقصوده.

3. الجمع بين الإستقلال في غير غرور يمنعك من إقتباس الحكمة وبين الإنفتاح في غير إمعية تجعلك منبهرًا. التأثير والتأثر ضربة لازب على كل موجود فلتكن نفسك بيتًا له باب رئيس يستقبل الضيف ونافذة تهوئة أن تختنق بريح غرورك.

وإضربوهن ... لا تفهم إلا بالشروط الثلاثة للشخصية المتوازنة آنفة الذكر.

1. **وإضربوهن** .. هي آخر مرحلة في مسار علاجي. سياق الحديث هو سياق معالجة لأوضاع أسرية مهددة بالإنفراط وليست الأسرة هينة عنده سبحانه حتى يفرط فيها تشريعه.المعالجات نفسها قليلة في الحياة لأن المرض نفسه طارئ وليس هو أصيل. عدد رجال التعليم مثلا يفوق عدد الأطباء كلهم في أي مجتمع.

2. **وإضربوهن** .. هي فعلا علاج نفسي ـ وليس هو علاج بدني وذاك هو المقصود منها أي كسر الأنفة المغلظة الناشزة التي تهدد لبنة الأمة المقدسة أي الأسرة ـ ولذلك لا يكون الضرب مبرحا أي لا يؤلم ولا في الأماكن الحساسة التي تهين الكرامة من مثل الوجه وغير ذلك. فمن فهم أن الضرب إيلام بدني فليراجع نفسه بل هو إيلام نفسي لأنه أشد وأقسى وهو المطلوب هنا لحمل من يريد كسر الأسرة على الأوبة في آخر محطة إستشفائية قبل الطلاق. ومن تحكمت فيه التقاليد والعادات البالية فلا يرم بجهله على الإسلام.

3. **وإضربوهن** .. علاج نفسي أخير من بعد فشل محطتي الوعظ والهجران. الهجران نفسه علاج نفسي والوعظ مثله. الإنسان نفس فحسب وليس البدن إلا ظاهر ما نراه ونلمسه فهو الوعاء لا غير. والنفس تحتاج لعلاج نفسي من طينتها ومن عجز عن ذلك فإنه يكون بهيمي الهوى عجماوي العقل يعالج الأبدان لا النفوس. يكون جلادًا ولا يكون زوجًا.

4. السنة الصحيحة تفسر القرآن الكريم ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل: 44].

والسنة ثابتة أنه عليه السلام لم يضرب ولم يأمر بضرب حتى وهو يتعرض لحالة شبيهة في بيته بل ندد بالضرب (يضرب أحدكم زوجه في أول النهار ويجامعها في آخره؟).ومن أخذ بالقرآن فحسب فهو أعور الفؤاد لا يصلح أن يكون لا زوجًا ولا مربيًا ولا والدًا ولا وليًا.

5. عليك بفهم الموضع الصغير ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾ ضمن موضوعه الكبير وهو أنه مسار لمحطات علاجية والضرب آخر محطة لا يلجأ إليها إلا في حالات نادرة جدًا من الطرفين أي الضارب والمضروب والموضوع حاكم على الموضع إن كنت تعقل الحياة وفنّها. عليك بفهم الضرب أنه علاج نفسي في ثوب بدني كالطبيب يطرق على ركبتك بطرقات قوية حادة ليختبر ردة فعلك العصبية فالضرب مادي ولكن المقصد نفسي. عليك أن تفهم أن المقصد من الضرب هو حفظ ما هو كبير ومقدس أي الأسرة التي بإنهدامها تهدم أمة كاملة. والمصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة عند تعارضهما في حالات نادرة جدًا. عليك أن تفهم أن الببغاوات والقرود التي تنهق صباح مساء لأجل التنديد بالإسلام لأنه يبيح الضرب هي إمعات باعت شخصيتها للغرب بسبب إنبهارها وإنسحاقها أمام منجزاته المادية وهم أهل عور وحول إذ لم يبصروا حالة الأسرة في ألمانيا وأصوات الحكمة فيها ترتفع منذ سنوات ومن نساء إعلاميات ـ Eve Herman. لإعادة الإعتبار للأسرة التي هجرتها المرأة فأقفرت من النسل وضعف المجتمع. ليس لهم أن يضغطوا عليك بتأثيراتهم لأنهم في موقع غلبة مادية فلا تكن المغلوب الذي يقلد غالبه. تقدمهم كبير وحقّه منا التقدير ولكن علينا التأثر بأسبابه وهي العلم والعمل وأخلاقهما وليست أسبابه التخلص من الإسلام.

6. الضرب غير المبرح بقصد نفسي ـ لا بدني ـ هو آخر محطة في مسار علاجي لأجل حفظ الأسرة مصنع الإنسان ومستودع دين الرحمان وفق ما فسرته السنة كما أنف وهو الشر الذي نلتجئ إليه لتوقي شر أكبر منه والذي لا يقع إلا في حالة من ألف حالة .. ذلك الضرب هو أمر خاص لأنه أمر أسري ولا سلطان عليه إلا لأعضاء الأسرة وليس هو شأن عام فهو كالزواج والرضاع أي أمور محلها عشّ الزوجية لذا يكون

الكلام الفارغ فيه إفتئاتا أي تقمصًا لسلطان غير سلطانك. من يريد أن يجعل منه قضية وطنية فهو يريد الفتنة.

7. شيّد شخصيتك بتوازن فلا تكن جلادا في بيتك إنبهارًا بالجاهلية العربية ولا متسيّبا تعرّض بيتك بمن فيه إلى الزوال إنبهارا بالمرأة الغربية. الإسلام لا هو ذا ولا هو ذاك. الرجل نفسه ينشز ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ﴾[النساء: 128]. الشريعة تعالج نشوز كل واحد منا بما يناسبه لحفظ مؤسسة الأسرة المقدسة. الطبيب الذي يعالج المصابين بالمرض نفسه بالدواء نفسه دون إعتبار لإختلاف أحوالهم النفسية والبدنية هو متطبب كذاب. قال عليه السلام « ولن يضرب خياركم ». ليس الحل حوارًا حول الضرب بل الحل : إعادة الإعتبار للأسرة وتشييدها على أسس إسلامية. أي تجفيف منابع النشوز منذ البداية وتجنب اللجوء إلى الكيّ.

44

أصحاب الحقوق عشرة فتوازن وآت كل ذي حق حقه.

هي آية الحقوق كما سماها بعض المفسرين تسمية مسددة. ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾[النساء: 36] أصل الحقوق 3 : حق الله عليك وحق نفسك عليك وحق الناس عليك.

1. **حق الله :** إخلاص العبادة والإستعانة به وحده سبحانه أي إخلاص الإعتقاد والعمل معا. عدم إخلاص الأول شرك أكبر لا يغفر وعدم إخلاص الثاني رياء يحبط العمل. عندما تخلص العبادة له وحده سبحانه فأنت تبني شخصية مستقلة قوية لا إمعة كالماء

يتلون بكل لون يغشاه. أروع مثال ضربه عليه السلام للمشرك هو أن رجلا إستأجر أجيرًا وقال له : إعمل في هذا الحقل وأدّ إليّ فكان الأجير يعمل في حقل مؤجره ثم يؤدي إلى غيره أي يسلم الثمرة إلى غيره ممن هو ليس شريك في ذلك الحقل. قال عليه السلام: هل يرضى أحدكم أن يكون أجيره مثل هذا؟ أروع مثال. الله تعالى خلق الكون وملّكناه مستخلفًا ومستأمنًا ومعلمًا وآمرًا بالعمارة وعبادته شكرًا على أنه أطعمنا من جوع وآمننا من خوف فمن توجه بعبادته شكرا أو خوفا أو سؤالا إلى غيره فحقه العذاب. هل هذا دين أحجيات فلسفية عويصة لا تفهم؟ هو أيسر من اليسر وأسلس من السلاسة ولا يحول دونه إلا شيء واحد إسمه : الكبر. أجل. الكبر العقلي ولا شيء غير الكبر العقلي.

2. **حق الوالدين** : حقهما الإحسان الذي هو أتقن عمل وأحسن فعل وأخفض الكلمات جناحا وذلا. لا أحد منا يعلم ـ ولا حتى يتصور ـ كيف كان أبواه يتمزقان جوعا ليشبع ويتضوران ظمأ ليروى ويموتان سهرا لينام ويعريان ليكسى ويخافان ليأمن ولو ترك يوما واحدا دون إهتمام لمات فإذا مرض مرضا ثم شفي فكأنما بعثًا من جديد لفرط الحب. هما الشمعة التي تضيء دربك فتذوي هي يومًا من بعد يوم ويشتد ساعدك أنت يومًا من بعد يوم. ليس هناك من يهرم لتشب سواهما. وليس هناك من يحب الخير كله لغيره أكثر مما يحبه لنفسه سواهما لفلذة كبدهما. هما سبب الوجود فمن تجاهل سبب وجوده نطفة من منيّ من ذلك الشيخ الفاني وصلبا من ترائب تلك العجوز الحدباء فهو الشقيّ. لا. بل حاشا الشقاوة.

3. **حق ذي القربى** : التأكيد على حقهم لا ينقضي في هذا الكتاب العجيب أولا لضرورة بداية رص الصف الإسلامي الواحد والمتنوع من قريب أي من الدائرة الرحمية الدنيا وثانيا لأنه غلب علينا أن تنشب المعارك والشحناوات في الصف الرحمي الأدنى وعند تمزق هذا يتمزق المجتمع حتما. هي دائرة الإنتماء الأولى لا بد من الوفاء لها.

4. **حق اليتامى** : لما أراد سبحانه أن يصدنا عن الإساءة إلى اليتيم قال ﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ ﴾[النساء: 9]. أي أن الأيتام الذين

تسيء إليهم اليوم قد يكون ولدك في موضع إساءة مثلهم وذلك عندما تموت أنت وتتركه للناس. فمن سرّه أن يكون ولده يتيما لا يلقى إحسانا فلا تثريب عليه أن ينهر اليتيم.ألم يقل عليه السلام « أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة؟ ». قارنا بين سبابته ووسطاه فلا تتقدم النبوة كافل اليتيم إلا بشيء يسير.

5. **حق المساكين** : هذه الدنيا يبسطها سبحانه لمن يشاء ويقدر فليست هي بسبب علم عندك أو قوة أوتيتها على قيمة ذلك قطعا ولكن إرادته غلابة سبحانه فما إبتلاك بيسر إلا ليمتحن فيك خلق الإيثار والإحسان والرحمة وكم من موسر غدا مسكينًا وكم من مسكين غدا ثريًا تزدحم على أبوابه التسولات.

6. **حق الجار ذي القربى** : الجار جزء من الرحم ولكنه يصل إليك بسبب التراب وليس بسبب النسب ولذلك دخلت النار صحابية مشهود لها من الصحابة بكثرة الصلاة والصيام والصدقة وقال عليه السلام « هي في النار لأنها كانت تؤذي جيرانها ». فإذا كان الجار قريبا تضاعف حقه فهو رحم وهو جار وهو أولى ما لم يكن غيره أكثر حاجة منه.

7. **حق الجار الجنب** : للجار منزلة دومًا حتى لو كان أجنبيًا في الدين أو اللسان أو العرق. المهم أنه جارك. وربما يحتاج لهذا مسلمو الغرب لأن الجار هناك في العادة جنب بالكامل.

8. **حق الصاحب بالجنب** : هو الرفيق والزميل ومن تحمله الأقدار إلى جنبك في سفر أو تعليم أو عمل. ولا معنى هنا كذلك لدينه ولسانه ولونه وعرقه. حكمه حكم الجار الجنب ولكنه مؤقت إذ عادة ما لا يصحبك الصاحب بالجنب العمر كله.

9. **حق إبن السبيل** : هو من تقطعت به السبل حتى لو كان موسرًا في بلاده وصروف الدهر لا يعلمها سواه سبحانه. والسفر قطعة من العذاب وضربة لازب على كل واحد منا.وعادة ما يكون إبن السبيل غريبا لا يعرف ومن ذا وجب إكرامه.

10. **حق ملك اليمين** : لم يعد اليوم له وجود.

إنه الدين الذي يرفع كرامة الإنسان إلى أعلى حد. فكل من فيه نفخة روحية منه سبحانه جدير بالإحسان بدء بالدوائر اللصيقة حتى آخر دائرة. ثم يكون التعقيب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[النساء: 36]. ليعلمنا أن حق أولئك جميعًا منه هو سبحانه حتى ملك اليمين لا يؤدى حتى يتخلى الإنسان عن الإختيال والفخر أي الكبر ويتحلى بالتواضع. الكبر أصل كل داء وهو طريق مضمون إلى النار. والتواضع أصل كل فضيلة وهو طريق مأمون إلى الجنة.

45

تدينك بين التدرج والتدحرج

التدرج في التشريع :

1. تحريم الخمر من قوله ﴿سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾[النحل: 67]. إلى قوله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: 91]. وبينهما قوله ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾[البقرة: 219]. و﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾[النساء: 43].

2. إباحة زيارة القبور « كنت نهيتكم عن زيارة المقابر ألا فزوروها ».

3. نسخ عقوبة الزنى من قوله ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾[النساء: 15]. إلى قوله ﴿فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾[النور: 2].

4. نسخ التوارث على أساس الإيمان والهجرة إلى أساس القرابة ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[الأنفال: 75].

5. إباحة نكاح المتعة لعنت السفر إلى تحريمه في خيبر أي بعد زهاء 7 سنوات من الهجرة وكذا تأخير تحريم التبني وأكل الربا وفرض الخمار إلى ما بعد الهجرة بزهاء 5 سنوات.

6. التدرج في تجفيف منابع الرق بدء بتوجيه بعض الكفارات لتحريره (اليمين المنعقدة + القتل الخطأ إلخ ..). حتى مبدإ المعاملة بالمثل وغرس منازع التحرير في الإنسان.

7. التدرج في تشريع الصلاة من مثنى مثنى بالغداة والعشي حتى صورتها الأخيرة في المعراج أي بعد أزيد من عقد كامل من البعثة وتأخير التشريعات الأخرى حتى الهجرة وما بعدها (القتال + الصيام + الزكاة + الحج .. إلخ.).

8. التدرج من العزيمة إلى الرخصة بحسب القوة والضعف (من وجوب المقاومة على أساس غلبة مؤمن واحد لعشرين محارب إلى أساس غلبة مؤمن واحد لإثنين فحسب).

التدرج في الدعوة :

بدأ بقوله عليه السلام « قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ». وظلت المرحلة المكية كلها أي عقدا ونيف قاصرة على عنوانها « كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة ». أي « البلاغ المبين والصبر الجميل ». ولم يؤذن لعبد ولا أمة ممن آمن أن يأبق عن سيده حتى وهو يسام الخسف وفاضت روح سمية وهي تعذب لتكون أول شهيد في الإسلام. وظل هو نفسه ودعوته بأسرها في حماية مشرك بدافع عصبي وهو يعلم ذلك بل إستجار المشركين فأجاروه.

التدرج في الإلتزام :

قال عليه السلام « إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى ». وإضطر بعض الناس في مكة إلى كتمان إسلامهم لشدة الأذى ولم يعلن آخرون ذلك إلا بعد حصول الأمن أي بعد الحديبية وفتح مكة وقبل عليه السلام من القبائل عام الوفود إسلامهم السياسي أي التسليم للدولة والإيمان لمّا يدخل قلوبهم ثم حسن إسلامهم.

لماذا الحديث عن التدرج؟

1. أوضاع كثيرة في أماكن كثيرة إنغمست في وثنيات فكرية أو شبهات مغلظة أو معاصي كبيرة تحميها قوانين ودول حتى إستمرأها الناس وأضحى الحديث فيها غريبًا حتى

لو أقرّ الناس رشد قولك (ربا ـ إرتشاء ـ عراء ـ مشاهد شرك ـ خمر ـ مشاهد سحر ـ كذب وإحتيال وأكل أموال الناس بالباطل ..).

2. رسالة الشريعة المتدرجة هي أن ترفقوا بأنفسكم وبالناس من حولكم. هي حكمة إبن عبد العزيز عندما قال لإبنه المتحمس (أخشى أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعوه جملة). القانون الرياضي هو أن كل قوة لا بد أن تعدلها قوة أخرى مضادة في الإتجاه المعاكس. إكمال الدين لا يعني عدم مراعاة التدرج في تنزيله بحسب فقه المآل نظرًا في الحال المرقوب بعد تنفيذ هذا الأمر أو ذاك النهي أن نسقط في منكر أكبر. الفقه : فهم النص الصحيح الصريح ثم فهم مقصده ثم رسم تصور لمآله من بعد التنفيذ.

3. الإصلاح مهمة الإنسان في الحياة من آدم عليه السلام حتى آخر مخلوق إذ لن يختفي الكفر أو المعصية إلا عندما ينفخ في الصور لطيّ صفحة العمل وبدء صفحة الحساب. أنت حلقة من حلقات لا تحصى. ها قد مات عليه السلام و الإسلام لم يتجاوز شبه الجزيرة العربية. هي طبيعة الإنسان : كائن متقلب متفلت يحتاج إلى تربية طويلة متأنية وليس إلى علم مجرد فحسب بأن هذا حلال وذاك حرام. الداعية الناجح يبدأ بالمادة العظمى أي التوحيد فإذا وقر هذا في الصدور هان ما بعده كله سواء صلح أو لم يصلح وهو في الغالب يصلح.

فلا تذهب نفسك على الناس حسرات لجهلك بسنن الإصلاح وقانون التدرج فتنقم عليهم وربما تكفرهم أو تهجرهم ولك في عمل يونس عليه السلام درس عنوانه : الصبر على الناس حتى لو لم يؤمنوا فالرسالة رسالتي أنا والقلوب بيدي أنا وأنت موظف بأجر. لذاك عوقب النبي يونس في الدنيا ثم نجاه سبحانه بـ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[الأنبياء: 87]. عندنا فقر مدقع في فقه التغيير وسنن الإصلاح ولكم صدق القائل : نقل جبل شاهق من الغرب إلى الشرق أيسر من نقل إنسان واحد من وضع تربوي إلى وضع آخر.

46

الحياء خلق لا تعلّمه الجامعات بل ترضعه صدور الأمهات.

الله حييّ يحب الحياء. كثير منا يقول في سورة البقرة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ﴾[البقرة: 26]. هناك فرق بين بعض الرسم في الكتاب وبعضه في حياتنا المعاصرة. لا ينسب عدم الحياء إليه سبحانه. ميّز بين إستحى و إستحيى. قال عن بنت شعيب ﴿تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾[القصص: 25]. تربعت فوق عرش الحياء كما يتربع الملك المظفر فوق عرشه ويستوي فلا ينازعه عليه أحد.

وحي ينظم الحياة الخاصة والجنسية ولكن بريشة الأدب الدمث الجم.

1. إستخدم كلمة الغائط مرات للدلالة على قضاء الحاجة البشرية والغائط هو المكان المنخفض من الأرض . وإستخدم تعبير ﴿لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[النساء: 43]. بصيغة المفاعلة والمشاركة للدلالة على الإتصال الجنسي المباشر. وكلمة ﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ﴾ [البقرة: 222]. للدلالة نفسها. وكلمات أخرى مثل المحيض ـ الذي يكون أحيانًا إسم موضع ـ والفرج والنكاح. وتعبير آخر جميل جدًا ﴿فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: 240]. أي تزيّن وتجمّلن. وتعبير ﴿مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾[النساء: 3]. و﴿فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ﴾[النساء: 24]. و﴿غَيۡرَ مُسَٰفِحَٰتٖ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخۡدَانٖ﴾ [النساء: 25] . و﴿وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ﴾[النساء: 34]. و﴿وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا﴾ [المائدة: 6]. والتعبير بالرمي أي القذف بالفاحشة. وبالجيوب على فتحات الصدر والتعبير المجمل بالزينة على كل شيء من زينة المرأة خلقيًا وخلقيًا. وبقوله ﴿عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: 31]. وبلوغ الحلم للأطفال. والتعبير بالتبرج و﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ﴾ [النور: 31]. وقوله عن زيد ﴿قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا﴾[الأحزاب: 37]. وقوله ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾[الأحزاب: 50]. و﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾[الأحزاب: 52]. وبالنفخ في الفرج وبالظهار في المجادلة إلخ .. وعندما يرغّب في الجنة ونعيمها

يتحدث عن شهوة النساء بقوله ﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الصافات]. و﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾[الواقعة: 22]. و﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾[الرحمن: 74]. و﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن: 58]. و ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾[الرحمن: 70]. و﴿ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾[الواقعة: 23]. و﴿ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ ﴾[الواقعة] إلخ.. **عين** : جمع عيناء أي واسعة العين. **حور**: جمع حوراء أي شديدة بياض العين وشديدة سوادها. **عربًا** : جمع عروب أي جميلة يكاد حسنها ينطق فيعرب عن نفسه كما قال الشاعر (أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكًا ... من الحسن حتى كاد أن يتكلما). **أترابًا** : جمع ترب أي ند. وفي الحديث مثل ذلك « هلاّ بكرًا تلاعبها وتلاعبك ». أو «من إستطاع منكم الباءة فليتزوج» ومن الباءة الأهلية الجنسية. وقوله « إذا جلس بين شعبها الأربع فأجهدها » دلالة على الإيلاج. أو « حتى تذوق عسيلتها وتذوق عسيلتك» أي الإيلاج والإمناء إلخ ..

2. ورد ذلك على العرب فسمعوه وفهموه ولم ينقل إلينا من الأصحاب في ذلك أي سؤال تقريبا ولم يشتك واحد منهم أن هذا لسان غير مبين أو لم يقصر عن التصريح كما نفعل نحن برثاثة وصفاقة وسماجة حتى غدت كلمات فينا شائعة هي النباءة نفسها والبذاءة ذاتها.

3. الوحي بيّن لنا كل شيء في هذا الحقل الذي لا يوطأ منا إلا قليلا بكذبة إسمها الحياء وعندما يتورط في عدم الوطء ذلك إمام مسؤول بعينه لسائل متعيّن بنفسه فهو كتمان علم لا ريب فيه. يمكن الجمع بين البيان وبين الحياء دون أن يشغب الحياء على البيان فيجعل المسألة مبهمة ولا البيان على الحياء ليجعل الريح كريها. قالت الأم العظيمة عائشة « رحم الله نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء من التفقه في الدين ».

4. لا بد من إكتساب الفقه الصحيح في هذا الحقل الذي يستحي فيه السائل أن يجهر في ملإ من الناس إلا خلوة بالإمام أو ظل السؤال معلقا في فيه. سألني ذات يوم من أيام 1982 شاب قائلا أنه يضطر لغسل كل ثوب جامع فيه زوجه حتى لو لم يمسسه من

المني شيء وأن ذاك أثقل ظهره بالإنفاق. وسئلت السؤال نفسه ورب الكعبة الأعظم ـ من شاب آخر في الحي نفسه ـ عام 2011. أجبت الأول حزينا قائلا في نفسي : الإسلام في صدر هذا الشاب عبء ثقيل. ولما عاودني السؤال نفسه بعد زهاء ثلاثة عقود كاملة كان حزني أنكى.

5. في ألمانيا يتعلم الطفل ثقافة جنسية. يهجمون عليه بها وهو غض طري. أذلك خير أم حالنا ـ في جيلي وليس في ثورة الإتصالات ـ ونحن نكبت ذلك بإسم الدين؟ هي مشكلة الوسطية المفقودة. الحل الثالث يظل متروكًا إلا قليلا. الحياء خلق عظيم بل هو زينة الإسلام وهو شعبة من الإيمان. الحياء خلق عملي لا نظري بمعنى أن مصدره ثقافة عملية تنغرس فيك من أيامك الأولى في بيئتك الأولى وليس مصدره ثقافة قولية. فمن حيي بالحياء في بيئته الأولى ظل حييا مهما طوّحت به دروب الدنيا وهو فاء يوما إلى وليجته كما يفيء الفرس المشدود إليها. ومن حيي منزوع الحياء في البيئة الأولى فما عليه أن يظل كذلك لأن الذنب ذنب بيئته. السنّ شرط في فعالية الحقنة التطعيمية وجدواها.

6. الحياء خلق يعاش ويحيى به المرء ولكنه لا يحكى ولا يقال فإن حكي وقيل ذهب طعمه. الحياء هو لسان الجسد والحال وليس هو لسان المقال. ورأس الحياء الحياء من الله سبحانه وإلا كانت الشخصية مفصومة كمن يقبّل يدي أبويه وهامتهما عند خروجه من البيت فما إن يتوارى عنهما حتى يخرج من جلده الفطري الجبلي الأول تبرجا وتفالة وسماجة. لم تكون المرأة أجمل بحيائها حتى لو تربعت على عرش الجمال؟ لو ترك التعبير لجمالها فحسب سفيرًا حتى وهي متدثرة بلباس الستر فهو أبلغ في النفوس (الذبابية) النهمة الجشعة التي لا تشبع ولو أعلن حياؤها عن نفسه وهي في مثل ذلك الجمال ودثار الستر لكان أبلغ في النفوس (النحلية) التي ترشف رحيقًا زائلا فتحوله إلى عسل مصفى فيه شفاء للناس.

سلا نفسيكما : هل أنا (نحلي) الجمال بحيائي أم (ذبابي) الزينة بفقاعتي؟

47

هل أتاك حديث الترميز . .

الدين إيمان بالغيب وطاعة بالغيب. الغيب هو لبّ الدين فلا دين بلا غيب إيمانًا وطاعة. الترميز هو الإتيان بصورة رمزية أي غير حقيقية وظيفتها الإحالة إلى قيمة أخرى. الأرقام رموز لأعداد متعينة والحروف والحركات رموز. الترميز بعد من أبعاد التعبير كالإشارات. التعبير بالعبارة وبالإشارة وبالإقتضاء. في الدين حركات رمزية لنا معها موعد.

التيمم رمز.

هل يصدق عاقل أن المسح من الصعيد الطيب ـ سواء كان ترابًا أو حجرًا أو أي شيء صعد على الأرض ـ يزيل نجاسة أو يطهر بدنا إستعدادًا للصلاة؟ أبدًا. ولكننا نفعل ذلك. لم؟ لأن الله سبحانه يريد أن يخفف عنا فلا يكلفنا ما لا نطيق عند عدم الماء بأي وجه ولكنه يريد منا أمرًا آخر عنوانه : أختبر طاعتكم لي بالغيب فيما لا تعقلون. إذ لو قال قائل : هذه خرافة. أنّى لي أن أتطهر بصعيد ترابي أو حجري وأنا أعلم أن ذلك لا يزيل نجاسة ـ لمجنب مثلا إذ أن التيمم لصاحب الحدثين الأكبر والأصغر بتعبير الفقهاء ـ؟ هنا لا يسعفك عقلك. ولكن يسعفك إيمانك بالغيب. تقول في نفسك : هو سبحانه أراد التخفيف عني ولكنه يريد إختباري هل أومن به فأطيعه فيما لا يعقل وأنا لا أراه أم لا؟ التيمم إذن رمز للطهارة وليس هو طهارة حقيقية والمقصد منه إختبار الطاعة بالغيب فيما لا نعقل. قيمة أخرى مهمة هنا وهي أنه لا بد لكل شيء من سبب. فإن تخلف الماء الذي هو وسيلة للطهارة فلا بد من سبب يعوضه ليتربى الإنسان على فقه الأسباب. من فقه السبب كان على عمارة الأرض أكثر أهلية. التيمم لغة معناه القصد. يمّم الشيء جعله مقصدًا. تيممه : قصده. الجذر اللغوي هو : يمّ. اليم هو قلب الشيء وعادة ما يكون قلب الشيء هو المقصد. التيمم هو التقصد لغة.

التيمم خلق.

لم يشأ لنا سبحانه أن نباشر الصلاة في حال فقد الماء بأي وجه إلا بواسطة سبب لنفقه سنة الأسباب في الكون والحياة والدين.هذا يدفع إلى العمل والكسب ويجفف منابع التواكل والعطالة والبطالة. هناك قيمة أخرى في التيمم عنوانها : هذه فرصة سانحة لتباشروا الأرض التي منها خلقتكم وإليها تعودون ومنها تخرجون. فرصة لتباشروها بأيديكم وتمسحوا منها بوجوهكم. أجل. نمسح على وجوهنا بالتراب. كان يمكن له سبحانه أن يشرّع لنا سببا آخر ولكنه إختار لنا الأرض والتراب. لم؟ لنتربى على خلق التواضع ومعانقة الأرض التي هي أمّنا وهي قبرنا. ربما ننسى الأرض لفرط الحياة في رغد العيش والنعيم الرافل ووفرة الماء ساخنًا في الشتاء وباردًا في الصيف. لا بأس علينا إذا فقد الماء بأي صورة أن نعود إلى الأرض. أكثرنا اليوم يتيمم ولا حياة في فؤاده لمثل هذه المعاني. الذنب ذنب من؟ ألا ما أروع أن يكون الإنسان كبيرًا بالمنظار الدنيوي وفي عيون الناس مالا وعافية وعصبة وجاها وفجأة يفقد الماء لأي سبب فيلجأ إلى الأرض بها يتطهر. « جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا ». ما أروع أن يكون مثل هذا مطيعا لربه سبحانه بالغيب وفي أمر لا تكنهه العقول. التيمم هو خلق التواضع معه سبحانه ومع الأرض ومع أنفسنا ومع الناس. لم أر خلقا أبغض عنده سبحانه من خلق الكبر. الكبر أصل كل سرطان نفسي. ويندر - بل يستحيل - أن تلفى متكبرًا على الناس متواضعا لربه أو العكس من باب أولى. هي قيم كبيرة ومعان عظيمة ولكن من يتدبرها؟ لم ألف في حياتي أغذى للعقل وأزكى للنفس من التدبر والتفكر والتأمل والنظر. ألم يمتلئ به الكتاب العزيز إمتلاء عجيبا؟

التيمم يسر.

الدين هو الإيمان بالغيب والطاعة بالغيب. لم يأمرك عند فقد الماء بتيمم الجبال أو البحار أو أي مكان آخر. بل أمرك بالتطهر حيث أنت. حتى لو كنت في سفينة في يمّ البحر أو كنت في طائرة تمخر بك عباب السحاب أو كنت في سجن ضيق. حيثما كنت فلم يتسنّ لك الماء بأي وجه فالتيمم وسيلتك إلى الصلاة حتى لو كنت على جنابة وحتى لو ظل بك الحال شهورًا وسنوات. ضربة واحدة لما تيسر لك من الصعيد - دون أن

تكلف نفسك قطع المسافات ـ هي كافية لرسغيك وأخرى لوجهك. أفحم إبن حزم أصحاب الأقيسة الفقهية الجامدة من قبله ممن أوجب ـ أو سنّ ـ التيمم لكل صلاة إذ واجههم بقوله أن التيمم طهارة ترابية والوضوء والغسل طهارة مائية فما ينقض هذه ينقض تلك وكفى. ثم تمادت تلك الأقيسة الجامدة حتى إبتدعت وجوب تأخير التيمم إلى آخر لحظة قبل الصلاة. الذين يرتبون ذلك يقصدون إمكانية حصول فاقد الماء على الماء. ولكن الجهل جعل من ذلك واجبا تلقّاه الجهلة بالقبول. حزني عميق لا ينقضي على سواد كثيف تلقّى آراء فقهية حسبها أنها صيغت لزمانها ومكانها وفي ضوء علل ومقاصد تدور أحكامها عليها وجودًا وعدما فإذا جهل الناس ذلك جمدوا على تلك الآراء.

تلك مدرسة التيمم الرمزية

1. رمز للإيمان بالغيب وللطاعة بالغيب.
2. خلق من خلق التواضع يذكرك بأصلك ومرجعك.
3. مشهد من مشاهد تخفيف وتيسير كثيرة في هذا الدين العجيب.
4. مدرسة تعلّمك فقه السبب لتعمّر به الأرض التي لا تعمّر إلا بالأسباب.

48

سورة النساء تحتضن أول بند من بنود الدستور الإسلامي.

هو علم المناسبة.أي : لم جاء هذا في هذا السياق وليس في سياق آخر. مثل علم مناسبات النزول. سؤالان لا غنى عنهما : ما مناسبة هذه الآية إن كانت لها مناسبة؟ وما دلالة تثبيتها هنا في هذا السياق أو في هذا المكان (مكة أو المدينة)؟. أكثر السور المتضمنة لجولات طويلة مع الكافرين (من إسرائيليين ومنافقين ومرتدين ومشركين) هي السور الأولى (البقرة لليهود وآل عمران للنصارى والنساء والمائدة لهم جميعا تقريبا عدا جزء صغير للمرأة والأسرة وأحكام عامة أخرى. ثم سورة الأنعام

للمشركين). ثم التوبة للمنافقين. ثم إنداح الكتاب ـ إلا قليلا ـ يعرض قضيته العظمى أي الإقناع العقلي بالله سبحانه متوسلا بالقصة وبالمثل وبالكون وبأحوال النفس ومشاهد القيامة مثبتا أكبر الحروب التسع في عهده عليه السلام. وفي تلك الأثناء يعرض حجج الذين بدأ بهم أي الكافرين بمختلف ضروبهم كما يعرض للتشريع التعبدي وهو الأندر والتشريع الأخلاقي وهو الأوسع والتشريع المعاملاتي في مختلف شؤون الحياة في صورة كليات ومبادئ فحسب. تلك هي خارطته العامة.

رسالة الأمة.

للأمة رسالة إنتدبت لها وهي : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ ﴾[النساء: 58]. السياق يدلنا إلى أن الأمانة التي أمرنا بأدائها إلى أهلها إنما هي : الحكم بين الناس بالعدل. أمرنا بها بصيغة الأمر لحمًا ودمًا (أي بفعل الأمر نفسه = يأمركم). هي الأمانة العظمى المشتقة من الأمانة الأولى ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ ﴾[الأحزاب: 72]. الأمانة صراط: رأسه الأمانة مع الله ألاّ يعبد سواه. وذروته الحكم بين الناس بالعدل. وذيله أداء الأمانة الفردية كمن إستأمنك على بضاعة. اللسان ومدلولاته طبقات من المعاني مركبة بعضها فوق بعض ولذلك تجد السطحي القشري في فهمه والمقاصدي العميق. المعنى المقصود هنا هو أن نختار منا أخلصنا وأكفانا من الرجال والمؤسسات والقوانين لنقوم بالحكم بين الناس بالعدل.

مرجعية الرسالة ومشروعية الدولة وشرعية سلطانها.

تلك الرسالة تحتاج إلى دولة تقوم عليها ولا قوام لدولة عليها إلا بالخضوع إلى التراتبية الدستورية المذكورة بعد الرسالة مباشرة في سورة النساء ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾[النساء: 59]. بعد تحديد مضمون الرسالة (الحكم بين الناس بالحق) عرّفنا بالمؤسسة التي تقوم عليها وهي مؤسسة ثلاثية : رأسها الأول طاعة القرآن الكريم ـ أي محكماته التي هي أمه فلا خلاف عليها ـ ورأسها الثاني طاعة السنة النبوية ـ أي منهاجها

الإداري السياسي بتفاصيله المعروفة ـ وعمادها طاعة ولاة الأمر منا. هنا إختلف الأمر فلم يعد لهؤلاء طاعة إبتدائية مطلقة بل جاءت طاعتهم مقيدة ونسبية ومشروطة. مقيدة بطاعة الرأسين الأوليين أي الكتاب والسنة. ونسبية لأنهم قد يختلفون وهناك معالجة لخلافهم كما سيأتي بعد قليل. ومشروطة بكونهم منا نحن وليس من غيرنا. وهي منّية دينية عقدية وليست منّية جغرافية أو عرقية. في البدء كان ولاة الأمر هم الفقهاء والرؤساء في الآن نفسه أي حتى سقوط الخلافة الراشدة. ثم تبدل الحال فولاة الأمر صنفان : صنف يحكم فعليا وليس رجاله فقهاء. وصنف يعلم ويفقه ويفتي ولكنه لا يحكم. فإن إستعان الصنف الأول بالثاني رشد الأمر وإن إستغنى عنه وقعنا في الغي والضياع. الأمر في الإسلام (أي كلمة الأمر في القرآن والسنة) هو الأمر العام أي الأمر السياسي بالتعبير المعاصر. ولا مانع دينا من أن يتولاه الأدنى علما وفقها ولكن بشرط أن يكون الحكم مؤسسة مركبة من أولئك ومن أهل النظر والسداد. فإن كانت المؤسسة السياسية العليا للأمة منضبطة لتلك المرجعية الدستورية العليا أي (طاعة الكتاب وطاعة السنة طاعة مطلقة ثم طاعة ولاة الأمر طاعة مقيدة نسبية مشروطة) فهي ذات سلطان سياسي مدني وأمني ـ أي بالقلم وبالسيف ـ على الناس. وإلاّ فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق كما قال عليه السلام.

مؤسسة معالجة الخلاف أو المحكمة الدستورية العليا بالتعبير المعاصر.

الكون والخلق والإجتماع : ثلاثتهم مبناهم الإختلاف إبتلاء. فإذا نشأ الإختلاف ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[النساء: 59]. فإن الوحي لم يتركنا سدى بل بيّن لنا سبيل المعالجة وهو سبيل الرد إلى مصدري الطاعة الأوليين أي الكتاب والسنة. السؤال هو : كيف نؤمر بطاعتهما في البدء ثم نختلف فنرد إليهما في الختام؟ أي : كيف نتنازع وقد رضينا بهما حكمين في البدء؟ الجواب مزدوج : إما أننا توهمنا طاعتهما في البداية إذ لمّا عرضت لنا قضية أحيلت إلى ولاة الأمر لم يلتزموا فيها بهما فنشأ النزاع. وإمّا أننا أطعنا منهما المتشابهات وليس المحكمات. الرد العملي لله ولرسوله يعني إحالة الأمر محل التنازع إلى الأمة مجددًا ـ سيما من خلال المؤسسة الشورية التي إنتخبتها ـ وهو الأمر المعمول به في الخلافة الراشدة وهو المعمول به اليوم في كثير من بلدان

أروبا. أي رد محل النزاع إلى ممثلي الأمة هناك. ولذلك عندهم المحاكم الدستورية العليا ذات سلطان قضائي مستقل يضمن الوفاء من الدولة ومؤسساتها لروح الحياة العامة (الدستور) فهي تحمي العالمانية أو المسيحية.وتبنّى الشيعة في إيران ذلك بمؤسسة قضائية دستورية عليا لحراسة المذهب.

لم أدرجت هذه القضية السياسية في سورة النساء؟ النساء-مرأة وبيتا-علاقتهن حميمية بمثل هذا فإن خضعنا لذلك هدينا وإن قلنا : صوتها عورة وهي نصف الفحل ضللنا ثم أصبحنا عورة بين الأمم حسبنا منهم الذنب (أي الذيل). دعني أذكر بالأركان الثلاثة :

1. **رسالة الأمة هي** : الحكم بين الناس بالعدل.
2. **مرجعية الرسالة هي** : الطاعة المطلقة لمحكمات القرآن والسنة ثم طاعة ولاة الأمر علما وعملا طاعة مقيدة مشروطة ونسبية.
3. **مؤسسة معالجة الخلاف هي** : الأمة نفسها بمؤسستها الشورية أو بمحكمتها الدستورية العليا بما يحمي عقيدتها وهويتها من أي تغول محتمل من السلطة السياسية.

49

القرآن متناقض..

إقرأ هذا ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾[النساء]. متناقض لأنه يقول في السياق نفسه في أوله ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ﴾. أي : الحسنة من عند الله والسيئة من عند الله كذلك. وفي آخره يقول ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾. ينسب السيئة مرة لله ومرة لصاحبها. إما أن تقنعني بأنه غير متناقض وإما أن تقرّ أنه متناقض أو أن تظل على جهلك فلا أنت مقتنع به بينك وبين نفسك ولا أنت ممن تطمئن قلوبهم بذكر الله.

مبدأ الفقه التوافق.

فقه التوافق اليوم مصطلح سياسي قح ولا شأن له عندنا بالدين. ربما إختلط الأمر على الإمام الشاطبي فإنتهى إلى أن الشريعة توافقية فسمّى سفره اليتيم (الموافقات في أصول الشريعة). الموافقات هي التوافقات. مبدأ الكون التوافق ومبدأ الخلق التوافق وليست الشريعة إلا من المشكاة ذاتها. التوافق معناه عدم قيام شيء بنفسه لأنه يحتاج إلى غيره لأداء وظيفته. لذلك يتوافق الإنسان بشطريه الرجل والمرأة ويتوافق الزمان بشطريه الليل والنهار وتتوافق الحياة بشطريها الخير والشر. التوافق سنة ماضية تعلن أنه لا إله إلا الله سبحانه فهو الأحد الصمد الذي ليس كمثله شيء وهو الذي يقوم بنفسه بالقسط لا يوافقه شيء. السنن والأسباب في الكون والخلق والإجتماع هي أخصب ساحة تدرّ الإيمان الصافي.

من مظاهر التوافق الفقهي.

1. نبدأ بمثالنا هذا أي التوافق بين الأمر القدري الرحماني وبين الأمر الشرعي العملي المشاهد. عندما قال ﴿ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ ﴾. هو يتحدث عن عندية قدرية في اللوح المحفوظ أي أن ما أصابك من حسنة ومن سيئة فهو بتقديره سبحانه وبعلمه وبقضائه. قضاؤه سبحانه إلتحام بين مشيئته وبين حكمته فهو يشاء أشياء لا يرضاها ويريد أمورًا لا يحبها. يقدرها مشيئة وإرادة لأجل إمضاء أقوى سننه أي الإبتلاء لأن الدنيا دار إبتلاء وليست دار جزاء. ما أصابك من سيئة أو أذى لا يخرج عن ملكه وتدبيره وإلا لما إستأهل أن يكون إلها معبودا بحق. وعندما قال ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ ﴾. هو يتحدث عن أمره الشرعي المشاهد لا الغيبي أي عن حقيقة ما يقع في الأرض أي عن القدر المكشوف من بعد ما كان قضاء غائبًا. ما أصابك من سيئة فهو بسبب كسبك ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ ﴾[الروم: 41]. هو الجزاء المعجّل وله وظيفة الإبتلاء كذلك تأهيلا أو مدّا وإستدراجًا. ليس هو بمتناقض إذن. ورود كل شيء في سياقه المناسب يجعل ظاهره متناقضا وهو تناقض ظاهري مقصود منه سبحانه. أغلى قاعدة في فقه الحياة : قانون الإبتلاء يعلو ظهر قانون الإزدواج الذي

مخه أن كل شيء خلق زوجين يشتركان في شيء أو مساحة ثم يختلفان في شيء آخر أو مساحة أخرى. فمن توقف بصره هنا قال بمنطق التناقض والصراع أي بمنطق المدرسة الغربية (الشيوعية الماركسية) ومن مدّ بصره إلى الأمام ألفى أن ذلك الإشتراك وذلك الإختلاف لا بد لهما من مساحة ثالثة إسمها مساحة : التكامل. فمن فقه قانون التكامل آمن ومن تنكّبه كفر.

2. النظم القرآني كالبحر يبدو سطحًا مائيًا هادئًا يغري السباحين وعندما يباشرونه فإنهم بحاجة إلى مؤهلات جديدة وعتاد جديد كلما تقدموا في عرضه أو نزلوا إلى عمقه. بحر هادئ وديع ولكنه عميق إذ لا تجتنى لآليه وحليّه إلاّ من بعد لأي وكبد وكدح.

3. الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره ركن من أركان الإيمان. إيماننا بهذا فيه من الغبش الذي فيه. فمن معتقد أن الإنسان مسيّر بالكلية وهو ريشة في مهبّ الريح لا مسؤولية له ولا مسؤولية عليه كما تفشّت عقيدة الإرجاء قديمًا وحديثًا وعنوانها (لا يضرّ مع الإيمان معصية). ومن معتقد أن الإنسان مخيّر بالكلية حتى نفيت أمور بسبب أنّ العقل البشري الآن ـ في الدنيا ـ لا يكنهها ولا دليل على إستحالتها يوم القيامة. وهنا نشبت المعتزلة الذين إنتصر بهم العباسيون فردوا الصاع صاعين لمخالفيهم. ولما ظهرت الفلسفة الغربية الحديثة نفت الإنسان وجعلته رقيقا من حيث أنها تريد تحريره. نحن اليوم مترددون بين إرجاء ينشر البطالة والمديونيات الباهظة وبين نزعة إعتزالية عقلانية مشطّة تجعل من الإنسان مسؤولا عمّا لا قبل له به وبين فلسفة غربية تعلن موت الإنسان وحياة المادة. ضاعت بين كل ذلك وسطية عقيدة القضاء والقدر وعنوانها : الله مالك الملك كله وحده سبحانه فلا شريك له وهو من إستخلف الإنسان في ملكه إبتلاء ومنحه هامشًا واسعًا من الحرية يكفيه للقيام بوظائف العبادة والعمارة والعدل ولكن حجب عنه ما لا يعنيه من ذلك ليذكّره أنه مهما علم وجال وصال فهو عصفور صغير في قفص مغلق. حريته الواسعة هي داخل ذلك القفص وليس خارجه. وهي حرية مسؤولة ومقيدة ويوم القيامة يحاسب عنها. فما أصابه من خير أو شر هو إبتلاء بالأساس الأول. ربما يكون جزاء سيئة إقترفها أو إشارة حمراء أن

يعود أو تأهيلا أو إستدراجًا ومدّا. كل ذلك من عنده سبحانه قدرا ماضيا ولكن لا يعفى الإنسان من المسؤولية ولا تنزع عنه الحرية. هو حرّ حرية مقيدة (حرية عصفور صغير في قفص واسع عريض لا يدرك العصفور ببصره إلا مدّ بصره ولكنه مزوّد بكل ما يحتاجه للقيام بوظيفته). وهو مسؤول عن تلك الحرية التي أكرم بها دون سواه. وهو مسؤول بقدر ما زوّد به فحسب وما أتيح له. فلم يكلّف نفسه ما يشقيها ولا تفقهه؟

من أمارات الرسوخ في العلم طلب مثل هذه المواضع ذات الظاهر المتناقض لحسن فقهها إذ لا فقه إلا لصاحب عقل مركب يعالج به الدين المركب والحياة المركبة.

50

أفلا يتدبرون القرآن؟

ورد هذا مرتين. مرة في النساء ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82]. ومرة في محمد ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[محمد: 24]. كما وردت الدعوة إلى التدبر في مثل قوله في صاد ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾[ص: 29] . التدبر مصدر من تدبر. جذره ثلاثي (د ب ر). بمعنى : إتيان الشيء من دبره أي من خلفه أو إتيانه من قدامه نفاذا إلى خلفه ودبره حتى تتسنى دقة فقهه. ضد التدبر هو التسطح وضد الدبر هو السطح أو الظاهر. المعنى إذن جلي وهو دعوة منه سبحانه إلى نفض القرآن الكريم نفضا من أوله إلى آخره ومن سطحه إلى عمقه ومن وجهه إلى دبره لأجل الكشف عما فيه. كان حبر الأمة إبن عباس يقول للأصحاب (ثوروا القرآن). أي إحرثوه وإنفضوه وقلبوه كما تقلب الأرض لتخرج ما في بطنها. ولذا نشأت مدرستان : مدرسة الأثر ومدرسة الرأي. أو مدرسة الظاهر ومدرسة المقاصد. وظهر في الصحابة إبن عمر الميال إلى التضييق وإبن عباس الميال إلى التوسعة وإعمال المقصد. مدح عليه

السلام هذا الأخير فقال عنه أنه حبر الأمة وقيل عنه ترجمان القرآن. إذا غلب على إبن عمر العلم والحافظة فهذا يغلب عليه الفقه والإستنباط والتدبر.

أمثلة على التدبر.

1. يؤكد القرآن مرات بشرية محمد عليه السلام. هل تظن أنه يريد إقناع الناس ـ مشركين وغيرهم ـ بذلك؟ أبدا. لأنهم يعلمون يقينا أنه بشر. فما المقصود إذن؟ المقصود هو الحيلولة دون وقوعهم فيما وقع فيه النصارى عندما غفلوا عن بشرية عيسى فألهوه وعبدوه فضلوا.

2. ذكر الوسيلة في القرآن مرتين فحسب ففهمناها لأنه يفسر بعضه بعضا. نيل ما عنده سبحانه لا يكون إلا بوسيلة أي بواسطة ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾[المائدة: 35]. و ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾[الإسراء: 57]. فمن أراد نيل ما عند ربه سبحانه عليه بذاك معًا : التقوى والجهاد والدعاء. كطبيب أشار عليك بوصفة ثلاثية التركيب فإن تناولتها حسب إشارته شفيت بإذنه سبحانه وإن تناولتها بحسب ما تريد أنت فلا شفاء.

3. أخبرنا بأن اليهود والمشركين أشد الناس لنا عداوة وأن أقربهم لنا مودة النصارى. علل ذلك في آخر الآية بعدم الإستكبار حتى لا يطلق الحكم بل يدور مع علته وجودا وعدما. ورد ذلك مورد الغالب في تلك الأيام فالذي يجعله صحيحا هو وجود العلة أي الإستكبار. فلو إستكبر اليوم غير اليهود أو غير المشركين فهل نعدّل أمرنا لنواجه ذلك بما يناسبه أم نظل مشدودين إلى ما كان زمن التنزيل. وإذا صح ذلك في اليهود ـ وهو صحيح ـ أفلا يصح في المشركين و النصارى. النصارى اليوم أشد علينا من المشركين. التدبر هو رعاية العلة. والقرآن معلل. أحصى إبن القيم فيه ألف موضع ثم تركه لما أيقن أنه معلل كله.

من مفاتيح التدبر.

1. التمكن من لسان العرب بأكثر ما يمكن فهو مفتاح الفهم قطعًا.

2. الإنتقال بالتصور إلى بيئة التنزيل قدر الإمكان لطي المسافة الطويلة التي يمكن أن تشغب على حسن الفهم أي محاولة إستعادة المشهد التاريخي المعيش يومها.

3. حسن فقه الرسالة الإسلامية بعمق وجماع فمن فقد العنوان الأكبر لن يصل إلى مبتغاه حتى لو تحصل على مليون عنوان فرعي كمن عنده إسم زقاق وعدد المنزل في بلاد أروبية فلن يصل مبتغاه حتى يتحصل على إسم المدينة لأن الأزقة التي تحمل الإسم ذاته بالآلاف.

4. الإحاطة بعلوم أخرى مهمة من مثل المكي والمدني والمحكم والمتشابه والمطلق والمقيد والعام والخاص والمجمل والمفصل والظاهر والنص والناسخ والمنسوخ ومناسبة النزول...

5. الجمع في عملية التدبر بين المثلث الفقهي بتكامل (حسن فقه النص وحسن فقه مقصده وحسن فقه مآله عند التنزيل أي التنفيذ). فإن تخلفت حلقة واحدة فسد المشهد كله.

6. التركيز على السياق وعدم الإنحباس فيه معا. السياق حمال من حمالات الفهم ولكن الإنحباس فيه يهدم قاعدة فقهية عظيمة (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب).

7. الجمع بين الفهم الموضعي للكلمة والآية والسورة وبين الفهم الموضوعي للقضية. والجمع بين الفهم الظاهري وبين الفهم المقاصدي. وبين موضوع السورة الأم وبين الرسالة العامة للقرآن أو للقضية محل المعالجة. أي القطع مع التجزئة والإبتسار قطعًا كاملا.

8. مراعاة الفواصل في الآيات ودلالاتها لأنها تعين بنسبة كبيرة على حسن فهم المعنى وكذلك على اللهجة المستخدمة هل هي ترغيب أم ترهيب أم تقرير أم إخبار وهل هي حادة أم لينة أي الإتجاه العام للسياق والسورة ومعالجة القضية لتعرف درجتها.

9. **إعتماد قانون:** القرآن يفسر بعضه بعضًا وما ندّ عن ذلك تفسره السنة الصحيحة أو السيرة الصحيحة وما ندّ عن ذلك يفسر بعمل الصحابة سيما لو إجتمعوا. وعادة لا

تندّ أي قضية عن ذلك المثلث (القرآن والسنة والسيرة منها وعمل الصحابة بما يشبه الإجماع).

10. الإستعانة على حسن الفقه بمعافسة الواقع وفهم أحوال الناس وكذا بدراسة التاريخ دراسة جادة فهو يعيد نفسه في الأعم الأغلب ولكن بتبدل الزمان والمكان والأبطال.

51

عندما تصبح الهجرة فريضة دينية عينية..

أحيانًا نردد كلاما لا رصيد له في الدين. أكثرنا لم يتربص في محاضن دينية ومن فعل ذلك ما زادته تلك المحاضن شيئا يذكر في علمه إذ المعوّل عليه العلم ثم تكون التزكية إلا للطفل الذي لا يستوعب العلم. أكثرنا لم يبذل جهدا لنهل العلم من مظانه المعروفة أو إستعجل فلم يصبر. من ذلك قولنا في الهجرة قولا لا رصيد له. ولنا آيات بينات في سورة النساء.

من عرّض نفسه للفتنة عن دينه فلم يهاجر مأواه النار.

إقرأ هذا ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾[النساء]. الحديث عن مؤمنين في مكة رضخوا للفتنة القاسية المسلطة عليهم من لدن قريش وأبوا الهجرة وكانوا قادرين عليها حتى ماتوا وهم على ذلك. الإسلام نفسه لم يأت للناس لأجل دعوتهم فحسب دون رعاية ظروفهم وأحوالهم. لا. بل جاء إلى الناس يبثّ فيهم أوّلا الوعي بقدسية حريتهم ورفعة كرامتهم فإذا تغذت أوعيتهم بذلك الشعور الفطري العظيم دعوا إلى الله وعندها يندر جدًا ألا يؤمن الحر إلا متكبرًا إستبد به الكبر. والحقيقة أن الكبر

والحرية عدوان لدودان لا يلتقيان إذ التحرر المقصود أوّلا هو التحرر من الهوى. لو لم يخش عليه السلام على أصحابه فتنة ـ أي إكراها من قريش يصدهم عن دينهم ـ ما هاجر بهم ولا أمر بالهجرتين إلى الحبشة ولا هاجر هو نفسه إلى ثقيف. ولذلك كانت الفريضة في تلك الأيام ـ من بعد الإيمان ـ الصبر والثبات ولزوم الجماعة في دار الأرقم في لقاء دوري تنظيمي يفرغون فيه من لوثات الجاهلية ويملؤون بنور الإيمان. فلما إشتدت الفتنة عليهم هاجروا كرها لأجل مساحة جديدة فيها قدر من الحرية يمكنهم من ممارسة عقيدتهم وعبادتهم في الحد الأدنى. الدين مساحتان : مساحة فردية شخصية خاصة وهي كذلك متركبة من منطقتين : منطقة في القلب لا يعلمها سواه سبحانه وهي منطقة العقيدة التي يمكن إسرارها إلى حين. ومنطقة العبادة أي الصلاة التي فيها حركات وأقوال وجهر يجعل الناس ينتبهون لذلك. فهذه لا بدّ منها ولا تسقط بعذر الخوف من الفتنة أو الإكراه ومن سقطت عنه لزمن فما عليه سوى أن يبحث عن مكان يهاجر إليه ليزاول العبادة لأنها قرين العقيدة ولا ترخّص فيها. ومساحة مشتركة تكافلية وهذه يمكن تأجيلها لأنها تحتاج لا إلى الحرية فحسب بل تحتاج إلى رقعة أرض وأمة من الناس وقوة ومال أي إلى دولة وحكم.

لذلك كانت الهجرة فريضة على كل صحابي وصحابية قبل فتح مكة إذ « لا هجرة بعد الفتح ». نحن اليوم نتحدث عنها حديثًا نظريًا ولكن الناس إلتظوا بنارها وليس هيّنا أبدًا أن تترك دارك وبلادك ومالك وربما ولدك وزوجك أيضا ثم تهاجر إلى أرض جديدة ليس لك فيها شيء إذ تأوي إليها فقيرًا معدمًا لا تملك سترا لعورتك ولا قوتًا لبطنك. لذلك فضل الله المهاجرين طبقة أولى من طبقات البشرية بعد النبوة مباشرة.

هل تصدق أن يدخل النار مؤمن رضي بالفتنة وأبى الهجرة.

الآية صريحة. هؤلاء مؤكد أنهم لم يصلّوا أو أكرهوا على قول الكفر مرات ومرات. لا يشمل العفو سوى المستضعفين ولذلك ذكر الولدان والنساء والمؤكد أن الرجال هنا من الشيوخ. نحن اليوم لبعد المسافة التاريخية لا نستوعبه. الإسلام دين ليس له عنوان سوى عنوان واحد إسمه : الحرية ولا شيء غير الحرية. جاء ليحرر الناس أوّلا.

فمن تحرر منهم عرض عليه نفسه وخيّره ناسبًا المشيئة إليه لأوّل مرة وآخرها ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف: 29] . ليس الإسلام مسيحية يرضى منك ـ من بعد ما رضيت به أنت ـ بعقيدة ساكنة في القلب. إنما هو دين جامع فيه العبادة وفيه الخلق وفيه المعاملة وفيه الأسرة وفيه معركة الحياة كلها بحلوها ومرها. دين مثل هذا لا بدّ له من دولة وحرية وقوة وصفّ واحد وقيادة وأمة وتكافل. ولكن الحد الأدنى هو الصلاة التي تصبحنا وتمسينا على مدار الحياة. هذا أمر لا يمكن الإسرار به دومًا. لذلك كانت فريضة الهجرة على القادر فرارًا من الفتنة والإكراه وبحثًا عن مساحة حرة لتنفيذ الدين وتنزيل تكاليفه.

هذا أمر معيش .

السوريون الذين يهاجرون ـ بل يهجّرون ـ من أرضهم كرها وهم ألوف مؤلفة بل ملايين مملينة. هؤلاء لا مكان لهم في سوريا من بعد فقدان الأمن. والأمن شرط مشروط للحرية. والحرية شرط مشروط للعبادة وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. هذه حالة من حالات الهجرة التي نراها بأم أعيننا. ذلك هو حكم الهجرة في حق كل من أكره في دينه فلم يعد يمكنه تنفيذ الحد الأدنى منه من مثل الصلاة. هذا وقع مثلا قبل عقود للبلدان الإسلامية التي كانت محتلة من لدن الشيوعية وعندي منها قصص واقعية مثيرة جدًا تذكرك بالعهد النبوي والله. ولكن عندما نخلط ذلك مع كلام آخر عن الوطن والوطنية .. يجب أن نفيئ دومًا إلى المعيار الشرعي عندما يتبين لنا خيطه الأبيض من خيطه الأسود. لا أصدق أن هناك آدمي فوق الأرض يهجر أرضه وأهله طوعا لا كرها. هو مكره قطعا لأسباب مالية أو سياسية أمنية أو علمية أو إجتماعية (طلب نكاح مثلا) أو لأي سبب آخر. الحديث عن المهجّرين والمهاجرين وليس عن العملة الذين يغدون ويروحون في أمن وسلام.

تحصل لدي إذن أن الحرية أغلى من كل شيء إذ هي من يوفر للتدين مكانا. كما تحصل لدي أن الإنسان أغلى من أن تدوسه أقدام الفتنة و﴿تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾.

52

صلاة الخوف : عبر مكنوزة.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[النساء: 102]

الصلاة الوحيدة التي بيّنها القرآن الكريم هي صلاة الخوف و خصص لها صفحة كاملة. لم؟

العبرة العظمى هي : الدين مطلوب ولكنه لا يعيق الحياة.

أكبر نكبة فينا ومنذ قرون هي أن الدين والدنيا في حياتنا مساحتان مستقلتان بينهما برزخ لا يبغيان بل ربما كان الطعم هنا عذبا زلالا وهناك ملح أجاج. في الفقه- أي عندما يكون مطلوبا منا التمييز لأجل دقة الفهم- لا يخجلنا أن نجعل من الدنيا دينا فنفتري على الله كذبا بتحريم ولاء سياسي لنا فيه مصلحة وليس لهم به علينا سلطان. ولا يخجلنا أن نجعل من الدين دنيا فنعطل شعيرة الأضحية بدعوى المحافظة على الثروة الحيوانية. أما في الحياة- أي عندما يكون مطلوبًا منا عدم التمييز بين المساحتين لأن كلاهما عبادة خالصة لله ولأجل عدم تعريض الشخصية الإنسانية بذلك التمييز للإنفصام- فإنه لا يخجلنا أن نرعى حق الله في الصلاة ثم نخون عهود الناس في الحياة. تلك هي أكبر نكبة أصابت الأمة ومنذ زمن سحيق بعيد. أي عدم التمييز بين المساحتين عندما يكون ذلك مطلوبًا لأجل تحسين العلم. والفصل بينهما عندما لا يكون ذلك مطلوبًا لأجل تحشيد الطاقة الإنسانية كلها لقصد واحد هو رضى الرحمان سبحانه. صلاة الخوف مثال رائع يختلط فيه الدين بالدنيا إختلاطا عجيبًا وما عليك سوى رعاية حق كل منهما فلا يعوّق هذا بسبب ذاك ولا ذاك بسبب هذا.

الصلاة هي الفريضة الوحيدة التي تغشانا بمعدل زهاء أربع ساعات على مدار الحياة. وحتى بحساب الجمع بين رخصتي الجمع والقصر فيها لتكون ثلاث محطات فحسب في اليوم والليلة بدل خمس فإن المعدل يظل قريبًا أي نصلي كل ثماني ساعات على مدار الحياة. وهي الفريضة الوحيدة التي لا تسقط أبدًا البتة ما كان الوعي حاضرًا ولو تمتمة بالشفاه أو إشارة بأنملة بل حتى بصلاة قلبية لا يشعر بها سواك. هي أول ملف يفتح في وجهك يوم مثولك أمام محكمة التعقيب الأخيرة لتصدر لك أو عليك أعظم حكم في وجودك.

في الصلاة : حذر وأسلحة ورقابة ونظام مدهش.

وردت كلمة الأسلحة هنا أربع مرات ووردت كلمة الحذر هنا كذلك مرتين. ولا تقام صلاة الخوف إلا بإمام واحد لمجموعتين تصلي الأولى منهما متأبطة أسلحتها في سجودها وركوعها وهي محروسة بمجموعة أخرى لا وظيفة لها عندئذ سوى وظيفة الحراسة المسلحة فإذا فرغ الإمام من الركعتين الأوليين جاءت المجموعة الثانية لتؤدي الصلاة مع الإمام نفسه متأبطة سلاحها غير غافلة عنه وهي في صلاة وتقوم المجموعة الأولى بالحراسة. وبذا تؤدى الصلاة فريضة لا تتخلف حتى مع القصر والجمع وتؤدى معها فريضة الدنيا أي تأمين الناس ومحاولة تحقيق النصر. هذا مشهد أسّرني وشدّني. أي دين هذا ونحن عن قيمه ومعانيه غافلون. تلك هي صورة الحياة التي يريدها منا سبحانه. أي حياة فيها الحرب والسلم بالضرورة والخوف والأمن والفقر والغنى والمرض والعافية والقلة والكثرة والظعن والإقامة. حياة يقام فيها الدين والدنيا معا فلا يعوّق الدين بالدنيا بدعوى التفرغ للعمل أو كسب الرزق أو قلة الوقت. الصلاة التي تغشاك مرات في اليوم لا تستغرق منك سوى دقائق معدودات وفيها رخص القصر والجمع فضلا عن رخصة التيمم والتخلف عن الجماعة وجعلت لك الأرض مسجدًا وطهورًا. ولا تعوّق الدنيا بالدين بدعوى التفرغ للعبادة أو طلب الآخرة أو إيثارها إذ الدنيا بما ركّبت عليه هي قاعة الإمتحان وما يصيبك فيها من خير أو شر هو مادة الإمتحان. فمن أجّل دنياه لأجل دينه فهو طالب لم يلتحق بقاعة الإمتحان. أنّى له

بالفوز؟ أليس بالدنيا تكسب عافية وقوة تجعلك تصلي قائمًا لا قاعدًا وفي المسجد لا في البيت وتتصدق لتكون من المحسنين وتصوم فتثاب بأجر خاص وتحج وتعتمر وتساعد العجزة وتجاهد بلسانك وقلمك ويدك فينتصر بك الإسلام ويتأخر المعتدون وتفعل خيرًا لا حدود له؟

صلاة الخوف ومقاصد أعظم وأكبر.

1. عندما نصلي جماعة ـ أي على فرقتين أو أكثر بحسب حاجيات الأمن ـ ونحن في حالة خوف (ليس بسبب الحرب فحسب بل بسبب كل خوف) فإن رسالة علينا إلتقاطها هي : أنتم أمة واحدة متكافلة تكافلا روحيا وماديا حتى في أحلك ساعات الخوف فلا سبيل لشق صفكم الواحد. من عادة الناس في الخوف التفرق بحثا عن خلاص فردي.
2. عندما نجمع بين الفريضة الدينية (الصلاة) وبين الفريضة الدنيوية (إستجماع شروط النصر) فإن الرسالة هي : خلقت ما أشاء لتكون عبادتهم روحًا لا مادة فيها وخلقت ما أشاء لتكون عبادتهم مادة لا روح فيها وكلاهما يعبدني كرهًا. ولكن تكريمًا للإنسان وتحريرًا بسبب مسؤوليته على الأرض فإني خلقته عابدًا طوعًا روحًا ومادة معًا.
3. عندما نأخذ بأسباب الحيطة والحذر أن ينهال علينا العدو ونحن منهمكون في العبادة الكاذبة تكون الرسالة هي : الدين وحده لا يكفي لعمارة الأرض ولا لدحر العدو والدنيا وحدها كذلك لا تكفي لذلك فلا بد منهما معا مجتمعين. الدين يحض على جمع الأسباب وتوفير السنن وحشد الشروط فإن هزمتم لسبب ديني فإن الدين منكم براء.
4. عندما نفعل ذلك والعدو ـ أو الشاهد ـ يرقبنا ولو بالأثير كما يقع اليوم فلعل ذلك يكون أبلغ في قلبه أن تنفذ إليه نطفة الإيمان. للناس عقول مثلك وهم يحدثون أنفسهم في ساعات معينة مثلك ويقلّبون الأمر مثلك فلا تظنّنّ أنهم أحمرة بكفرهم أو بغالا. أنت داعية حتى مع عدوك في ساحة حرب.

53

عندما ينتصر الله ليهودي مظلوم ..

قرأت هذا الكتاب مئات المرات فما وجدت فيه شيئا غلّظ في التشديد عليه مثل العدل و القسط. ولا شيئا هو محل نكير و بغض مثل الظلم و العدوان و البغي. تلك هي حصيلتي من هذا الكتاب العظيم. حتى التوحيد الذي هو المطلوب الأول إنما هو مندرج ضمن قيمة العدل إذ المؤمن بربه سبحانه يلتزم العدل بعبادته لأنه لا يليق به أن يعبد غير وليّ نعمته. إرتقت قيمة العدل عنده سبحانه حتى قال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾[النحل: 90] . و ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِ﴾[الأعراف: 29] . وعندما يأتي الأمر بجملة إسمة مؤكدة ويكون الآمر الله نفسه بإسمه العلم المفرد ويكون الفعل بالأمر لحمًا ودمًا - أي بالجذر اللغوي نفسه - .. عندما يحاط العدل بكل تلك الآليات اللغوية والمعنوية فإنك لا تتردد في القول أن رسالة الإسلام : العدل ولا شيء سوى العدل. بعضنا لا زال يظن أن العدل خطاب سياسي وليس هو قيمة أخلاقية عظمى لا يندّ عنها شيء.

أصل القصة.

وقعت سرقة في عهده عليه السلام - سرقة درع - ولمّا إشتكى المسروق إليه عليه السلام باشر التحقيقات فكان سيرها العادي يوشك أن يفضي به إلى مجموعة من الناس. فلما رأى هؤلاء أن أمرهم على وشك الإفتضاح دبّروا مكيدة قوامها أن يلقوا بالبضاعة المسروقة في بيت يهودي دون علمه. ففعلوا وأذنوا لأذنابهم أن يتحدثوا بين الناس أن السارق قد يكون اليهودي الفلاني. مما جعل إتجاه التحقيقات يأخذ طريقا آخر حتى وقف على عتبة بيت اليهودي الذي لا يعلم عن المكيدة شيئا. وعندما وجد المسروق في بيته وهمّ بالقبض عليه جاء الوحي يترى مبرئا اليهودي وحصل ذلك في صفحة كاملة من القرآن الكريم (النساء) بل أزيد مبتدئا بقوله ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾[النساء: 105] . ومنتهيا بقوله ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ﴾[النساء: 113]. الإضلال هنا ليس عقديًا بل هو إضلال عن السير المستقيم لمجرى التحقيق.

ما هي العبر التي علينا إلتقاطها.

1. كان يمكن للوحي ألاّ يلتقط هذه القصة فلا نعلم بها نحن اليوم. وهل إلتقط الوحي لنا من القصص والأمثال كل ما حدث في التاريخ؟ أبدًا. ولكنه إنتخب لنا الأكثر نفعًا لنا. بل كان يمكن ـ كما نفعل نحن اليوم ـ أن يغضّ الطرف عن المسألة مادام المظلوم فيها يهوديًا وهو نفسه القائل ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ﴾[المائدة: 82] . كيف وهو القائل في موضع آخر ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾[المائدة: 8] . وأي علاقة في حياتنا اليوم بين قيمة التقوى وبين قيمة العدل؟ نشأنا على أن التقوى صلاة ومسجد وذكر. أما العدل فهو خطاب سياسي يعد به السياسيون المرشحون لمناصب المسؤولية. أمّا أن يكون العدل أقرب إلى التقوى فهذا فقه مدوّن في الكتاب ولم تحمّل به حياتنا.

2. هؤلاء الذين رموا اليهودي البريء زورا بالسرقة شنّ عليهم حملة ضارية فسمّاهم خائنين. و يختانون أنفسهم. وخونة آثمين. ومن الذين يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله. وأنهم عملة سوء. وظالمين لأنفسهم. وكسبة إثم وخطيئة. وأصحاب بهتان وإثم مبين. ومضلين يضلون رسول الله عليه السلام حتى يأخذ بريئا بجريرة ظالم. وأنهم أهل شقاق ضده عليه السلام. هل تجد مثل ذلك في أي عمل آخر حتى لو كان الشرك أو الكفر؟ أفدت من هذا الكتاب هذه القاعدة الجليلة في الحياة : كن ما شئت (كافرا بأي لون : شرك أو نفاق أو ردّة أو يهودي أو مسيحي أو دهري مادي إلخ..) في هذه الدنيا وتحمّل مسؤوليتك وحدك يوم القيامة. ظالم عندي موعود بالعذاب الأليم من يكرهك على أي دين حتى لو كان الدين الذي إرتضيته لك ولغيرك. وأشدّ ظلمًا منه من يؤذيك بعشر معشار كلمة أو إشارة بسبب دينك مهما كان دينك. كن ما شئت فأنت حرّ بشرط أن تتحمّل مسؤوليتك يوم تلقاني. ولكن لو ظلمت أحدًا أو إعتديت على أحد في نفسه أو ماله أو عرضه بغير وجه حق فإن لك عقوبتين واحدة معجّلة في الدنيا وأخرى مؤجّلة إلى الآخرة.

لم كان مخ الإسلام هو العدل؟

1. من يرتوي بقيمة العدل لا بدّ أن يؤمن بالله سبحانه إذ العدل يهدي إلى الإيمان. عندما

يفكّر الإنسان بعدل فإنه لن يلفى ربّا ولا إلهًا ولا حاكمًا ولا معبودًا غيره سبحانه. فالعدل في الإيمان والعقيدة هو أن تفكّر بملء عقلك مستقلا حرّا لتجد أن الذي خلقك فسوّاك فعدلك وحباك وغذاك هو الأجدر بالعبادة والأحرى بالتقوى.

2. العدل قيمة جبلّية في الإنسان مغروزة فيه فهو ينشد العدل لنفسه بالفطرة وعندما يشتهر العدل في المسلمين وينتشر خبره فإن غير المسلمين سيفرّون إلى حيث العدل والقسط والحرية والكرامة والإنصاف والمساواة. حدث هذا في التاريخ إذ أسلم يهودي في عهد عليّ عليه الرضوان بسبب ما رأى من قاضيه الذي أنصف اليهودي ضدّ عليّ نفسه وهو رئيس البلاد إذ أن القاضي لم يجد أي دليل على ملكية عليّ للبضاعة محلّ الخلاف وهي في يد اليهودي.

3. العدل هو حمّال العمران وضامن الخير ورغد العيش والأمان بين الناس الذين ينتشرون في الأرض تعميرًا بالخير كلما إنتشر العدل والأمان والسلام فيتعارفون ويتعاونون ويتكافلون فإذا إنقبض العدل خاف الناس على أنفسهم وأموالهم وأهليهم وبذا تنقبض الحركة في الأرض وينقبض معها الخير ويبدأ الظلم في الإنتشار وتتحول الأرض إلى غابة للذئاب المفترسة. وعندها لن يكون هناك حديث على دين بل على نفاق.

54

الحكم بما أنزل الله أو الحكم بغير ما أنزل الله...

عندما يضيق بضجيجنا الأفق الرحب تضيع الحقائق ويتطاول التعالم. الحكم بما أنزل الله قضية إختلط فيها حق بباطل. لنحرر فيها خلاصات بقدر ما تسمح به هذه المساحة الضيقة.

1. قيام أمة الإسلام ببناء مؤسسات سياسية وقضائية وعلمية وإدارية ومالية للحكم بين الناس بالعدل فريضة جرى بها التاريخ تنفيذا للوحي وحفظا لمصالح الناس وهي من الشأن العام الذي لم يحط بالتفاصيل بل بكليات وقيم ومقاصد فلا تجمد حياة الناس

على صور نمطية ولا يندّ عنهم بالإجتهاد عصر حتى ينحتون له ما يناسبه في ضوء تلك الكليات.

2. الحكم بما أنزل الله ليس مقصورًا على حقل في الحياة دون آخر ولكن معيارين يجعلان منه ـ أو من ضده ـ جريمة قاسية أو رأسمال الحياة. معيار معنوي ومعيار عام. بالمعيار المعنوي يكون الحكم بما أنزل الله فريضة لا رخصة فيها في حقول ثلاثة (الإيمان والعبادة وحقوق الناس). فمن لم يحكم بما أنزل الله فيها فهو الفاسق أو الظالم أو الكافر. وهو المعيار الذي يشمل كل مسلم لا فرق فيه بين حاكم ومحكوم. وبالمعيار العام يكون الحكم بما أنزل الله فريضة لا رخصة فيها في حقلين (السياسي والقضائي). وهو المعيار الذي يعرّض الحكام إلى الكفر والظلم والفسق أكثر من غيرهم ولكن غيرهم ليس معدودًا ضمن المتفرجين أو السائحين بل هو مسؤول إبتداء وإنتهاء. علة هذا المعيار هو أن الحقلين (السياسي والقضائي) يمتدان بأثرهما بعيدا جدا في الزمان وفي المكان وفي الإنسان فإما عدل ـ أو غلبة عدل ـ يكرم الإنسان ويحرره أو قهر ـ أوغلبة قهر ـ يسترقه.

3. كل مسلم هو مسؤول إبتداء أن يستظل الحكم بغير ما أنزل الله بسمائنا وذلك عندما يتأخر عن أداء شهادته السياسية في موعد إنتخابي وبأي دعوى كان تأخره أو يشهد شهادة زور وهو يعلم. وهو مسؤول إنتهاء عندما يتأخر عن الإصلاح منفردا أو في قافلة أو ينتقي الإصلاح الذي لا شوكة فيه من مثل مقاومة التعري والقهر السياسي يطحن الناس. قال الدكتور الريسوني (من تدين ولم يتسيّس فقد ترهبن ومن تسيّس ولم يتدين فقد تعلمن ومن تدين وتسيّس فقد تمكن). المسلم الذي يتأخر عن الشهادة السياسية أو يؤديها بالزور حكم بغير ما أنزل الله قطعًا. فإذا تأخر عن قافلة الإصلاح السياسي عندما تشكو نقصًا أو تحتاج مثله فقد حكم بغير ما أنزل الله كذلك قطعا. ولا حديث عمّن يبيع آخرته بدنيا غيره فيفتري على الله الكذب بقوله أن الخروج ـ أي الثورة ـ ضد الحاكم الفلاني معصية أو أشد من ذلك. شر هذا في الحكم بغير ما أنزل الله أشد من ذلك الحاكم نفسه.

4. كل حاكم هو مسؤول كذلك إبتداء وإنتهاء عن الحكم بغير ما أنزل الله. فإن غلب على الناس بشوكة السلاح لا ببيعة الرضى فقد حكم بغير ما أنزل الله إلا أن يكفّر عن ذلك بتحري العدل والحق وأسباب القسط ما إستطاع فإن لم ترض به الأمة رغم ذلك فحقّه التنحّي وإلا رسّخ نفسه في جريمة الحكم بغير ما أنزل الله. هذا الخليفة الراشد الخامس عليه الرضوان توسل السلطة وراثة ـ والوراثة هي أشد أنواع الحكم بغير ما أنزل الله ـ ولكنه بعدله وقسطه جبر عن نفسه ذاك سيما أنه لم يبتدع شيئا من عنده بل كان عمله كعمل يوسف عليه السلام ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾[يوسف: 55].

5. شروط ثلاثة للخروج من مرحلة الحكم بغير ما أنزل الله إلى مرحلة الحكم بما أنزل الله. فقه تلك الشروط والتكافل عليها أجدى لنا من النعيق بتطبيق الشريعة التي أريد لنا أن نقصرها على جانبها الجزائي فحسب وأن ينفذها فينا فئة معلومة فحسب. الشرط الأول عنوانه الإخلاص وعلامتاه الصبر والحلم. الشرط الثاني عنوانه المشاركة في قوافل الإصلاح السياسي فإن تعذر فيها وعاء واحد وهو متعذر فطرة وواقعا وتاريخا فالحد الأدنى هو الإئتلاف في الأهداف العليا والوسائل الكبرى. الشرط الثالث عنوانه رسوخ العلم بفقه السياسة الشرعية وعلامات ذلك الفقه ثلاث : إعتبار أن مرجع مشاكلنا كلها هو غياب الحرية والكرامة والعدالة ووحدة الصف المرصوص والمتنوع فإن تكافلت قوافل الإصلاح على هذا المرجع المفتاح فهي تتقدم على الطريق الصحيح وإن إختارت ما هو أسلم لها فلن تظفر الأمة منها بشيء كبير. العلامة الثانية هي : سلوك التدرج ذلك الطريق الطويل الذي لا يكابده إلا مخلص نهل من معين الصبر أو كرع من غدران الحلم. العلامة الثالثة هي: إلتزم المنهاج الإسلامي في الإصلاح أي البصيرة علمًا ومعرفة والحكمة عرفًا وحالاً والبلاغ المبين بلين ورفق وتواضع.

6. تجري على الإنسان والأمة ضرورات عدّ لها الشرع عدّتها. فمن حكم بغير ما أنزل الله ـ في أي حقل وبأي معيار مما أنف ذكره وسواء كان المعني حاكمًا أو محكومًا ـ وهو مكره ألجأته الضرورة وقلبه مطمئن بالإيمان فعليه تقدير الموقف وتقدير الضرورة وبناء ميزان المصالح والمفاسد توافقًا مع أهل الذكر. الوضع مقيس إما على حال يوسف

عليه السلام أي وزير مالية يخطط لمواجهة عقد ونصف من الزمان ولا يعنيه ما يدور في القصر الملكي. وإما على حال ذي القرنين أي يقدم توفير الأمن للناس وإما على حال صاحب موسى (الخضر) أي تحمل الضر الأدنى للفرار من الأقصى حدبًا على الأيتام أو على حال موسى نفسه عليه السلام إذ خطط لإخراج بني إسرائيل تحريرًا لهم من فرعون أوّلا وليس دعوتهم. أو على بلقيس في معركة ذكاء وحيلة ودهاء بينها وبين سليمان عليه السلام مخالفة أمر جيشها من بعد يأسها من تمشيها الشوروي معهم. هي أقيسة قرآنية في قصص قرآنية عرضت علينا للإتساء لا للتسلّي.

خلاصة : الحكم بغير ما أنزل الله واقع فينا ومنذ قرون عريقة بتفاوت حقلًا ومكانًا وزمانًا وحجمًا وأثرا في مصالح الناس. عندما يتوقف الوعي به على النعيق والضجيج أو يفضي إلى توزيع صكوك التكفير والتفسيق بسخاء فذاك عين الحكم بغير ما أنزل الله. ذاك وضع كلنا مسؤولون عنه بتفاوت إذ لو حفظنا السفينة التي تقلّنا جميعًا لنجونا جميعًا. الحكم بما أنزل الله الآن هو : المشاركة في الإصلاح بهدوء وحلم وصبر وبصيرة وعلم وخبرة.

55

بين التوبة مما فات و تحريم الحلال مسافة رشد.

تحريم الحلال عدوان لقوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ ﴾[المائدة: 87] . تكرر هذا فقال العلماء : إثم تحريم الحلال كإثم تحليل الحرام إذ يشتركان في الإفتئات ضد من يملك التشريع سبحانه. وظيفة الحرام هي حماية الإنسان ليؤدي مهمته التي لأجلها خلق.و وظيفة الحلال هي الإذن له بالإنطلاق كدحا على الدرب دون معيقات. فلسفة الحلال والحرام في الإسلام هي فلسفة قانون الطرقات العالمي نفسه ولله المثل الأعلى.

مثال على تحريم الحلال.

إتصل بي صديق قائلا أنه قدّم خدمة مهنية لزبون ومن بعد قبض أجره تبيّن له أن الزبون تاجر في المنهيات الشرعية وأن ماله كله أو جزء كبيرًا منه من مصدر محرّم دينا. أخبرته أن المعاملة المالية في الإسلام ترتكز على قواعد راسخة ـ قواعد مفهومة لأننا هنا في مساحة الدنيا وليس مساحة الدين ـ منها أن الحرام لا يتعلّق بذمّتين. معنى ذلك أنك مسؤول في مالك حال الكسب على طريقة الكسب وليس على مصدر المال قبل وصوله إليك. فإذا كان عملك في حقل مباح وكان كسبك المال فيه بطريق مباح فلا تسأل عن مصدر ذلك المال قبل وصوله إليك ولا حرج عليك لو علمت من قبل ذلك أنه مال حرام في أصله أي أن شريك المعاملة فيه خمّار مثلا أو مراب أو غير ذلك. وهنا دليلان : أولهما أنه هو نفسه عليه السلام ومعه صحابته كانوا يتعاملون مع اليهود في المدينة ويأكلون منهم والمعلوم أن غالبهم يومئذ مرابون وكسبوا أموالهم بطرق فيها كثير من الحرام (أكل لحم النعجة المسمومة من يهودية في خيبر ـ غنائم الطائف وكانت تملأ الوهاد والنجاد إلخ..). إذ لم يكونوا يسألون عن مصدر المال. وهل يسأل مغلوب في حرب عن مصدر ماله فإن كان مباحا أخذ وإن كان حرامًا أعيد إليه؟ وثاني الدليلين ـ وهو دليل مقاصدي والمقصد دليل كما قال الشاطبي وإبن عاشور ـ هو أنه لو وقع تحريم أخذ المال الذي مصدره حرام لتوقفت الحياة فوق الأرض بالكلية إذ أنه اليوم لا وجود لدولة تنتج ما تحتاجه من أرضها فلا تستورد شيئا. والدولة نفسها تنتج أموالا محرمة متأتية من الربا والزنى والمال المسروق الذي تقبض عليه ثم تبيعه في مزادات علنية فضلا عن أرباح الخمر والقمار والميسر إلخ.. ولم تأت الشريعة لتعطيل الحياة وهي تعلم أنها ملأى بالحرام ولكن إقتصرت على تحريم المال كسبًا على المؤمن بطرق يجترحها هو من مثل الغش والظلم والزور والإرتشاء إلخ.. إذ لو سأل كل واحد منا مؤجره أو شريك معاملته عن مصدر ماله ما ظفر بشيء لأنه هو نفسه يجهل ذلك في حالات كثيرة. حاول أن تحيا يومًا واحدًا لا ترتفق بشيء يأتيك من غيرك ثم قل الحمد لله أن الشريعة لم أضعها أنا ولا غيري بل تنزيل من حكيم حميد.

التوبة من ماض فات.

وأما التوبة من ماض فات فلنا فيه قوله ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ ﴾[المائدة: 93] . مناسبة نزولها ـ وهو شبيه بما يدور بيننا اليوم ـ هو أن أهل الكتاب والمنافقين بثّوا كلاما في المدينة ـ لما حرمت الخمر بالكلية في آخر محطة لها ـ قوامه أن المسلمين في بطونهم الخمر التي كانوا يشربونها قبل التحريم فأنّى لهم بتوبة؟ وجد هذا الكلام له مستظلاّ فتحرّج الناس ونزل الوحي يضع الموازين القسط. الأمر نفسه يسأل عنه المرء اليوم : فلان الذي كان مرابيًا أو خمّارًا أو ورث مالا حرامًا أو تاجرًا في مال حرام .. يريد الحج أو الإعتمار أو التصدق وفعل الخير. وتسمع عجائب وغرائب من حماقة بعض المتصدين للإفتاء من الذين يطلبون منه الخروج من ماله كله إذ لا يقبل منه شيء أبدا مادام ماضيه كان كذلك. هل طلب عليه السلام من أصحابه الذين أسلموا شيئًا من ذلك ومنهم أغنياء؟ أم أنهم كانوا في الجاهلية بدعًا من الناس لا يتسلل المال الحرام إليهم؟ هؤلاء الذين تحرجوا هنا هل طلب منهم الخروج من مالهم أم طلب منهم الكف عن الحرام فحسب؟ عجب عجاب يدور في العقول التي يوهمك ظاهرها أنها تقية لكثرة الأسئلة الفارغة ثم تكتشف أنه التصنع والتكلف والكذب والتضييق على الناس فحسب وليس على النفس. فمن كان ماله كله حراما قبل توبته ـ بل قل قبل إسلامه أصلا ـ فما عليه سوى إخلاص التوبة والإكثار من التصدق وفعل الخير ومباشرة حياته بعفو ويسر وتوازن ولينعم بماله الذي إكتسبه من مصدر حرام قبل توبته فهو رزق ساقه الله إليه ليبتليه فيه إلا إذا كان يعلم أن جزء من ماله ذاك هو ملك لمالك آخر فما عليه حينئذ سوى إرجاعه إليه إذا كان يعلمه أو إلى أوليائه وورثته ولكن في كل الحالات فإن التصدق الكثير يغفر ذلك ويجبره برحمته سبحانه. الذين يقبلون علينا في ألمانيا مثلا يريدون الإسلام هل نقول لهم أخرجوا من أموالكم كلها؟ وهي أموال فيه الحرام وفيها الحلال طبعًا. أم هل نفتح مكتبا لإعادة تصنيف تلك الأموال؟ أي نعيد فضيحة صكوك الغفران المسيحية. صاحب الشريعة يقول لنا : توبوا ولا تقنطوا وأطووا الماضي بما فيه. بل يقول إن سيئاتكم أبدّلها حسنات. ونحن نفتئت

عليه في ليّ عجيب؟ أليس ذلك هو الذي أغضبه على بني إسرائيل؟ أليس يغضبه أن يدعوك إلى التوبة وهو يعلم ماضيك وأنت تتردد بألف سؤال إسرائيلي؟

فما العلاقة بين توبة من الماضي وبين تحريم الحلال؟

الناظم بينهما ـ أي بين من يتحيّل لتعويق هذا وذاك ـ هو عقل لم يفقه الدين حق الفقه ولم يعرف ربه سبحانه بل هي نفس إسرائيلية الهوى تستكثر عليه سبحانه أن يكون غفورًا صفوحًا حليمًا إلى هذه الدرجة أو تستكثر على الإنسان المكرم أن يفوز برحمته من بعد عقود طويلات من الحرام. هي نفس إسرائيلية لا تحب الخير للناس وتعترض على رب الناس أن يكون كذلك. وذلك هو بعض من معنى قوله عليه السلام « فأبواه يهودانه » أي تجعل منه البيئة الفاسدة التي نشأ فيها عقلا يهوديًا ماديًا خالصًا يقيس الله بالمصارف المالية التي لا تقرض أحدًا في سبيل الله إلا بفوائض مالية تطحنه طحنًا.

56

الدين كلمات ثلاث فحسب : شهوة مبسوطة وإبتلاء وإيمان بالغيب.

ظهر لي ذلك في قوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ ﴾[المائدة: 94]. آية لخصت لي قضية الإيمان والإسلام وقصة الدنيا.

شهوات مبسوطة تنالها الأيدي والرماح.

كان ولع العرب بالصيد معروفًا ولم يكن ذلك سلالة آدمية فحسب إذ كان الإنسان الأول يعتمد في عيشه على الصيد بل كان ذلك ـ ولا يزال ـ شهوة كأي شهوة. أعرف من لا يحجزه شيء عن الصيد رغم كبر سنه ويقتني لذلك أفخم السيارات وأقواها. آية آل عمران جمعت الشهوات كلها في أصل واحد ﴿ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ﴾[آل عمران: 14]. سبعة أصول

للشهوة. أولها شهوة النساء التي قال فيها عليه السلام في حديث صحيح « ما تركت في أمتي من بعدي فتنة أشد عليهم من فتنة النساء ». بعض المتدينين يظنون أن ذلك رجس وما ينبغي للإنسان أن يكون كذلك. لا. ذلك ضرب من التفكير السقيم يفضي إما إلى التبتل المحرم في الدين أو إلى الصمود لسنوات طويلات ثم تندلق أقتاب الشهوة العارمة وتستطلق بطنها فلا رادّ لها حتى لو حيزت له حسناوات الأرض كلها في أبهى زينة وأبهى حلّة. التفكير الذي يسيء توظيف الغريزة هو تفكير مضرّ. أنت طالب وتجتاز إمتحانا والأستاذ وحده هو من يختار مادة الإمتحان وسؤاله فإمّا أن تستعدّ وإمّا أن تغادر الدرس غير مأسوف عليك. ولله المثل الأعلى سبحانه. المرأة في الدنيا هي شيء من الصيد الذي تناله أيدينا ورماحنا. ومثلها البنون هل تكون من نطفة حلال أو حرام أو تبنّيا محرّمًا. ومثل ذلك الأموال العينيّة قناطير مقنطرة لا يشبع منها الإنسان و« لا يملأ جوف إبن آدم إلاّ التراب ويتوب الله على من تاب » كما قال عليه السلام. أليس الناس اليوم يذبح بعضهم بعضًا لأجل المال؟ تأمّل معي هذا « والذي نفسي بيده ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم ». صدق عليه السلام.

الفقر مشكلة دون ريب ولكنّ التكاثر من الدنيا والتنافس فيها بغرور وكبر وحسد وتظالم وقهر مشكلة مضاعفة. ألا ترى أن الذين يموتون اليوم في معركة التكاثر البهيمي أضعاف الذين يموتون فقرًا ؟ هؤلاء يقتل بعضهم بعضًا في كل يوم ولكن الفقر لا يقتل كل يوم. كل ذلك يجب أن يكون بالتوازن والإعتدال مع قوله عليه السلام « نعم المال الصالح للعبد الصالح ». خذ إليك القصّتين معا حتى تكون وسطيّا : قصّة قارون الذي أهلكته الدنيا عندما تكاثر فيها وبها ونافس منافسة الكبر والغرور والقهر. وقصّة سليمان عليه السلام الذي جاءته راغمة فسخّرها لخدمة الناس. ومثلها شهوة المركوب خيلا مسوّمة وسيّارات فارهة ورياش الدنيا بأسره. كلها شهوات مبسوطة لنا بسطا لتنالها أيدينا بيسر ورماحنا لمن شاء فلا يحجزك عن الحرام حاجز إذا إشرأبّت نفسك للحرام. ولكن المباح من ذلك لا ضير فيه بل هو مطلوب إذ ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[الكهف: 46] .

الحياة إمتحان.

إذا كانت الشهوات مبسوطة لنا بسطا فإنما لعلّة الإبتلاء وقصد الإمتحان إذ « حفّت النار بالشهوات وحفّت الجنة بالمكاره » كما قال عليه السلام. شهوات مقدور عليها بيسر عجيب حتى يكون الإمتحان حقيقيًا والقوي من يملك نفسه عند الغضب وعند الشهوة معًا والعادة أن من يملك نفسه هنا يملكها هناك. والعبرة بالأغلب إذ لا ينجو من الغضب ومن الشهوة ناج. والعبرة العظمى عند إقتراف الغضب أو الشهوة هي تحصين الإنسان أن يوطأ منك. إمتحان الدنيا قصير وطويل في الآن نفسه إذ هي معايير نسبيّة. إمتحان تستعين عليه بالله سبحانه وبالجماعة إذ « يأكل الذئب من الغنم القاصية » وبالعبادة وبالدربة على الصبر والحلم وذلك يقتضي مخالطة الناس حتى مع ظنّية الخطأ إذ « من يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم ». فمن نأى بنفسه عطّل سنّة الله فيه أي قانون الإمتحان. كأنه قال لربه : لا حاجة لي بإمتحانك. لسان حاله ذاك قوله. الصلاة مصنع للصبر وهي مضاد حيوي فتّاك وخطير ضد الشهوة المحرّمة. اليوم تكاد ترى المصلّي أكثر إقترافا للشهوة المحرّمة من غيره بسبب أنه ينطبق عليه قوله عليه السلام للرّجل « صلّ فإنك لم تصلّ ». هو يقصد سرعته وسرعة الصلاة مظنّة حركة رياضية فحسب بل هي كذلك. الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر. تلك وظيفتها ولكنّا خالفنا قول الطبيب إلينا في تناول الدواء.

وممّا يجعل الإمتحان يسيرًا أمور منها : تجديد التوبة وليس إستغفارًا باللسان فحسب بل وجل قلب وقشعريرة جلد و تجنّب الكبائر على الأقل وما عداها مغفور بحوله سبحانه وإختيار الخاتمة الحسنة أي الثبات حتى النهاية وسؤال الخاتمة الحسنة سيما أن تموت صدّيقًا أو شهيدًا. والعبرة بطرد اليأس منه سبحانه مهما كان الإسراف منك فضوحًا لأنه وعد بأنه « عند ظن عبدي بي ». عامل نفسك في إمتحان الدنيا كما تعامل نفسك في إمتحان شهادة علميّة مثلا. ألست تستجمع أسباب النجاح؟ إفعل الأمر نفسه لإمتحانك مع ربك.

الإيمان بالغيب مخّ الأمر كله.

قولنا أن الله غيب فيه غضاضة. الله ليس غيبًا. ليس بالمعنى الصوفي المنحرف. لا. هو بمعنى قول الصحابي لمّا سأله عليه السلام كيف أصبح؟ فقال : مؤمنًا. قال له وما الدليل؟ فقال « أصبحت كأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا ». هو غيب في ذاته سبحانه ولكن في عظمته وقدرته ونعمته ليس غيبًا بل مشهود. جرّب ذلك مع ولدك فإن كان يطيعك في غيبتك إلا في حالات شهوة قليلة وشديدة فهو فعلا يؤمن بك مربيًا وقدوة أو هو يخافك ويحبك معًا. وإلاّ كان عاقّا فهو لا يطيعك إلا ما دمت عليه قائمًا. لله تعالى المثل الأعلى.

تلك هي قصة الدنيا بحذافيرها.

شهوات مبسوطة في متناولك حتى وأنت في خدر بيتك ينقلها لك الأثير الساحر. وهي موضوعة لك أنت بالإسم والعين لتكون في أمّ الإمتحان ويمّ الإبتلاء إذ لا يمتحن سوى المسؤول أما البهيمة فلا تمتحن. والمبتلي يراك ولا تراه ليكون إقترافك الشهوة المحرّمة في مأمن ويزين لك الشيطان أنه بعيد وناء وأن الموت مثله بعيد وناء. تلك خلاصة الحياة: ساحة تنطق بالإمتحان وتتنفس إبتلاء. فهل تفلح أم تخسر؟ أرجو لك ولي فلاحًا.

57

لأيّ علّة أحلّ صيد البحر للمحرم وحرّم صيد البرّ؟

التمييز بين منطقتين في الشريعة لازم : منطقة مغلقة لأنها تعبدية خاصة وأحكامها لا تخضع للتعليل سيما في تفاصيلها لا في كلياتها. هي منطقة الإتباع الحرّ فلا هو تقليد أعمى ولا غرور عقلي. ومنطقة مفتوحة لأنها معاملاتية عامة وأحكامها تخضع للتعليل تفصيلاً وإجمالاً وهي منطقة الإجتهاد والتجديد. قال تعالى ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ﴾[المائدة: 96] . لم أحلّ هذا وحرّم ذاك و كلاهما صيد؟

صيد البحر عادة ما يكون لحاجة بخلاف صيد البر.

المنطقة المحرّمة في مكة والمدينة كلاهما تبعد عن البحر عشرات الأميال ولا يعدّ المرء محرما فتسري عليه ممنوعات الإحرام إلا في المنطقة المحرّمة وجوبًا أما خارجها فللتّجوّز فحسب. يستعدّ المرء قبل الإحرام المكاني بإحرام ولكن المؤاخذ عليه هو عندما يكون محرمًا في منطقة محرّمة حتى لو لم يكن الزمان محرّما كمن يعتمر في صفر مثلا. في العادة لا يضطرّ لصيد البحر محرم لأن البحر بعيد عن المنطقة المحرّمة فإذا كان المرء هناك محرما إحرام إستعداد ـ كأن يكون في باخرة ـ فلا حرج عليه أن يصطاد صيد البحر لأنه عادة لا يفعل ذلك سوى لأكله أو لما يدّخره. في حين أن صيد البرّ متاح في المنطقة المحرّمة نفسها سيما في الأعصار المنصرمة كما أنه عادة ما يكون للتسلية والترفيه. فمن يصطاد هناك يفسد إحرامه لأنه خلط العبادة باللهو فيطرد الخشوع من فؤاده أو يتخلّف عن شعائر عبادته. المحرم كالمصلي يحرص على الخشوع قدر الإمكان ولذلك حرّمت عليه الأمور التي تدعو إلى الدنيا وزينتها. لذلك أبيح صيد البحر وحرم صيد البر.

ولكن ما قصة الطعام؟

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾[المائدة: 96]. الطعام هنا معناه أن الأمرين مباحان: الصيد نفسه وأكل طعام الصيد. وهو الأمر المختلف فيه في صيد البرّ إذ صحّ أنه عليه السلام أكل من صيد البرّ وهو محرم وصحّ أنه لم يأكل منه وهو محرم. فنشأ الخلاف : هل أن المحرّم هو الصيد ـ صيد البرّ ـ نفسه أو أن المحرّم طعامه كذلك إذا أهدي أو بيع أو عثر عليه دون صيد. والأرجح دليلا تعليليًا أن المحرّم هو صيده لما يحدثه من شغل للقلب أما طعامه فهو ككل طعام. بقي ذلك محلّ ظنّ في صيد البرّ لذا وجب الإجتهاد فيه ولكنّه في صيد البحر منصوص على حلّيته. وهناك ملمح آخر يقضي بتأكيد لحم البحر كله « هو الطّهور ماؤه الحلّ ميتته » بخلاف لحم البرّ. ولذلك ذكر السيّارة هنا لأنّ السيّارة قد لا تكون محرمة أو ذاهبة إلى الإحرام فكانت المناسبة للإعلان عن حلّية طعام البحر كله.

شعائر لا بد من رعاية حرمتها.

الدين شعائر تشعر الناس أن هناك دين يتعبّد به. ليس هم هملا كأنهم قطعان أنعام ترعى وتنام. ما من دين إلا وفيه شعائر. الصّليب شعيرة على المسيحية. طاقية اليهود شعيرة على اليهودية. ليظل حضور الدين في النفوس قويّا وتنشأ عليه ناشئات الذرّية فلا يوطأ بشاغبات وافدة. حتى إن الهدي الذي يقدم للكعبة قرابين ـ ينتفع به المحتاجون ـ لا بدّ من إشعاره أي تقليده بشيء يعرف به فلا يتخذ لأيّ وسيلة أخرى وهو ما فعله عليه السلام في الحديبية لإشعار قريش أنه جاء معتمرًا. وما إنتهكت بيضة الأمّة وديست أرضها ومقدساتها إلاّ عندما فرّطت في شعائرها بدعوى أنها قديمة لم تعد تناسب العصر الحديث. في ألمانيا ألفينا في بعض أريافها سنة 1994 نساء مختمرات كأنهن مسلمات وما هنّ بمسلمات بل هنّ مسيحيّات ملتزمات ولما سئلن قلن أنهنّ يلتزمن بالتعاليم المسيحيّة ولذلك يرتدين الخمار. هناك دمّرت دبّابة الحداثة المزعومة كلّ شيء تقريبًا وهي التي حطّمت فينا حواجز كانت تحفظ لنا جزء من إعتبارنا المعنوي إذ لن ينتصر عليك عدوك حتى يحطّم جدارك المعنوي.

لكل معصية كفارة إسمها : المسكين والفقير.

لا تجد معصيّة واحدة عليها في الدنيا كفارة إلاّ وكانت تلك الكفارة في جزء منها إطعام المسكين أو كسوته أو تحريره من الرّق. كفارة اليمين المنعقدة هي كذلك ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾[المائدة: 89] . وكفارة القتل الخطأ ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾[النساء: 92] . وكفارة قتل الصيد في الحرم ﴿هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾[المائدة: 95] . وكفارة الظهار ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾. أو ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾[المجادلة: 4] . وكفارة الوطء في يوم رمضان للصائم (تحرير رقبة أو إطعام ستين مسكينًا) إلخ.. يعني أن الإنسان خطّاء بالضرورة « كل إبن آدم خطّاء وخير الخطّائين التّوابون ». وبما أنه سيخطئ قطعًا ـ عدا المعصومين من الأنبياء ـ فإنها فرصة للحضّ على المساكين والفقراء والأرقاء بماله تحريرا لهم من سجن العبودية لغيره سبحانه أو من سجن الفقر وكلاهما سجن شنيع لا يليق بالكرامة والحرية. ألا

تجد أنّ ذلك عجيبًا؟ حتى من بخل بماله في سبيلي تحريرًا للمحتاجين فإني أضطرّه إلى ذلك بسبب خطإ إقترفه هو بنفسه. لم يدهشني شيئ في هذا الكتاب أكثر من حدبه على المحتاجين والمساكين والأيتام والأرقاء. إنه كتاب التحرير وكفى.

أما نهي السنة عن مثل ذلك ـ من صيد وغيره ـ في المنطقة المحرّمة حتى لغير المحرم فهو من باب التعظيم للحرمات ونشر الأمن وبثّ السلام هناك حتى للدوابّ والأطيار ولا يعني ذلك ـ في القديم أما الآن فقد تغيّرت الأمور ـ حرمان الناس من طعام الصيد ما لم يكونوا حرمًا إذ يصطاد غير المحرم هناك ليأكل لحم صيده في إحرامه. ذلك يتلاءم مع دين أباح التجارة للحاجّ والمعتمر قبل إحرامه أو بعده ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ﴾[البقرة: 198] . وفضل الصيد خارج الإحرام ـ حتى في المنطقة المحرمة ـ أولى بتلك الإباحة.

58

فينا أزمة تديّن عنوانها : الإنشغال بالأسئلة الفارغة أو المسكوت عنها.

الدين هو الوضع الإلهي المنزل على رسله عليهم السلام لضبط الحياة البشرية. أما التديّن فهو النشاط الذي يزاوله الناس إستجابة لذلك الوضع الإلهي. الدين هو القرآن الكريم وما صحّ من السنة فحسب. أمّا التدين فهو يختلف من إنسان لآخر قربا من الدين وبعدًا عنه. أزمة التدين لها عنوانان كبيران : الإنقطاع عن الأصل كليّا أو جزئيّا أي القرآن وما ثبت من السنة فهما أو تنزيلا بسبب هوى أو غير ذلك. والإنقطاع عن العصر كليًّا أو جزئيًا بما يجعله بمنأى عن الإنصلاح بالدين لأيّ سبب كان. الدين هو المثال والتدين هو تحمّل ما أمكن من ذلك المثال وفق سلّم أولويات معلوم ولا يكون ذلك صحيحًا مفيدًا حتى يقوم التدين بإصلاح الواقع قدر الإمكان وبالتدريج. أجلى من يمثل أزمة الإنقطاع عن الأصل هي العالمانية وأجلى من يمثل أزمة الإنقطاع عن العصر هي السلفية في أغلب مخرجاتها.

من مظاهر أزمة التدين التي أشار إليها القرآن الكريم نفسه.

1. الإنشغال بالأسئلة الفارغة. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَا ﴾[المائدة: 101] . هذا فسّره عليه السلام في حديث للدارقطني قال فيه « إن الله فرض فرائض فلا تضيّعوها وحدّ حدودًا فلا تعتدوها وحرّم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها ». كما فسّرها بحديث آخر قال فيه : « إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما إستطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا فإنّما أهلك من كان قبلكم كثرة أسئلتهم وإختلافهم على أنبيائهم ». ومنه كذلك أنه قال يومًا للصحابة إن الله فرض عليكم الحج. فقال رجل: أكلّ عام؟ فأعرض عنه. وظلّ السائل يكرّر سؤاله ثلاث مرات وهو يعرض عنه وفي الرابعة نهره بشدة وغضب قائلا « لو قلت نعم لوجبت ولما إستطعتم ذلك ». ذلك هو إتجاه الإسلام وذلك ما يرضاه سبحانه من عباده : تنصيص واضح ودقيق عما هو مطلوب منهم فلا يبقى فيه غموض سواء كان طلب فعل أو ترك ومنه الحدود وربما نعود لها في مناسبة أخرى. وما عدا ذلك فهو مسكوت عنه لا يسأل عنه سوى الفارغ الذي لم يفقه من هذا الدين شيئًا. والمسكوت عنه مباح إذ لو لم يكن مباحًا لما تأخّر البيان عنه وقت الحاجة كما قال الأصوليون.

2. الإنشغال بالأسئلة الفارغة كان شأنًا إسرائيليًا في العادة وكانوا يفعلون ذلك تفصّيًا من تكاليف الدين أو لبعث رسالة قوامها أن الدين أشعث أغبر لا تفهم منه رأسًا من عقب ولا يخضع لنظام مقنع. ولذلك إختار سبحانه أن يسمّي أوّل سورة وأعظمهن إطلاقًا بإسم البقرة أي بإسم القصة التي فيها عن الأسئلة الفارغة لبني إسرائيل تفصّيًا من ذبح البقرة أو تفصّيًا من إفتضاح أمر القاتل. لذلك قال ﴿ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾[المائدة: 102] . وللمشركين كذلك أسئلتهم الفارغة لذلك قال ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ ﴾[المائدة: 103] . وهي أنواع من الإبل كان لهم فيها شأن جاهلي قبل الإسلام تحليلا وتحريمًا.

ما هي الأسئلة الفارغة ولم نهينا عنها؟

أ. السؤال الفارغ هو السؤال في حقل مسكوت عنه من الشارع الحكيم أي المباحات وهي أكثر الحياة وأكثر الشريعة بل إن الشريعة لم تحص المباحات لأنها لا تحصى سوى أنها دعت إلى تقييد كلّ مباح عندما يوشك أن يفضي إلى إسراف أو تبذير أو سوء إستخدام وقد يتطور إلى أن يصبح حرامًا. الشريعة كما جاء في حديث الدارقطني حرصت على بيان الواجبات الفردية والجماعية في الدين وفي الدنيا وعلى بيان المحرمات وقسمتها إلى كبائر وموبقات ومهلكات وما لا يغفر وما يغفر وإلى سيئات ولمم وعلى بيان الحدود. وما عدا تلك الحقول الثلاثة فهو مسكوت عنه أي مباح لم يشإ سبحانه أن يرتب فيه تشريعًا سوى تقييده وذلك حتى تنزع الحواجز من طريق الإنسان المكلف بالعبادة والعمارة وإقامة العدل.

ب. السؤال الفارغ هو الإلحاح من لدن السائل على مسائل مبيّنة بوضوح وجلاء في حقول إهتم بها الشارع الحكيم من الحقول الثلاثة آنفة الذكر. لذلك قال عليه السلام « صلّوا كما رأيتموني أصلّي ». و« خذوا مناسككم عنّي ». فلم يسأل إلاّ قليلا عن مسائل العبادة ولمّا سئل عن ذلك في الحجّ كان أكثر كلامه « إفعل ولا حرج ».

ج. السؤال الفارغ هو السؤال في محلّ غيب لم يبيّن لنا ولذلك جاء الحديث يعلّم الناس أن السؤال عن الساعة سؤال فارغ « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ». فما بالك عن الأسئلة الفارغة المنتشرة فينا عن أماراتها وأكثر ما يرد فيها من « المشايخ » ليس ظنيا فحسب بل موهوم. علاقتنا بالغيب تمرّ عبر نافذة وحيدة إسمها الوحي. وليس كلّ وحي. بل الثابت منه فحسب. وليس كل ثابت منه بل قطعي الدلالة فحسب وهذا نادر جدا ليس لقصور في التشريع ولكن لأجل صرفنا عن الأسئلة الفارغة التي لا تهمّنا ولا هي ذات دور في رسالتنا.

نهينا عن الأسئلة الفارغة لأجل التفرغ لوظيفتنا بالكامل في الحقول الثلاثة آنفة الذكر أي الفرائض والحدود والمحرّمات وعدم التشويش عليها بأسئلة الأطفال الصغار. ولأجل عدم التقديم بين يدي الله ورسوله (أنظر سورة الحجرات) أي

عدم تقديم كلام فارغ ومقترحات طائشة تقديسًا للوحي ولهيبته ووقوفا عند الحدود المرسومة. ولأجل بناء عقل إسلامي رشيد معاصر يهتم بعلاج المشكلات وتحسين التدين وعمارة الدنيا. ولأجل تضييق أمد الخلافات الجانبية المدمّرة التي يكون حقل المسكوت عنه مرتعًا خصبًا لها إلا في دائرة العلم التي يغشاها أهلها فإن كنت من أهلها فشاركهم برأيك في المتشابهات ولكن المحرّم هو بثّها بين الناس لتكون لهم شاغلا ومن حدّث الناس بكلام لا تعيه عقولهم فقد عرّض الله ورسوله عليه السلام للتكذيب كما قال بعض الصحابة الكرام.

59

مثال لحسن فقه القرآن الكريم.

قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡ ﴾[المائدة: 105]. علم الصديق عليه الرضوان أن بعضهم يردد هذه الآية عن سوء فهم قوامه الإهتمام بخويصة النفس فحسب. فخطب فيهم قائلا (أيها الناس إنكم تحملون هذه الآية على غير وجهها وإني سمعت رسول الله عليه السلام يقول فيها «عليكم أنفسكم: طهروها وزكوها»). وبذلك حسم الموقف الفكري الصحيح بقوة وشجاعة وفي الإبان عليه الرضوان.

يبدو لبعضنا أن تعبير ﴿عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ ﴾يحمل شبهة قصر الإهتمام بخويصة النفس فحسب لتعبير عرفي أو لغوي. ولكن مثل ذلك يلجم بلجم الفهم الصحيح والفقه الدقيق. العادة أن العرب تقول (عليك بنفسك) كناية عن صرف الإهتمام بغير ذلك. ومما يجعل المعنى مستقيما هو ردّ الكتاب بعضه إلى بعض أن يكون فيك متناقضا يأمر بالشيء وضده. هذا يهدم صفة الإحكام التي يفتخر بها وقد بدأ نظمه بقوله ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ ﴾[البقرة: 2].

ردّ الكتاب بعضه إلى بعض يعني فهم الرسالة العامة الأصلية للكتاب إذ له رسالة عامة كلية عظمى فمن فقهها فقه إتجاهها ومطالبها الكبرى حتى لو لم يحط بتفاصيل كثيرة فيها . ومن جهل تلك الرسالة في كلياتها العظمى أو مطالبها الكبرى فلا تغنيه من بعد ذلك ملايين التفاصيل حتى لو أحاط بها . ذلك مظهر من مظاهر أزمة التدين أي إتيان الدين من نوافذه الخلفية وليس من بابه الرئيس حيث الإستقبال والإستظهار بالهوية وتسلم كتاب الدليل.

أنى لنا أن ننسخ عشرات المواضع التي تأمر بالإعتصام وبالجماعة وبالأمر بالمعروف وبالنهي عن المنكر وبالدعوة إلى الخير وبالتواصي بالحق وبالصبر وبالمرحمة وبالحض على طعام المسكين والحض عليه والحكم بين الناس بالعدل وبالحق وبأداء الأمانة إلى أهلها وبعمارة الدنيا التي لا تعمّر إلا بجماعة بل بجماعات وبأجيال تلو أجيال .. أنى لنا أن ننسخ كل ذلك وهو محكم صحيح صريح مبثوث في كل سورة منه بل في السورة الواحدة مرات ومرات .. أنى لنا أن ننسخ كل ذلك لتعبير عرفي أو حتى لغوي يمكن تأويله ـ بل يجب تأويله ـ ليكون محكومًا لا حاكمًا وتابعًا لا متبوعًا .

المنهج الذي يرد المتشابه إلى المحكم والموضع إلى الموضوع والتركيب إلى المقصد والتعبير إلى المراد والجزء إلى الكل هو الذي يسعفك لإصابة فقه صحيح.

عليكم أنفسكم .. مقيد بالهداية.

دعنا نفحص الآية نفسها قبل أن نذهب بعيدًا. النفس التي علينا بها أو علينا إياها ليست هملا في الكتاب بل وقع الحديث عنها مرات ومرات ومن ذلك قوله ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾[الشمس] . أي أن النفس التي علينا بها هنا أو علينا إياها هي قارورة ممتلئة مناصفة بين التقوى وبين الفجور وأنها مهيئة من لدن صاحبها للتزكية لتغلب تقواها وللدس ليغلب فجورها. ومازلت أشم من تعبير ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ غير ما أشمه من تعبير (عليكم بأنفسكم) فالأول يغلب عليه القيام بعمل لأجل تهيئة النفس للمقاومة في حين أن الثاني يغلب عليه

القيام بحبس النفس عن المقاومة. هذه الباء لها فعل كبير هنا. الباء تحبس العمل على النفس لأجل النفس فحسب فإذا ذهبت الباء فهم العربي أن النفس بحاجة إلى عمل يزكيها ويطهرها لأجل تأهيلها لوظيفة المقاومة في الحياة. اللسان العربي ينتمي إلى علوم السماع إذ لم يكن مدونًا بين أهله الأميين بالكامل. ولما جاء التدوين كان الذي له وكان الذي عليه. أقول دومًا في نفسي لو أن اللسان ظل عربيًا قحًّا سليقًا لما إحتاج الناس إلى تدوين لأن التدوين لا يحيط بأمر كبير إسمه : علم الصوت وقد إستمتعت في ذلك بكتاب للدكتورة ديزيرة سقال. يعني أن اللسان العربي الأول كان سماعيا أي يعتمد على علم الصوت وليس على علم الكتابة والرسم والتدوين فلما إنتقلنا إلى مرحلة التدوين حدث فينا شغب وإنهدم ركن من لساننا. دعنا من هذا الآن.

كما أن التعبير جاء بصيغة الجمع على عادة القرآن. وإنه لمقرف أن نؤمر بصيغة الجمع بأمر قوامه قصر العناية بخويصة النفس فحسب. هذا مبنى لا يكون إلا في خصومة مع ذلك المعنى. هذا لا يتحمله اللسان العربي الذي إفتخر به الكتاب العزيز في إحدى عشر موضعًا.

1. رسالة الآية الأولى بحسب التركيب هي دعوة المؤمنين إلى التمكين للهداية في نفوسهم وفي واقعهم إذ أن ذلك يعصمهم من تلظيهم بضر الضالين. إذ لو جاء التركيب ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ فحسب لما كان له معنى. ولكن جاء ذلك ممهدا لرسالة الآية الأساسية.

2. تشعرنا الآية بإحدى أمرين محتملين بل ربما يتكافلان على عادة القرآن في كفالة أكثر من معنى بعضها إلى بعض : إما أن المؤمنين تخفق قلوبهم خوفًا على الضالين ولذلك هو يربت على أفئدتهم بمثل ما قال لنبيه عليه السلام ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ [فاطر: 8] . أو أنهم يخشونهم على دينهم وعلى دين الناس من بعدهم أي يخشون فسادهم في الأرض فهو يبيّن لهم السبيل أو القانون ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: 105] . كقوله ﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾[آل عمران: 111] .

3. أم الآية هو ﴿ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ . تكون (إذا) شرطية أو زمانية وفي الحالين تؤدي وظيفة مهمة عنوانها أن إهتداءكم هو صمام الأمان في كل الأحوال. وقد تبيّن لهم من قبل

أن الهداية لها باب رئيس وقاعة إستقبال ودليل إرشاد وأن قلبها هو لا إله إلا الله وجناحاها اللذان بهما تقاوم هما : العبادة الكفيلة بالتزكية النفسية والتطهير الروحي و خدمة الناس لجعلهم صفا واحدا قواما بالعدل والقسط. أنى لمثل هؤلاء أن ينسخوا كل ذلك لأجل قصر الحياة في آخر المطاف على خويصة النفس فحسب. وسورة المائدة التي حضنت هذا من آخر ما نزل.

60

لأجل حقوق الإنسان تقبل شهادة الكافر...

أسّرني هذا الكتاب بنظمه العربي القح السليق ثم بمقصده الأعظم أي حفظ حقوق الناس حتى المالية منها بل هي الأولى بالحفظ.

آيتان فيه لو أعدنا تدبرهما لتغير وجه الأرض.

الآية الأولى سبقت في حلقة ماضية من هذه السلسلة (فهل من مدكر) وهي متعلقة بكتابة الدين وتوثيقه والإشهاد عليه وإجازة الرهن لأجل حفظ حقوق الناس المالية. تبيّن هناك أن تلك الغاية العظيمة من وسائلها الإشهاد وأن الإشهاد لا يقصي المرأة ولا يجعلها منتصفة لدونية فيها ولكن حدبا على حفظ تلك الحقوق في مجتمع قديم لا شأن للمرأة فيه عادة بالمعاملات المالية والمقام ليس مقام بيان منزلتها في الصف البشري ولكن المقام هو مقام توثيق الشهادة تدوينا وفي الصدور لأجل حفظ حقوق الناس فهي أقدس الأمور عنده سبحانه من بعد توحيده الخالص. فلما إنحط العلم فينا عاد كثير من العرب من بعد النبوة والخلافة الراشدة إلى سالف عهدهم مع المرأة أي هوان ودونية. فلما ورثنا نحن ذلك جمدنا هناك ولو طوينا ذلك وعدنا إلى النبوة والخلافة الراشدة لألفينا أن المرأة كائن إنساني شقيق للرجل شقة كاملة ومساواة تامة وما بدا لنا من إختلافات بيولوجية فهي إختلافات وظيفية لخدمة قانون التكامل وليست هي إختلافات

تعلن الدونية لهذا أو الرفعة لذاك. وعندما لا يسعفنا ذكاؤنا لنميز بين المقصد ووسيلته نقع دومًا في الإثم لنقول عليه سبحانه بغير علم.

الآية الثانية هي موضوع هذه الحلقة وهي في المائدة وتتعلق بالموضوع نفسه أي حفظ حقوق الناس المالية . حتى التركيب النظمي للايتين نفسه. سبحان الله. من يقرأ نظمهما كأنه يستقل طائرة تمر به بتقلبات جوية أو سيارة في الأرض لم يعبّد لها الطريق. شعور يعاش ولا يحكى بإختصار شديد. قليل جدًا من قرأت لهم فألفيتهم يستخدمون هذا المعيار الصوتي لفقه الكتاب العزيز ومن أولئك قطعا سيد قطب في ظلاله العجيبة. مما أفدت أن الصوت من آلات حسن الفهم إذ لم يكن القرآن الكريم يتلى على الصحابة مدونًا ولا مكتوبًا.

تعال نتدبر الآية لنحفر في ذخائرها المدفونة.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ ﴾[المائدة].

1. لم يعد عندي أي ريب البتة أن الله لا يريد منا ـ من بعد إخلاص توحيده ـ سوى إقامة العدل بين الناس شهادة وقضاء وحكمًا وأن الإنسان عنده مقدس تقديسًا عجيبًا في نفسه وماله وعرضه فلا غفران للمعتدي عليه إلا أن يغفر المعتدى عليه.

2. ترددت في هذه الآية كلمة الشهادة خمس مرات. وفي مرة منها سماها شهادة الله توقيرًا لها وتحصينًا أن توطأ. المسألة كلها هنا متعلقة بوصية الميت أي بما دون الثلث من ثروته سيما إذا كان في حالة سفر فلا وجود لمن يحفظ عنه وصيته لأدائها إلى أهلها. يمكن للموصى له أن يكون كافرًا هنا ولكن غير محارب ولا مانع في ذلك شرعًا

بل ربما يعد في حالات معروفة تأليف قلب يؤجر عليه صاحبه أيما أجر. ويمكن أن تكون الوصية لا تساوي عقال بعير أو أدنى. كل ذلك في شرع الله محفوظ ويحاط بإجراءات إشهاد وكتابة وتحوطات وأيمان .. سبحان الله.

3. الموضع الذي شدني هنا هو قوله ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾[المائدة: 106]. أي : إن لم يتوفر لكم من المؤمنين ـ أي منكم ـ إثنان ذوا عدل فيحل محلهما إثنان من غيركم أي من غير المؤمنين.لم؟ لأن الغاية هي حفظ حقوق الإنسان المالية وليس تعيير الإنسان هنا بعقيدته. يعني أن الكافر عندما لا يكون محاربًا ويكون عدلا ـ لا يكتم الشهادة ولا يخون ـ يأتي في محل الإشهاد. هذا هو الفقه الذي تأخرنا عنه كثيرًا. لا عصمة عندي سوى للوحي ولرسول الوحي الكريم عليه السلام فيما ثبت عنه. وما عدا ذلك إلا إجماعًا من الأمة. أما أن أقلد الببغاوات التي تقول : قال فلان وعلان .. ليقل ما شاء من شاء فالعبرة بالدليل وأم الدليل الكتاب العزيز أو السنة الصحيحة الثابتة أو العقل الرشيد الحصيف إن لم يوجد فيهما وهو نادر ويستأنس بهما. القضية نفسها مع المرأة في آية الدين في البقرة. لأجل حفظ حقوق الناس المالية تشهد المرأة ويشهد الكافر لأنها وسائل وليست مقاصد. ولحفظ المقصد ـ أي مقصد ما لم يكن تعبديًا غير معقول ـ فإن الوسائل لا عبرة بها إلا بقدر حفظ ذلك المقصد.

4. لم يكون الحبس من بعد الصلاة؟ هي وسيلة أخرى لئلا يتفرق الجمع فلا نجد من يشهد للوصية حتى تؤدى إلى أصحابها. ثم إن ذلك أدعى في الشاهد ألا يكتمها إذ يذكر أنه فعل ذلك بعد وجبة عبادة. ويكون القسم بالله توكيدًا لأداء الشهادة على وجهها. فإذا أثم الشاهدان الأوليان يلجأ إلى آخرين لأجل حفظ حقوق الناس المالية. ألا ترى كثرة الإحتياطات وتشابك التركيبات اللفظية وكأننا في حضرة تلاعن بين زوجين رمى أحدهما صاحبه بالفاحشة.

5. لم لم يعرج هنا على المرأة لتكون شاهدا؟ لأن الحالة إستثنائية نسبيا فهي حالة سفر وقد لا تكون المرأة مسافرة معهم في العادة ولكن ضرب عن ذلك الذكر صفحا لنعلم أنه لو كانت الشاهد إمرأة هنا ـ شرط عدلها فحسب ـ لما كان في ذلك أي ضير إذ الغاية

هو حفظ حقوق الناس المالية. أم يقبل عقلك أن يكون الشاهد كافرًا ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾. ولا تكون إمرأة ﴿مِّنكُمْ﴾[المائدة: 106] . إذا قبل ذلك فعليك مني ألف سلام.

61

إطمئنان القلب بين العقل الإبراهيمي ومائدة أكل ..

سميت سورة المائدة بسبب مائدة أكل نزلت عليهم من السماء. تقرأ في خاتمتها أن حواريي عيسى عليه السلام (صفوة أتباعه) قالوا له ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[المائدة: 112] ؟. إستوحش منهم السؤال و أمام إصرارهم سأل ربه تعالى فأنزلها وأكلوا. وما هي علة هذا التنزيل في رأيك؟ قالوا ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[المائدة: 113] . لا أصدق هذا لولا أنه نزل في كتاب لا ريب فيه. صفوة الخلّص من أتباع نبي كريم يتجرؤون على هذا؟ أيستقيم الإيمان مع قولنا ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾؟. لم يقولوا حتى : هل يستطيع ربنا. وعندما يبتلع المرء ذلك يغرق في المشكلة الأخرى أي علة هذه المائدة : الأكل منها وهو مقدم حتى على إطمئنان القلب؟؟؟ ألا يطمئن قلب مؤمن إلا بأكل لذيذ من مائدة إلهية؟ بل رهنوا بذلك تصديقهم ﴿وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾[المائدة: 113]. ألا يشعرك بالعجب؟

منهجي في الكتاب : فهم الكتاب بالكتاب نفسه.

لما عرض سبحانه لإيمان إبراهيم عليه السلام قال ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾[البقرة: 260]. قارنت بين سؤال إبراهيم عليه السلام ربه لحصول إطمئنان في قلبه وبين سؤال حواريي عيسى عليه السلام فوجدت بونًا شاسعًا. هذا يطلب برهانًا عقليًا على قضية هي أمّ الإعتقاد أي البعث والنشور وهؤلاء يطلبون برهانًا ليس ماديًا فحسب بل برهانًا

يملأ البطون ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا﴾. وجدت فرقًا كبيرًا بين قائل يقول ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾. وآخر يقول ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾. هو سبحانه عامل كلاّ بما فيه. أجاب إبراهيم عليه السلام طلبه وأظن أن الأمر موجه إلينا إذ أني أحيا مع قصة إبراهيم وإحياء الموتى هذه كما أنها مشهد نابض بالصوت والصورة. كما أجاب حواريي عيسى عليه السلام بمائدة أكلوا منها وشربوا. المؤكد أنها ملأتهم إيمانا وكيف لا يؤمن من تشبع بطنه بمائدة من السماء. ولكن غضب الله باد إذ يقول ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[المائدة: 115] . البرهان العقلي كفيل بغرس الإيمان الصحيح القوي المتين بل هم مؤهلون لدعوة غيرهم إليه. هي أفئدة بشرية مختلفة وصدق سبحانه ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾[الرعد: 17] .

حتى إن عيسى نفسه عليه السلام لما سأل ربه سبحانه تحت إصرار حوارييه قال بأدب النبوة العالي وضراعة الرسالة المخبتة وكأنه يعتذر لديه سبحانه عن خطاب حوارييه الذي يجب أن يفاجئ كل واحد منا يقرأ القصة .. قال ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: 114]. أجل. ليس بلسان ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾. وما ينبغي لنبي أن يقول عن ربه هو يستطيع كذا ولا يستطيع كذا. بل ما ينبغي ذلك لنا. كما أن عيسى عليه السلام لم ينقل رسالة حوارييه إلى ربه كاملة لما فيها من خطاب لا ينسجم مع أدب النبوة فترك جانبًا قضية الأكل والبطن. قال ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[المائدة: 114] . التعبير بالرزق أعمق وألطف وأجدر من التعبير بالأكل. ومن منا لا يسترزق ربه سبحانه وهو خير الرازقين. كما عبّر بالعيد وفيه الفرحة الجماعية وهو عيد الإيمان الجماعي. ألا تراه يعتذر عن حوارييه لربه سبحانه وهو يقول له ﴿عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أي أنزلها علينا مرة واحدة ولا نسألك غيرها مرة أخرى. وهي آية منه سبحانه.

مشهد حي يعلمنا تطور العقل البشري.

العقل البشري يتطور بالتجربة ومعافسة الحياة. لم تكن خبرات الإنسان الأول وهو يحدب على عيشه كخبرات الإنسان في هذه الأيام. التطور هنا يجري على مساره

الدنيوي وتجاربه في الحياة وليس معنى ذلك تطور في التدين بمعاني اليقين والتصديق والرجاء والأمل والخوف منه سبحانه وغير ذلك. لا. تلك ثابتة لا تتغير. وربما يكون من أسباب تفضيل هذه الأمة على من سبقها أنها تؤمن بالبرهان العقلي ولا تحتاج لبراهين مادية إذ البرهان العقلي أشد متانة عند أصحابه. في الأمة اليوم ـ سيما في إنحطاطها ـ ملايين مملينة تفضل البرهان المادي على البرهان العقلي. ألا تجد كل صباح في فضاءات الإعلام الإفتراضي إفتخار الناس أن بقرة لهم أنجبت ولدا مكتوبا على جلده إسم الله أو على نعجة إسم محمد عليه السلام؟ ومازال الناس يؤمنون في عمل شركي مخيف بأنه عليه السلام جاء في النوم إلى (فلان) وأمره بنشر ورقة أو شيء لا وجود له فيما تركنا عليه عليه السلام أي القرآن والسنة. أنى لنا أن نحلم بتحرير فلسطين وتوحيد الأمة وطرد التخلف وهذا مستوى الإيمان عندنا. ألسنا مثل أولئك الذين يقولون ﴿هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾[المائدة: 112]. ألسنا نرجو أن يقوم الواحد منا صباحًا ليلفى أمام بيته رسالة من الله أو طيرًا يخبره بمصيره أو أي علامة يضعها الشيطان ـ الذي أنسينا أنه العدو الأكبر الأوحد الذي أمرنا بعداوته ـ ليصرفنا عن الإيمان بالبرهان إلى الإيمان بالمادة. تجربة حياتي تخبرني أن حياتنا الدينية يهيمن عليها التطير هيمنة شبه كاملة والتطير شرك دون ريب سوى أنه ليس شركًا أكبر يخرج من الملة ولكن التطير يمنع الشفاعة التي أخبرنا بشروطها الأربعة في حديث عكاشة المتفق عليه « لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون » . هذا أمر يقض مضجعي.

مشهد يلخص لنا الظاهرة الإسرائيلية كلها.

في رسالة جلية خفية في الآن نفسه يعلمنا سبحانه أن الظاهرة الإسرائيلية ومهما طعن فيها الإيمان فإنه إيمان مادي إلا من آمن منهم بعمق بالرسالة الإسلامية الأخيرة. لذلك إنتزعت منهم الرسالة لأن الإيمان المادي لا يكفل عمارة أرض ولا إقامة عدل ولا يستأمن طريقًا لنشر التعارف.

62

فحص جامع سريع لسورة التوحيد الكبرى..

ألج اليوم بحوله سبحانه وحمده سورة الأنعام المسماة سورة التوحيد الكبرى أي التي ينحصر موضوعها في التعريف بالله سبحانه بتوسع بخلاف سورة التوحيد الصغرى أي الإخلاص التي توجز القول فيه سبحانه بكلمات لا تجاوز عدد أصابع اليدين. سميت بالأنعام لأن إحدى أكبر موضوعات التوحيد التي تعالجها هي إتخاذ الناس ـ إلى اليوم ـ بعض الأنعام مجالا للتشريع بغير إذنه سبحانه فهذا حلال لذا ومحرم على ذاك وذلك مباح لحمه ومحرم ظهره إلخ.. هي أطول سورة مكية مطلقا. أفحصها سريعًا قبل أن أنتخب منها بعض المشاهد لتكون مادة لحلقات قابلة من سلسلة (فهل من مدكر). لي نظرة في ترتيب السور توحي بشيء ربما أعالجه في سفر قابل. إذ جاءت فاتحة الكتاب بمثابة الفهرس الجامع لمحتويات الكتاب ومواضيعه. ثم تفرغت البقرة للقضية الحارقة يومها أي الظاهرة الإسرائيلية في بعدها اليهودي وكانت مناسبة لتكون السورة جامعة حقًا في التشريع ثم تلتها الزهراء الأخرة لتعالج تلك الظاهرة في بعدها المسيحي ولتعقب على واقعة أحد. ثم جاءت قضية الأسرة والمرأة في المرتبة الثالثة من حيث الإهتمام التشريعي ولكن بعودة قوية إلى الموضوع الحارق يومها (اليهود والمسيحيون والنفاق). وقبل أن يخلص هذا التسلسل العجيب إلى موضوع التوحيد معالجة لقضية الشرك العربي كان الموعد مع المائدة التي عالجت بعض المواضيع التشريعية المهمة (فقه الحرمات وغيره) ولتتفرغ هي كذلك لما تفرغت له النساء في جزء كبير منها أي القضية الحارقة للمعارضة الإسرائيلية وليس النفاق والردة وغيرهما إلا أجنحة من أجنحتها.

1. إفتتحت بالحمد الذي لم يبرح رحمها وختمت بالمغفرة والرحمة. وشملت 165 آية.

2. العجيب أن كلمة (قل) تكررت فيها 43 مرة من مجموع 333 مرة في الكتاب كله.

3. وكذا كلمة (هو) أي الله سبحانه 25 مرة دون نسبة مواضع أخرى كثيرة إليه سبحانه.

4. تكرر تعبير ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾[الأنعام: 18] مرتين. وتعبير ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن﴾ [البقرة: 114] أربع مرات. كما ذكر فيها وحدها 18 نبيًا من مجموع 25 ممن ذكر في الكتاب كله.

5. ذكرت فيها صفاته المتعلقة بالتوحيد كالربوبية والإلهية والحكم والشفاعة والولاية.

6. عالجت قصة الإيمان الإبراهيمي في صفحة كاملة وهو أطول مشهد إبراهيمي مع مشهد الأنبياء ومشهد البقرة. إبراهيم هو بطل قصة التوحيد في الكتاب بلا منازع.

7. تعرضت لعرض الإيمان ببرهان عقلي ونكهة منطقية يفقهها كل عاقل ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾[الأنعام: 101] . معادلة رياضية عقلية صارمة صحيحة لا يتنكبها إلا سفيه مكابر.

8. كما تعرضت لقضية الجن الذي يتخذه الناس مدبرًا مع الله أو من دونه أصلا وإلى اليوم. إلى جانب الشرك به سبحانه بطريق التشريع في حقل الأنعام وأنبأت أن هناك شياطين من الإنس كما أن هناك شياطين من الجن وأنها في حلف إئتلافي ثنائي لا يتصدع.

9. كما تعرضت في أطول سياق - إلى جانب الإسراء - إلى أصول المحرمات العشرة وذلك بقوله ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[الأنعام: 151] . إذ التشريع ثمرة للتوحيد بالضرورة.

10. ورهنت الإستجابة للإيمان بالإنسان وإرادته فمن أراد الإيمان إستمع بأذنيه وتكفل قلبه بتحليل ما وصله وإتخاذ القرار النهائي ومن أعرض عن الإستماع فقد أوصد أبواب الإستجابة كلها ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾[الأنعام: 36] . ومن أوصد على نفسه باب داره فلا حوار ولا جدال ولا سماع فقد قرر أن يموت حيًا ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[الأنعام: 36] .

تلك هي رسالة التوحيد العظمى.

عنوانها : مهمتك يا محمد هي البلاغ وحسبك البلاغ. المهم (قل) لهم كذا وكذا. لست عليهم بمسيطر ولا بوكيل. الرسالة رسالتي والعبد عبدي وأنت مبلغ فحسب. إذا كان ذاك

شأنه هو عليه السلام فكيف تنصب نفسك عليهم بإسم الدعوة مسيطرًا أو وكيلا؟ إفقه دورك وقف عند حدك المرسوم. عنوانها : الله الذي أدعوكم إليه هو كذا ويفعل كذا وله كذا. (هو: 25 مرة). هو وليس أحد غيره ولا أنا. هو القاهر فوق عباده وليس عليهم ولا لهم. ومن الجبلة البشرية الخضوع للقاهر من فوقنا ممن لا نملك معه شيئًا. عنوانها : ثمانية عشر نبيًا من قبلك أرسلتهم كلهم بهذه الرسالة نفسها ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: 36] . فليس الإسلام بدعا حتى يتنكر له الناس. وهذه حجتي عليكم عقلانية منطقية تتحدى : أنّى يكون لي ولد ـ عيسى أو عزير أو أيًا كان ـ ولم تكن لي زوجة؟ هل يرتاب عاقل في هذا؟ هذا لا يريب أشد الناس خبلا وعتها وجنونًا فكيف بالعاقل. عنوانها : هذه رحلة إبراهيم خليلي وعبدي من الشك إلى اليقين. والشك هنا ليس عيبا بل هو عين الحكمة وأمّ الرشد إذ قال عليه السلام: « نحن أولى بالشك من إبراهيم ». نعم الشك شكًا يبعث على السؤال ونعم السؤال سؤالا يعانق الحق بلا تقليد ولا قرودية ولا ببغاوية. عنوانها: لا تحذروا شياطين الجن فحسب على إيمانكم بل إحذروا قبل ذلك شياطن الإنس فهم حقيقة ﴿شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ [الأنعام: 112]. هل ترتاب بعد هذا في وجود شياطين منا نحن جلدة ولسانًا؟

63

خلاصة الإيمان : من إستمع نجا وحيي ومن لم يستمع هلك.

هذه الآية شدتني شدًا ﴿إِنَّمَا يَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾[الأنعام: 36] . جاءت ردًا على خفقان فؤاده عليه السلام وهو يرى إعراض الناس عن الهدى. أليس هو من قيل له ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾[فاطر: 8]. و ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾[الشعراء: 3]. أليس هو المبعوث ﴿رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: 107]. وهو ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[التوبة: 128]. لا يمكن أن يتصور متصور رحمة فؤاده عليه السلام بالإنسان. قال له ربه وفؤاده يخفق أسفًا عليهم ألا يؤمنوا

ليسعدوا ﴿ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾[الأنعام: 35] . ثم أكد له تعزية لفؤاده الكسير أن الإستجابة رهينة شيء واحد. ألا وهو السمع.

لنعترف بكبرنا إذ قليل منا فحسب من يتواضع فيسمع.

أكثرنا يسمع ـ ولا يستمع .. بل يجامل تظاهرا بالسمع ولا ينصت. لذلك قال سبحانه في شأن القرآن الكريم ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾[الأعراف: 204]. الإنصات من الإستماع كالقسط من العدل. هناك السمع وهناك الإستماع وهناك الإنصات. ليس هذا مع كلام الله فحسب بل أكثرنا كما قال حكيم غربي : يسمع لا ليفهم بل ليعدّ ردّه ويفحم صاحبه ويبيّن له خطأه. وعندما نفعل مثل هذا مع الكلام الذي لا ريب فيه نكون قد فوّتنا على أنفسنا فرصة السعادة. الكبر يحجزنا أن نستمع إلى الناس سيما إذا كانوا خصومًا أو غير مرغوب فيهم.

الإستماع وحده بتواضع ورغبة في العلم يضمن الإستجابة.

ذلك هو الذي جرى في عهده عليه السلام فمن تواضع وجلس يستمع إلى هذا الكلام آمن ونجا ومن تكبر فأعرض هلك. جاءت روايات صحيحة أن كثيرًا من المشركين إعترفوا لما سمعوا لهذا القرآن أنه خطاب عقلاني مقنع ولكن خانتهم الشجاعة الأدبية الكافية ليتخذوا قرار الإيمان سيما إذا كانوا في أقوامهم قادة. هي معركة الحرية : من يخوضها بنجاح ليحكّم عقله فحسب سعد وأسعد ومن شغب عليه كبره شقي وأشقى. إبن الخطاب مثال بارز على ذلك إذ أن الرجل معتدّ بنفسه وهو قوي في قومه من طينة الصعاليك الذين لا يخشون أحدًا في قبائلهم بل تهابهم قبائلهم. فلمّا جلس الرجل في هدوء وإستمع إلى هذا الكلام الجديد آمن بيسر وسهولة. ليس الإسلام نظرية فكرية فلسفية متأبية عن الفهم. بل هو رسالة مبيّنة يسيرة سهلة تقنع العقل عندما تخاطبه فيستمع إليها آمنًا من أي سلطان آخر يمكن أن يتسلط عليه فيؤذيه أو يحقره. من يؤمن هو الإنسان الحر فعلا أي الذي يستخدم حريته بلا سلطان يهابه وأن من يؤمن هو الإنسان المتواضع الذي يستمع وربما يناقش ويسأل ولا مانع في ذلك إذ لكل سؤال

جواب في هذا الدين الذي سجل أسئلة كثيرة سئلت له بل نقل حوارات لا حصر لها شارك فيه الشيطان والمنافق والكتابي والمشرك وغيرهم.

الذين يسمعون بآذانهم ثم يحكمون أفئدتهم.

السماع هنا كناية عن سماع الفؤاد وليس سماع الأذن إذ لو قلنا كذلك لما آمن أصمّ في الدنيا. إذ أن ما ينتهي إلينا من أبصارنا ومن أسماعنا نحوله تلقائيًا إلى الأفئدة لتحلله ثم تأخذ فيه القرار المناسب فهذا نكذبه وذاك نصدقه وذلك نتجاهله إلخ ..

أنظر إلى عجائب التعبير القرآني الباهر.

من يقرأ هنا فلا يسجل بلسانه وقفا عند قوله ﴿يَسۡمَعُونَۘ﴾ يعرّض نفسه ومن يستمع إليه إلى خلط هو في غنى عنه. لذلك تجد علامة وقف لازم (م) في حفص. ثم يستأنف ليجد قوله ﴿وَٱلۡمَوۡتَىٰ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾. من هم الموتى؟ الموتى المقصودون هم الذي لا يسمعون أي لا يسمعون بأفئدتهم حتى لو سمعوا بآذانهم. يريد أن يقول لنا أن الموت الحقيقي هو الإعراض عن الإستماع والإنصات. ذلك أروع فقه بآلة السياق. إذ لو قصرنا الموتى هنا على المعنى المادي الصريح ـ لا تجوزا ـ لكان البعث مقصورًا عليهم هم ولا يشمل ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡمَعُونَۘ﴾.

هي حقائق عظمى علينا بالجدية فيها.

1. إذا حدثك محدث فاستمع إليه بعناية وأعره فؤادك بإخلاص فإن كان في كلامه ما يفيدك علما أو خيرا فبها ونعمت وإلا فجامله وإحتضنه وأشعره أنه صاحب قدر ووزن وقيمة إلا في حالات نادرة من مثل كلام بذيء فاحش أو فيه سخرية أو حط من الإنسان أو هزؤ بالمقدسات أو غير ذلك . كان الناس في عهده عليه السلام يكثرون عليه من النجوى وكثير منها فارغ وهو لفرط حيائه وشدة تواضعه يظل يستمع إلى كل ذلك ففرض عليهم سبحانه صدقة ـ أي مالا ـ يؤدى لمن يريد مناجاته وبذلك يعسر على كل من يريد أن يعطله عليه السلام عن أداء مهمته حتى لو كان بحسن نية إذ لا يقبل على دفع المال إلا صاحب حاجة.

2. يجب أن نعترف أن أكثر مشاكلنا وإختلافاتنا إنما مردها إلى إزدراء بعضنا بعضًا فلا يستمع الواحد منا إلى غيره إلا قليلا بقدر ما يشحذ أسلحة الرد النارية ثم يقاطعه وينهال عليه ولذلك قلّت حواراتنا وساءت. ومن يثبت في مكانه صامدًا لا يغادره في حلقة نقاش ـ تحولت إلى حلبة صراع ـ يعتبر بطلا حقًا. ولو إستمع بعضنا إلى بعض دون أحكام مسبقة في تجرد وإخلاص لقدرت ـ أي ضاقت ـ مساحات بيننا ومسافات.

3 ـ لذلك نزل إلينا كلامه سبحانه بلسان عربي مبين ميسّر يتلى في الصلاة الجهرية وهو مدون في كتب ومصاحف ومحفوظ بإرادة إلهية عظمى لا يشغب عليه شاغب ولا يأتي أحد بمثله. كل ذلك لنستمع إليه وننصت ولقد أثبتت التجربة قديمًا وحديثًا ـ وستثبت ذلك كذلك حتى يوم القيامة ـ أن من إستمع وأنصت بتواضع متجردًا من أحكامه المسبقة حرًا في قبول هذا الكلام أو رفضه .. من فعل ذلك هدي بحوله ومن تكبر أو إستعلى فلم يستمع بفؤاده أو إستمع هازئًا أو لم يكن حرًا حرية تامة ليقول ما يريد هو في هذا الكلام ـ لا أن يدع الناس يفكرون له نيابة عنه ـ فقد شيّد بينه وبين سعادته جدارًا سميكًا.

64

آمن على الطريقة الإبراهيمية حتى لا يكون إيمانك ملبوسا بظلم..

حري بكل مؤمن أن يتدبر قصة إبراهيم مع الإيمان بتأمل ونظر.إذ بلغ إيمانه اليقين الذي لا يتلبس بمعشار شائبة شرك. إنه الإيمان الذي يدخل صاحبه الجنة على ما كان منه من عمل.

الإيمان الإبراهيمي إيمان معقول مفهوم معلل مقصد.

كتب الفقير إلى ربه كتابا عام 2000 سماه (مقاصد العقيدة) وظل منشورًا في الأنترنت لسنوات طويلات وذات كرّة من كرات المخلوع بن علي على الصفحات المعارضة في

المهجر ذهبت محتويات كثيرة. منها هذا الكتاب الذي أحبه حبًا جمًّا لأني إنفعلت بقضية مقاصد العقيدة وبحثت فيها كثيرًا. وبعد سنوات طويلات ناهزت عقدا ونيف جاءتني البشرى من بعض الطلبة العرب (الجزائر والكويت وغيرهما) ممن يستأذنني لإعتبار ذلك الكتاب مرجعًا في رسالة الدكتوراه في الموضوع ذاته. أثرت هذا لأني درست الموضوع لشهور طويلات ثم خلصت إلى أن الإيمان (العقيدة بالمصطلح المستحدث) عمل مفهوم معقول معلل مقصد وليس هو من التعبديات غير المفهومة بل خلصت إلى أن أسنى مقاصد العقيدة الإسلامية هي تحرير الإنسان وتكريمه ليتأهل للعبادة. كان هذا السياق من الإيمان الإبراهيمي من سورة الأنعام ملهما من الملهمات التي إعتمدت عليها. ورد في السورة ذاتها قبل قليل قوله سبحانه ﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾[الأنعام: 71] . ألا يعني ذلك أن الإيمان ـ والدعاء مخه ـ مسألة خاضعة للفهم العقلي أي أن الإنسان يعبد ربه سبحانه لأنه ينفعه ويضره ولو لم يكن كذلك لما آمن به أو إستغاث أو دعا وسأل. هل يقبل عقلك أن يؤمن بإله لا يملك لك نفعًا ولا ضرًا؟ أبدًا.

1. إستخلص إبراهيم إيمانه من ملكوت السماوات والأرض أي بالنظر في الخلق وتضاريس الوجود وليس مثل ما يفعل الشباب اليوم حتى قيل هذه عقيدة طحاوية وتلك عقيدة كذا؟؟؟ هل كان للصحابة كتب عقيدة؟ لم يكن لهم حتى كتاب العقيدة الأعظم أي القرآن الكريم. أي لم يكن لهم ذاك مجموعًا في مصحف. وما لم يتعدل المنهاج في طلب العقيدة من النظر في الكتب والأقوال إلى النظر في الكون والتاريخ فإن العقيدة ستظل عقيمة ذات عقد منفوثة في الرؤوس تفرق الناس ولا تجمعهم وتحثهم على البطالة لا على العمارة وعلى الجدل الفارغ لا على الإيجابية والتعاون.
2. **هذه قصة أعظم إيمان بالله في التاريخ** : جنّ الليل على إبراهيم فرأى كوكبًا في السماء منيرًا فقال هذا ربي ولكن الرب المزيف أفل فلم يعد يحفل به إبراهيم ربًا وكيف يحفل صاحب هذا العقل العظيم برب يأفل ويسقط. الرب لا يسقط ولا يأفل. فتوجه بصره إلى القمر بازغًا جميلا منيرًا ولكنه أفل فأسقط عليه السلام ربوبيته من فؤاده. ولما أشرقت الشمس من اليوم التالي رآها أكبر فظنها ربًا ولكنها أفلت بعد

سويعات مغربة. عندها إنتهت رحلة الشك الإبراهيمية بعد أن جربت ثلاثة أرباب مزيفة سرعان ما تأفل ساقطة. وإنتقل إبراهيم بذلك إلى محطة الإيمان بفاطر السماوات والأرض. تلك كواكب تأفل وهذه سماء وأرض لا تأفل وليس ذلك لقوة فيها ذاتية بل لأنها ممسوكة بقوة إلهية عظمى ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ﴾[فاطر: 41]. منطق عقلاني صارم وميسر في الآن نفسه : من شروط الرب أن يكون قائما لا يأفل وهو أمر لم يتوفر في الشمس والقمر وفي غيرهما. هي الطريق العلمية لجمع كل الإحتمالات الممكنة ثم فحصها لإسقاط ما لا يقوم منها والإبقاء على أقواها. كانت النتيجة في عقل إبراهيم : كل شيء يأفل إلا الله سبحانه فهو إذن الجدير وحده بالعبادة. هل هناك أيسر من عقيدة مثل هذه؟ منطقية عقلانية صارمة ولكنها يسيرة إستخلصها راعي الإبل في البيداء حين قال : البعرة تدل على البعير والأثر على المسير فكيف بجبال وأبراج لا تدل على الحليم الخبير؟ ذلك هو معنى أن الكون ـ والتاريخ مثله ـ هو مستودع الإيمان وحقل العقيدة فمن نظر فيه آمن بيسر ومن نظر في الكتب ظفر بخصومات فرعية لا صلة لها بالإيمان الإسلامي.

3. وهذه عدّة الإيمان الإبراهيمي وهو يتعرض لحملات ضارية. خوّفه المشركون من حوله بمثل ما يفعلون الآن. ألا يقال لنا اليوم : لا تمعن في القول بعدم أهلية (الولي) الفلاني للنفع والضر أن يعتريك بسوء؟ أجل. قيل لي هذا ومازال. الحملة ذاتها كانت مع إبراهيم. فكان الردّ عليهم ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[الأنعام: 81]. الأمن مع الإيمان منزوع الدسم الوثني الصنمي الشركي بالكامل. والخوف مع الشرك.

4. كان التعقيب القرآني على الطريقة الإبراهيمية في الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[الأنعام: 82] . قال الصحابة له عليه السلام وأينا لم يظلم نفسه؟ فصحح لهم الصورة وقال : الظلم الشرك. وتلا آية لقمان ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[لقمان: 13] .

فهلاّ آمنت ولم تلبس إيمانك بظلم؟

الإيمان على الطريقة الإبراهيمية في إجتباء العقيدة من الكون والتاريخ نظرًا وسؤالا هو الإيمان الذي يكون منزوع الدسم الصنمي الوثني بالكلية فهو خالص من كل شوائب الشرك مهما كانت صغيرة من مثل التطير الذي نغرق فيه و تعظيم محمد عليه السلام إلى درجة التأليه على قول البصيري ـ رحمه الله وغفر له ـ (يا من ليس لي من ألوذ به سواك عند حدوث الحادث العمم). راجع بناء إيمانك ليكون مستخلصا من الكون والتاريخ بمثل ما تجد في القرآن الكريم ودعك مما تسمى كتب عقيدة إذ لا كتاب في العقيدة سوى هذا الكتاب فهو كاف ميسر لا مزيد عليه لمستزيد. تلك هي الطريقة العلمية التي تجعلك فعلا تكفر بالطاغوت قبل أن تؤمن بالله فلا يتلبس إيمانك بظلم الشرك ولو قليلا وعندها يحق فيك وعد محمد عليه السلام « من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة على ما كان منه من عمل ».

65

مذهب الأحناف في الزكاة أوفى بعدالة الإسلام.

المذهب الفقهي ـ وهو فرع من المذهب الأصولي ـ مجموعة من الآراء من أهلها ـ أي المؤهلين للنظر في الأدلة لأجل الإستنباط ـ وفي محلها ـ أي الظنية ورودا في السنة و دلالة في القرآن والسنة معًا ـ ولا يعدّ في العادة مذهبا حتى يكون جامعا لأكثر حقول الحياة في زمن ما ومكان ما. سبب نشأة المذهب الفقهي مزدوج فهو قابلية أكثر نصوص الوحي لتعدد الأفهام إذ المحكم منها قليل وقابلية أفهام الناس للإختلاف في الجزئيات تبعا للإهتمام أو للبيئة وكذا تغير موجبات الحكم ـ أو الفتوى ـ . لذلك إختلف الصحابة في عهده عليه السلام ونشأ مذهبان : إبن عمر الميّال إلى التضييق و إبن عباس الميّال إلى التيسير. ولعل أبرز ما حصل هناك ما عرف بصلاة العصر في الطريق إلى بني قريظة. فلما إنداح الإسلام توسعت الإختلافات الفقهية و ظلت مشدودة إلى أصولها.

ذاك هو المتاح من شريعة جامعة بين منطقتين : مغلقة ومفتوحة. وظهرت مدارس كلامية إستوعبتها الأمة فكان ذلك من بواعث النهضة الفكرية سيما في العهد العباسي. فلما آل الأمر إلى الإنحطاط ولدت قالات معادية للإسلام من مثل غلق باب الإجتهاد وليس في الأمكان أحسن مما كان وما ترك الأولون للآخرين شيئًا. إلا من محاولات سرعان ما دفنت ومن أعلامها: الغزالي والجويني والقرافي والعزّ وإبن تيمية وإبن القيم والشاطبي. ثم إستقر التدين على إتباع ثمانية مذاهب (الأحناف والمالكية والشافعية والحنابلة والأباضية والظاهرية والزيدية و الإمامية الإثنا عشرية). ولكل منها مدونته الفقهية الرسمية ولبعضهم أنظمة سياسية من مثل قيام عمان على الأباضية وإيران على الإمامية والسعودية على الحنبلية.

فقه الزكاة بين المالكية و الأحناف.

إشتهر المالكية بقالة مركزية في زكاة مخرج الأرض هي : كل مدخر مقتات. هناك أصول الإمام مالك نفسه وهناك المالكية القدامى وهؤلاء أيضًا منهم مجتهدون في المذهب ومنهم مقلدون متبعون وهناك المالكية المتأخرون أي في التاريخ. وهذا في أكثر المذاهب. أكبر أصل عند الإمام مالك نفسه ـ من بعد ما يشترك فيه مع غيره ـ هو : فقه الإستصلاح أي إعتبار المصلحة المرسلة التي هي دليل قوي معتبر يصل إلى درجة التقييد والتخصيص. ولما تعرض الإرث الفقهي إلى الإنحطاط فآل إلى الإجترار والتحشية والشروح ضحّي بأصول كبرى مثل الإستصلاح المالكي والإستحسان الحنفي وأطلق العنان لسد الذريعة. كما إشتهر المالكية بالعرف سيما المغاربة منهم تلاميذ علي إبن زياد والإمامين سحنون و أسد إبن الفرات. مذهب الأحناف في الزكاة يقوم على أن كل ما تخرجه الأرض فيه زكاة إذا بلغ النصاب إنطلاقًا من قوله في الأنعام المكية ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾[الأنعام: 141] . وقبل ذلك تحدث عن ﴿وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾[الأنعام: 141]. لا ريب في أن البيئة المختلفة للمذهبين (المدينة والعراق) أسست لذلك الإختلاف. الأحناف غلبوا الدليل المطلق في حين أن المالكية خصصوا ذلك بالمدخر المقتات فهو في نظرهم وتبعًا لبيئتهم يومها أولى بالفقير

والمسكين. أما ما لا يقتات منه ولا يدخر فلا فائدة من الزكاة عليه لأنه مستهلك يومي عارض. هذا الدليل المخصص معتبر ولكن لا مناص من إعتبار البيئة التي أسست له. ما تخرجه الأرض اليوم مما لا يقتاته الناس ولكن يقوتون به أنعامهم التي بها رزقهم وعليها عيشهم كثير وكبير. وما تخرجه الأرض اليوم مما لا يدخر كثير كذلك (الرمان وثمرات النخيل المذكورين في آية الزكاة مثالان فحسب). معيار الإدخار اليوم نفسه تغير كثيرًا إذ يدخر الناس اليوم أشياء كثيرة تخرجها الأرض مما لم يكن ممكنا في تلك الأيام إدخارها أي بسبب التطورات العلمية. قالة المالكية إذن إذا صحت لزمانها ومكانها فإنها أبعد عن تلبية حاجة الفقير اليوم والمسكين. وهؤلاء أولى بهم مذهب الأحناف على إطلاقه. أكثر الناس اليوم لا يخرجون الزكاة سوى من الحبوب (قمح وشعير و زيتون). من من الناس اليوم يأكل مثل هذه فحسب؟ هناك ثمار أخرى كثيرة تخرجها الأرض تعدّ قوتا لهم (فهي مقتات بالتعبير المالكي) بل ويمكن إدخارها أيضا بسبب التطورات العلمية.

كلمتان حول زكاة الفطر والتمذهب.

1. لا تختلف زكاة الفطر (زكاة الرؤوس) عن زكاة المال في شيء من حيث المصرفية ذات الأبواب الثمانية المذكورة. الأحناف الذين قالوا بإباحة دفعها قيمة لا عينًا بدليل رعاية مصلحة الفقير هم الأولى بالإتباع دفعًا لحرج عن المزكي وعن المزكى له إذ بالقيمة النقدية اليوم يمكن للمزكى له أن يقتني ما يريد سيما إذا كان عين الزكاة ـ شعيرًا مثلا ـ لا يلبي حاجته. إن معاذًا نفسه أخذ من أهل اليمن ثيابا زكاة بدلا عن عينها ـ سواء كانت مالًا أو فطرًا ـ لما رأى أن الناس بحاجة إلى الملبس أكثر منه إلى غيره وأقره عليه السلام.

2. الشريعة مادة خام في أجزاء منها والفقه يحولها إلى أدوات عملية ينتفع بها الناس. عامة الناس اليوم مقلدون وقليل منهم من يرتقي إلى أدنى درجات الإجتهاد أي درجة الترجيح بين الأدلة لينتقل من العلم إلى الفقه ويكون ملزمًا شرعًا بما إنتهى إليه إجتهاده. هناك مجتهدون في المذهب نفسه وهذا نفسه لا يرتقي إلى الإجتهاد

المطلوب إذ الدليل ليس حبيس مذهب بعينه. وليس لنا مجتهدون أصوليون أي خارج المذهب ـ سواء إجتهادًا حقليًا أو إجتهادًا مطلقًا عامًا ـ إلا قليلا جدًا. مثل هذا الوضع يجنح بنا ويشدنا إلى التقليد المنكور شرعا. لذا يكون تمذهب أكثر المسلمين اليوم هو تمذهب تقليد وليس حتى تمذهب إتباع إذ لا إتباع لمن يجهل الدليل. لذلك تصطدم بعض الإجتهادات المعاصرة بغض النظر عن صوابها وخطئها بقساوة الجهل ولؤم التعصب. وليس كالتعصب سرطانًا يجفف منابع الذكاء العقلي. العبد الفقير إلى ربه نشأ في مناخ مالكي و من بعد إطلاعه على فقه عظيم من إبن حنيفة فإنه يجعل ذينك الإمامين الكبيرين : مالك وأبي حنيفة في صدارة الإجتهاد الفقهي القديم. ثم يفيد من كل مذهب وفي كل حقل ما يراه مناسبًا لعصره ومكانه. ومن الإجتهاد المعاصر قامات سامقة غمرتها سيول السفاهة وطمرتها المنافسات السياسية.

66

آية مخيفة تسوّي بين الكافر وبين المؤمن الذي لم يكسب خيرًا.

جزء كبير من القرآن الكريم ترغيب وترهيب وفي السنة أكثر من ذلك بكثير. هناك مواضع تبعث الرهبة والخوف وهناك مواضع تبعث الأمل والرجاء. ذلك هو الأسلوب القرآني التربوي الذي يفيد منه الآباء والمعلمون والمربون والمسؤولون علم المنهاج التربوي. من الآيات المخيفة قوله في الأنعام ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام: 158]. ذاك يعني أنه عند قدوم ملائكة الموت أو عند إتيان ربك للحساب في مشهد آخر يقول فيه ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾[البقرة: 210].. أو عند إتيان بعض آيات ربك ـ المقصود بهذا طلوع الشمس من مغربها ـ .. عند إتيان أي من ذلك فلا يكون الخسران للنفس التي لم يسبق لها إيمان فحسب أي الكافرة بل يشمل الخسران نفسًا مؤمنة ـ بسابق إيمان قبل الموت ـ ولكنها لم

تكسب في إيمانها خيرًا. تستوي هي والنفس الكافرة بالتمام والكمال. أليس ذلك مخيفًا مرهبًا؟ الذكي يسأل : كيف نجني من إيماننا خيرا فلا نستوي يوم القيامة مع الكفار؟

الإيمان رأسمال للإستثمار والتجديد وليس للهدر أو التبديد.

الإنسان تاجر في الدنيا أو لا يكون. هو تاجر في دنياه بعيشه ليرتفق أكلا وشربا وملبسًا. وهو تاجر في حياته بإيمانه ليكسب خيرًا يكون له شفيعا يوم الدين. فمن آمن ـ أو إدعى إيمانًا ـ فلم يستثمر رساميله العقدية في فعل الخير الذي به ينفع نفسه وينفع الناس من حوله يستوي مع من لم يؤمن أصلا يوم القيامة.لم؟ لأنه إستوى معه في النتيجة. أي أن الكافر نفسه لم ينفع نفسه ولم ينفع الناس من حوله وإذا كان قد قدم لهم نفعا فهو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا. أو كريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته. أو كبحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض. أو كهباء منثور تذوره الرياح ذورًا. عمل الكافر النافع لم يكن خالصًا لوجه الله سبحانه فينتفع منه الناس في الدنيا ولا ينتفع منه صاحبه نفسه في الآخرة. الكافر يفعل الخير الكثير وينفع الناس به في الدنيا وهو في نفسه يظن أنه هو سبب الخير أو هو خالق الخير أو أنه أوتيه على علم عنده كما إدعى قارون. ومن فعل خيرًا في الدنيا ظانًا أن مالك الكون الذي منه فعل الخير وبه كسبه وفيه أنبته ليس له من الأمر من شيء فإن مالك الكون الذي تنكر له في الدنيا لن يثيبه يوم القيامة. مسألة عقلانية ميسرة لا تحتاج لتجريدات فلسفية.

أبرز خلاصة هي أن الإيمان المزعوم وحده لا يكفي.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ﴾[الحج: 77]. فعل الخير شيء مغاير ومختلف عن الركوع والسجود والعبادة. فعل الخير عادة ما يكون مقصودًا به الناس الذين ينتفعون بالخير منك بسبب عقدي إيماني. أما من يقصر إيمانه على الركوع والسجود والعبادة فما فعل خيرًا وما كسب في إيمانه خيرًا أي ما حقق للناس من حوله خيرًا. أول ما نستنبطه أن كسب

الخير من الإيمان هو فعل الخير للإنسان إما دفاعًا عن عرضه وماله ونفسه وحقه أو إطعامًا له وحضا على ذلك أو تعليمًا إياه أن يظل في دياجير الجهل مكبلًا حبيسًا. ولذلك قال عليه السلام « الناس عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله ». كما قال في موضع آخر « والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ».

كسب الخير هو إذن : تحرير الإنسان من كل مواطن الرق مادة ومعنى.

تلك هي الخلاصة القمينة بهذا. ومما يؤكد ذلك قوله في مرات ﴿وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾[التغابن: 16]. وكثيرًا ما يسمي الإنفاق خيرًا ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾[البقرة: 272] إلخ .. ذلك يعني أن الخير كله إنما هو تحرير الإنسان قدر الإمكان من براثن الرق مادة ومعنى. أي تحريره من الرق الحقيقي وكذا تحريره من الجوع والظمإ والدين والعري والجهل والإحتلال والنفي إلخ..

هذا درس كبير لا يفوتك يا صاحبي.

عنوان الدرس هو أن إيمانك رأسمال عظيم وهبكه الرحمان سبحانه ليبتليك فيه هل تستثمره في حقول الخير لنفع الناس قدر إمكانك أم يظل رأسمالًا مجمدًا في صدرك ربما تنفع به نفسك ولكنه لا يمتد إلى غيرك سيما الجار والرحم والمحتاج ممن تعثر عليهم في معركة الحياة جوعى وظمأى وخوفى وعراة وحفاة وجهلى وثكلى وأيتاما وضعفة إلخ ..

إيمانك إما أن تستثمره في حقول تحرير الإنسان من تلك المردات التي فيها يهلك على قدر إمكانك وإما فإنك تستوي ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ﴾[الأنعام: 158]. مع الكافر الذي لم يسبق له إيمان.

ألا تجد أن ذلك شبه جديد في وعيك؟ خذه بتواضع. الإيمان منزوع الدسم الخيري نفعا للناس من حولك قدر الإمكان يساوي الكفر يوم القيامة. إعمل به. لا تنتظر أن تلفى محتاجًا يمد إليك يده فالناس فيهم مزعات حرية ومضغات كرامة. بادر بترتيب صدقة جارية منذ الآن في أي باب (جمعية خيرية مثلا) بمعدل وحدة نقدية واحدة عن كل يوم (يورو - دينار).

هذا نذيري لنفسي ولك.

بادر إلى فعل الخير النافع للناس به يتحررون ماليًا ونفسيًا وفكريًا. بادر إلى ذلك ما دمت حيًا. فإن لم أفعل فلا عبرة بركوعي ولا بسجودي ولا بعبادتي يوم القيامة. إن لم أفعل أستوي مع الكافر. ذلك هو معنى إستواء مؤمن راكع ساجد عابد منع الخير عن الناس وهو يقدر عليه مع كافر. ذاك مؤمن لم يكسب في إيمانه خيرًا وهذا كافر لم يسبق له إيمان أصلا.

آية مخيفة مرهبة.

67

لا يحرم من الجنة ـ بعد هذا السخاء الرحماني ـ إلا أشقى الأشقياء.

قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[الأنعام: 160] .

ضبابية آن لها أن تزول.

كثيرًا ما أتعرض لهذا السؤال : كيف يقول سبحانه أنه يدخل الجنة من يشاء والنار من يشاء ويغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء؟ تعرضنا ونحن شباب يافعون في عام 1976 في مدينة جرجيس الشاطئية الجميلة إلى المشكلة نفسها ولما سألنا أستاذ تربية إسلامية قال لنا بالجهل الذي تغرسه المدرسة البورقيبية : أن ﴿مَن يَشَآءُ﴾ معناها : من يشاء من الناس وليس يعود الضمير إلى الله. لم يكن لنا يومها أي علم شأننا شأن كل متدين جديد يحرص في الأعم الأغلب على الكم بدل الكيف والمظهر بدل اللّب. لم نصدقه وإحتفظنا بفهمنا الذي ثبتت صحته من بعد ما تعلمنا أن المشيئة هنا ـ وفي كل موضع إلا قليلا جدًا ـ مردها إليه وحده سبحانه. هذه قضية عقدية في منتهى اليسر. الأمر

نفسه ثار في نفس زميلة صديقة حريصة على حسن فقه كتاب ربها. تسأل دومًا عن هذه المشيئة المحررة أبدًا إليه وحده سبحانه. منشأ المشكلة هي أن فهمنا للحرية يشوبه الذي يشوبه من الفهوم الخاطئة. نحن نتعامل بحرية حتى مع الله سبحانه. نريد أن تكون هي الحرية نفسها مع الناس ومع رب الناس. نظن أنه عندما ينسب المشيئة إليه وحده سبحانه غمط لحريتنا أو أن الأمر لا يخضع لقانون بل هي صدف ظلامة فربما يدخل النار يوم القيامة من يستحق الجنة أو العكس. أو لماذا هدي فلان الذي لا نحبه كثيرا ولماذا ضلت فلانة التي نحبها.

تحرير المشيئة وإستخلاصها هو مقتضى الإلهية بالضرورة.

أي إله هذا الذي يذرأ كونًا ويجعل فيه كائنا له أن يعصيه غصبًا عن إرادته؟ هذا ليس أهلا للألوهية. إله مثل هذا يمكن أن يعبد لزمن ثم يكفر به أو من لدن طائفة فحسب. منشأ الخلط هو تفريقنا بين المشيئة وبين الحكمة. هما وجهان لقيمة واحدة. المشيئة معناها أنه لا يحدث أي شيء أبدا في كونه وخلقه وملكوته دون إذنه وعلمه وتدبيره. الحكمة معناها أنه فعل كذلك حتى يترك للإنسان ـ دون غيره ـ مساحة إرادة حرة لأجل تفعيل أكبر قوانينه أي الإبتلاء. لو فعل الإنسان ما يشاء هو دون تدبير إلهي لكان هو الإله وما عاد يحتاج إلى إله. ولو سلبت منه إرادته وحريته ليؤمن إن شاء وليكفر إن شاء فما عاد للإبتلاء والجنة والنار من معنى. كيف تمتحن كائنا أصم أبكم أخرس أعمى؟ كيف تمتحن عبدا لا يملك حريته؟ ضمن ذلك الإطار نفهم بيسر قضية المشيئة المحررة المستخلصة له وحده سبحانه والتي هي الوجه الآخر لحكمته. عندما يتحرك الإنسان في حياته وفي الكون وهو يؤمن أن فوقه إلها لا يقع أي تدبير إلا بإذنه فإنه يكون إنسانا مؤمنا أما عندما يتحرك مدعيا الإيمان وهو يظن أنه ليس هناك قوة فوقه قهارة مدبرة.. أي إيمان لمثل هذا؟ لذلك ينسب الله سبحانه المشيئة دوما إليه وحده ليعلمنا ويذكرنا أنه الله الذي لا إله إلا هو سبحانه فلا نغتر بما حققنا من نجاحات أو نيأس بما إقترفنا من إخفاقات. طبيعة العلاقة بيننا وبينه تقتضي ذاك. هي طبيعة عابد مع معبود ومالك مع مملوك وصانع مع مصنوع ورازق مع مرزوق.

سخاء رباني وعطاء رحماني لا يضاهى.

كل حسنة بعشر أمثالها. أما السيئة فبمثلها فحسب. بل هي قابلة للتوب في أول مناسبة ولو إستغفارًا بالقلب واللسان مع ندم يخالج الفؤاد وحسرة وألم وأمل في التصحيح إلا أن يكون الأمر متعلقا بحرمة الإنسان فإن التوبة لا تتحقق حتى يؤدى إليه حقه. تعال إلى مثال وبالمثال يتضح الحال كما قالت العرب : هب أنك تشتغل مستأجرًا عند مؤجر ما. كل بضاعة تبيعها له يثيبك عليها بعشرة أضعاف ثمنها وكل بضاعة لا تبيعها له كسلا منك وتقاعسًا فحسب وإيثارًا للدعة في وقت دوامك المتفق عليه بينكما يعاقبك عليها بثمنها هي فحسب مرة واحدة ليخصم لك من أجرك الجملي. ومع هذا حدد لك بضاعات أخرى يثيبك على بيعها بأضعاف مضاعفة تصل إلى حد سبعمائة ضعف وهناك بضاعات أخرى تخرج عن دائرة الإحتساب العادي ليكون الثواب عليها لا يتصوره عقل. قل لي بربك : هل أن مستأجرًا مثل هذا عند مؤجر مثل هذا يتعرض للخسارة؟ أبدًا. تعرضه للخسارة غير وارد أبدًا البتة. إنما هو في سباق تنافسي مع بقية المستأجرين. ولله المثل الأعلى سبحانه.

السخاء أعظم والعطاء أكبر وأجزل. ألسنا موعودين بوعد مباشر من القرآن الكريم أن إجتناب الكبائر فحسب يفضي إلى غفران كل السيئات مهما كثرت. يعني هناك بضاعات معينة حتى لو لم تبعها لسيدك المؤجر تقاعسًا وكسلا وإيثارًا للدعة والراحة فلا شيء عليك ما لم يحصل ذلك التقاعس مع بضاعات أخرى وعددها قليل جدًا. ذلك إيماني: حلم الله ورحمته وفضله وسعته وصفحه وعفوه أكبر مما نتصور مجتمعين وأكثر مما ننتظر مادمنا مؤمنين عفوًا من الكبر والولوغ في حرمات الإنسان دمًا وعرضًا ومالا.

عود إلى قضية المشيئة.

لا تظنن أن ردّ المشيئة إليه وحده سبحانه نفي لإرادتك وإعدام لحريتك أو أن الجنة والنار غير محكومين بقانون. لا تظنن أنه سبحانه يدخل النار يوم القيامة من شاء هو حتى لو كان في ذلك ظلم أو يدخل الجنة من شاء هو حتى لو كانت في ذلك محاباة لفلان على شخصه لا على عمله أو له على حساب فلان. لا. الأمر مختلف. تحرير المشيئة

إليه وحده سبحانه معناه تحرير الإلوهية له وحده سبحانه. ألا ترى أنه قد حرر لك أنت المشيئة بالكلية عندما قال لك في سورة مكية ـ الكهف ـ ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف: 29]. لم؟ لأنه لا يكرهك على شيء ثم يحاسبك عليه. هو يحب لك الإيمان ويرضى لك الجنة ولكن لأجل تكريمك بالعقل والإبتلاء دون سائر الكائنات كلها فإن حكمته تقتضي أن يشاء توفير الكفر وداعياته والإيمان وداعياته وأنت حر مخير إلى أين تتجه. اللهم ثبت قلوبنا على الإيمان بك.

68

بين الإسلام والعالمانية : آية في آخر الأنعام.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾[الأنعام]. مشكلة قديمة جديدة في فهم الإسلام. أصل المشكلة أن الإسلام ـ بخلاف كل دين سالف ـ هو دين جامع لكل مناحي الحياة ولكل أبعاد الإنسان. لهذه المشكلة صلة بهوى الإنسان وليست مشكلة فكرية فحسب. الدين جاء لقمع الهوى : خطاب لا تكاد تسمع له ركزًا. قمع الهوى أي: معالجة الحرب الداخلية الدائرة في الإنسان نفسه بين داعيات العقل وداعيات الشهوة.

العالمانية نقيض الإسلام وبينهما حقول وصل وحقول فصل.

لم يشهد عصرنا قضية فكرية بمثل العالمانية أسالت مدادًا بمثل ماء البحر ولن تزال المعركة حولها محتدمة. هي بنت الفلسفة الغربية المادية في إثر إنتصار الحركة العلمية في أروبا قبل قرون قصيرة على السلطان المزدوج بتحالف قيصري سياسي وديني كنسي. أصل العالمانية هي الحرية الفردية لتأخذ الدولة مسافة من الحريات الفردية فمن شاء آمن ومن شاء كفر. العالمانية هناك كانت ثمرة ناضجة طيبة لتلك المعركة إذ لم يكن من الممكن عقلا أن تثمر المعركة إعتناقًا للإسلام. ثم سرعان ما إنحرفت مسارات تلك الحرية لتكون صاحبة مسافة من كل دين إلا الدين الإسلامي الذي هو على الضفة

الأخرى من المتوسط بل كان هناك في الإندلس وسبقت له إندياحات شرقًا وغربًا. شهدت العالمانية إنقلابًا مدويًا إذ سرعان ما تمسحت وتكنست بل تدينت (نسبة إلى المسيحية والكنيسة). ومن أصدق ثمرات التاريخ تروّم المسيحية القادمة من الشرق إلى الغرب لتمسيحه أي أن المسيحية مشرقية الأصل (بيت لحم والناصرة) قدمت إلى الغرب لتمسيحه فكانت الغلبة لروما ـ أي للنكهة الغربية الرومية ـ فما تمسحت روما بل تروّمت المسيحية. العالمانية تنسب إلى العالم أي إلى الدنيا أي إلى العقل المتنصل من الهدى السماوي ولا إلى العلم إلا بمعنى أن العلم شأن عقلي قحّ لا شأن له بهدى السماء. لا فرق بين عالمانية جزئية تعترف بالعقيدة وربما بالعبادة وبين عالمانية جامعة تطرد الوحي بالكلية من الحياة. هو فرق داخلي فحسب.

وتظل مشكلتان محل معالجة (الموقف السياسي و حقول الوصل والفصل).

دعنا مع حقول الوصل والفصل بين العالمانية والإسلام أولًا. حقل الوصل الأكبر هو أن كلاهما ينطلق من الدعوة إلى الحرية بحسبانها المنفذ الأوحد من منافذ العقل. الخطاب في الإسلام هو ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾[البقرة: 111]. و﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾[البقرة: 256]. و﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف: 29]. و« خلوا بيني وبين الناس ». الخطاب في العالمانية هو أن إعادة بناء أروبا الجديدة من بعد دحر السلطان الكنسي لا يكون إلا بإتاحة الحرية الفردية للناس ليتخذ كل واحد منهم ما شاء من دين أو يختار اللادين أصلا والدولة تضمن المساحة الكفيلة بذلك. تلك المساحة اليوم مكفولة للأروبي إلا إذا إختار الإسلام فإنه يضع النظام الإجتماعي هناك في مشكلة عويصة أي بين الخيار العالماني وتحميه الدساتير والقوانين وبين خيار الإقصاء. ذلك هو حاضر المعركة الأروبية اليوم. ثروتها بسبب ذلك في مفترق طريق خطير. الإسلام والعالمانية يلتقيان في حقل واسع من الحرية من حيث الأصل سوى أن العقلاء من هنا ومن هناك لا سلطان لهم. ذلك هو أكبر سلاح بيد الإسلام أي : أسلمة العالمانية وإستيعابها ضمن خطابه المتشدد جدًا ضد كل معاني الإكراه وصور الفتنة. عندما يحدث ذلك التلاقح في معركة فكرية متكافئة فإن الحقل الأول ـ حقل التحرر ـ لن يبقي على حقول الفصل بينهما.

دعنا نؤجل المعالجة السياسية إلى حين لنعالج مسألة أكبر. قيام دولة إسلامية لا يعني سلب الأمة سلطانها ومشروعيتها لصالح حكم تيوقراطي إلهي ديني على نحو تكون فيه إجتهادات الدولة وأعمالها متمترسة خلف القدسية الإلهية أو النبوية أو الدينية ويظل المعارض لها معارضًا لله ولرسوله. تلك أكذوبة العالمانية عندما إنقلبت على نفسها فأخرت الحرية وقدمت عداوة الإسلام وإجترحت لحربها ضده السلاح ذاته الذي إنتصرت به على المسيحية الكنسية قديما أي النطق بإسم الله وتوزيع صكوك الغفران بما أثمر من إعدام للحرية الفردية. لم تقم مثل تلك الدولة في تجربتنا الإسلامية ولو ليوم واحد. كلمة السر في المعركة : من ينجح في قضية الحرية قولا وعملا ضمن النجاح لمشروعه سواء كان صاحب مشروع إسلامي أو عالماني. عملة الإنسان هي الحرية فمن آمن بها آمن بدينه ونجح في تدينه وإستقطب إليه الناس ومن أخفق فيها إرتدّ وهو لا يعلم بل ربما يحسب أنه يحسن صنعًا.

الموقف السياسي غير الموقف الثقافي.

الموقف الثقافي من العالمانية هو موقف الحوار والتعايش السلمي أسوة به عليه السلام في المدينة ما لم تكن هناك خيانات وطنية (بني النضير وبني قريظة). الموقف السياسي يتردد بحسب القوة والضعف. فإما معالجة على أساس المواطنة التامة وإما تحالفات سياسية لدحر الإستبداد أو بناء الدولة على أساس التوافق. (القتال) الثقافي السلمي يغدو تحالفًا سياسيًا سلميًا لتحصين الأمة.

كيف يكون المحيى لرب العالمين لا شريك له؟

يكون ذلك في الحقل العام ـ السياسي ـ بتصحيح الإعتقاد بجماع الإسلام ومن ضمن ذلك لنفسه لا يضيره أن يقصّر في تنزيله بسبب أن تنزيله واجب الناس كلهم ولكن لا يعفيه ذلك من المقاومة السلمية ـ الجهاد بالقرآن كما سماه القرآن ـ بما تسنى له. أما الرضى ـ قلبا لا إكراهًا ـ بحياة ممزقة تكون فيها الصلاة لله والنسك ويكون فيها ما بقي من الحياة لغير الله سبحانه .. ذلك هو الشرك السياسي الأكبر. ذلك هو شرك المحيى أو شرك الممات. دون الشرك العقدي التوحيدي الأوّل؟ إي. ولكنه شرك في الرضى لا في الإكراه.

69

أصحاب الأعراف أو أصحاب الملفات المرجأة.

تسمّت بإسمهم سورة مكية طويلة (الأعراف). سياق الحديث عنهم يسعفك بيسر أنهم جماعة من الناس يظلون فوق الأعراف (جمع عرف وهو ما علا وإرتفع كعرف الديك والعرف التقليدي الذي عرفه الناس وألفوه حتى أضحى بينهم عاليًا مرفوعًا). يبدو أن مكان الأعراف المرتفعة في صورة هضبة أو جبل واقع بين الجنة وبين النار. أصحاب الأعراف لا هم ممن إستحق الجنة بيسر فدخلوها ولا هم ممن إستحق النار بيسر فدخلوها. أحسن تعبير معاصر عنهم أنهم أصحاب الملفات المرجأة. كما يفعل قضاة الدنيا عندما يختلط بملف المتهم أو المدعى عليه ما يحتاج إلى إستكمال بحث ولله المثل الأعلى سبحانه. الأرجح أنهم مؤمنون إذ لا يطمع الكافر بدخول الجنة يوم القيامة أبدًا ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾[الأعراف: 46]. ربما قصر بهم إيمانهم فكانوا من الذين آمنوا ولم يكسبوا في إيمانهم خيرًا. قال بعضهم أنهم من تراجحت سيئاتهم وحسناتهم أي تساوت. تأويل قريب. التساوي هنا نادر بسبب أن سعر الحسنة في حساب المؤمن عند ربه عشر حسنات على الأقل. أخبرنا سبحانه أن أصحاب الأعراف ممن أجلت ملفاتهم فلم يحسم فيها ولكنهم مؤمنون قطعا حتى لو لم يكونوا مسلمين في الدنيا أو أتوا فواحش وموبقات مهلكات نسفت كل عمل صالح قدموه. هم في حالة حوار مع طرفي أعرافهم التي عليها يجلسون ناظرين مصيرهم : أصحاب الجنة وأصحاب النار. وهؤلاء أيضًا بدورهم في حالة حوار هناك من وراء حجاب. ومن السياق ما نفهم منه ـ ظنًا لا قطعًا ـ أن أصحاب النار صرحوا يوم القيامة أن أصحاب الأعراف لن يدخلوا الجنة ولكن الله سبحانه لا يوئسهم من طمعهم فيها فيأذن لهم بدخول الجنة وبذلك يكتمل المشهد القضائي التعقيبي الأخير ليوم القيامة ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾[الشورى: 7]. وما مرحلة الأعراف إلا مرحلة بينية مؤقتة لحكمة يريدها سبحانه. لم ترد كلمة الأعراف في القرآن في غير هذا الموضع فما لنا من حيلة سوى التركيز على السياق لحسن فهم الأعراف ورجالها.

ما الذي يهمنا في قصة الأعراف؟

1. هو مشهد من مشاهد الغيب يعالجها الوحي الكريم بإطلالة سريعة تجمع بين جلاء هنا وخفاء هناك. هنا حكمة بالغة يمتحن فيها الفؤاد. الحكمة هنا هي أن من آمن فؤاده إيمانًا صحيحا بالأصول العقدية العظمى (الله سبحانه واليوم الآخر والرسل) يظل راسخًا على ذلك ثابتًا عليه فما تزيده المواضع الظنية ـ وهي كثيرة في القرآن الكريم نفسه ـ سوى إيمانا على منوال قوله سبحانه ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾[آل عمران: 7]. دعني أعطيك مثالا وبالمثال يتضح الحال كما قالت العرب. أنت تثق في أبيك وتحبه وتخشاه. أحيانًا يكلمك أبوك بكلام تعي بعضه ولا تعي بعضه الآخر. أنت تنفر لتنفيذ ما فهمت منه ولا يخامرك شك في أن ما لم تعه منه لا يبطل ثقتك فيه ولا يلغي حبك إياه ولا يخدش من مكانه في قلبك. ولله المثل الأعلى سبحانه.

2. الناس في هذه الدنيا أنواع لا يحصيها حاص. كون أصحاب الأعراف ممن تساوت حسناتهم بسيئاتهم أو ممن نسف الظلم حسناتهم أو ممن آمن ولم يفعل خيرًا أو من الذين لم تبلغهم دعوة الإسلام أصلا فهم أصحاب فترة (قولك أصحاب فترة أصح من قولك أصحاب فطرة كما يقول الناس ويكتبون) إلخ .. إحتمالات التأويل هنا لا تحصى لأن تصوراتنا هنا محدودة بالزمان والمكان وحجب كثيفة كبيرة.. كونهم هؤلاء أو أولئك لا يغير من الأمر شيئًا إذ المقصود إمتحانك أنت بقصة الأعراف هل تعدّها ظنية ـ وهي كذلك في جزء منها ـ فتلحقها بالقطعي أم تعلو فيها صهوة عقلك حتى يطيش حدّة ثم يقتلع ما فيك من إيمان أصلا.

3. قوله (رجال) متحدثًا عن أصحاب الأعراف لا يعني الرجولة الجنسية الفحلية طبعًا. هذه الصيغة الصرفية تعني أن عددهم ليس كثيرًا. ليسوا هم أمة. يقيني دوما هو أنه ـ عدا الكافرين ـ يندر جدًا ولا يستحيل ـ أن تلفى مؤمنا تساوت حسناته مع سيئاته لأن نظام الإحتساب (مجلس الأساتذة) يرفع كل حسنة مهما كانت صغيرة إلى عشرة أضعاف في حين أن السيئة تظل واحدة فحسب بل ربما

تغفر في أول عملية إستغفارية سيما إذا لم تكن ذات مضمون عدائي على الإنسان مالا وعرضًا ونفسًا.

4. خطابهم من فوق أعرافهم يوحي بأنهم كانوا مؤمنين في الأصل ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [الأعراف: 46]. إلى أهل الجنة. ودعاؤهم ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: 74]. وقولهم لأهل النار ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ [الأعراف: 48]. لم يكونوا لا مشركين ولا كافرين بأي ضرب من ضروب الكفر الأكبر المخرج من الملة ولم يكونوا خاصة مستكبرين لا على ربهم بكفر وجحود ولا على الناس.

الخلاصة.

1. قراءة في سورة الأعراف التي إحتضنت مشهد الأعراف توحي بتفاعل خمسة أركان تشد السورة وتساعد على فهم قضية الأعراف. تفاعل بين الآدمية الأولى حيث أصل المعركة المحتدمة بين إبليس وبين آدم وخلاصتها أن ذنب الكبر لا يغفر وذنب الشهوة يغفر.. وبين داء الكبر الذي لوّن السورة فهو يصحبها أينما حلت وإرتحلت.. وبين القصة الإسرائيلية الجامعة بين الكبر وبين الإلتواء الحربائي وقد إحتلت من هذه السورة جزء كبيرًا .. وبين منزع إرجائي تردد في السورة ﴿سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف: 169]. و﴿قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ [الأعراف: 95] .

2. مشهد الأعراف ترهيبي رسالته : الإيمان وحده مهما كان صحيحا فإنه قد يحبس صاحبه فوق الأعراف ليظل سجين أمل مشوب بألم وعيناه واحدة على نعيم الجنة والأخرى على جحيم النار. الإيمان رأسمال لا بد منه لخوض معركة الحياة ولكن إحرص الحرص كله على عدم وأده بسرطان الكبر وبسرطان الإرجاء معًا. حياتك قصيرة جدًا وهي مجموعة أيام كلما إنقضى منها يوم لم تفعل فيه خيرًا يزكي إيمانك إنقضى منك بعضك. الوقت سلاح ذو حدين فإما وجهته لحاجتك وإلا فهو موجه إليك بفوهته ليقطعك إربًا إربًا.

70

أولوية الإسلام هي : تحرير الإنسان قبل دعوته إلى ربه.

تلك حقيقة نطق بها القرآن الكريم نفسه إذ قال في شأن بني إسرائيل متوسعا في قصّ أمرهم علينا في أول سورة بالترتيب أي الأعراف ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: 105]. وهي أول كلمة في الحوار بين فرعون وبين موسى عليه السلام. كانت مناخات الخوف سائدة وربما كان موسى عليه السلام يدعو سرًا أو من يثق بهم فحسب ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ﴾ [يونس: 83]. قصّ علينا ذلك في يونس المكية. يؤكد مطلب موسى عليه السلام الوحيد من فرعون في سورة طه المكية ﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ﴾ [طه: 47]. وهو مطلبه نفسه في سورة الشعراء ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء]. كان مطلب موسى الأول في أول لقاء مع فرعون هو : إرسال الإسرائيليين معه لإنجائهم من التعذيب الذي يلاقونه. ومن أقوى ما يؤكد أنه لم يميز في رحلة الفرار بين مؤمن وغير مؤمن من بني إسرائيل قوله سبحانه عنهم من بعد عبورهم البحر الأحمر وغرق فرعون ﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ﴾ [الأعراف: 138] . إما أنه كان يدعو سرًا فحسب أو من يثق به فحسب وفي كل الأحوال فإن قضيته الأولى معهم لم تكن دعوتهم بل تحريرهم من بطش فرعون أولا والخروج بهم إلى حيث أمره ربه سبحانه. الأمر نفسه حدث مع محمد عليه السلام إذ كان يحض أغنياء المسلمين الأوائل في مكة على تحرير العبيد سيما من آمن منهم وأشهر حدث في ذلك هو تحرير أبي بكر لبلال عليهما الرضوان. تالي القرآن الكريم يلفى بيسر أن الحض على تحرير الرقيق يحتل حيزًا كبيرًا بل جاء في كل كفارة تقريبًا.

ما هي الرسالة؟

يفهم من ذلك أن أولوية الأولويات في إلاستراتيجيته الدعوية هي : تحرير الإنسان

أولا ثم دعوته إلى ربه سبحانه بالحكمة والموعظة الحسنة بلاغًا مبينًا لا إكراه فيه إمعانًا في تنفيذ القاعدة الذهبية العظمى في معالجة الإنسان بالحرية ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[الكهف: 29].

لم نتوجس نحن اليوم من هذا؟

1. نتوجس نحن اليوم من مثل هذه التقريرات المستنبطة من القرآن الكريم نفسه بسبب أننا في الجملة صنعنا بثقافة تقدم الدين بطريقتنا نحن وتؤخر الإنسان والحرية. أسباب متراكمة متبلدة في تاريخنا وتراثنا حالت دوننا ودون تنزيل الحرية الإنسانية مكانها المتقدم في عملية التدين. الذين درسوا التاريخ يدركون أن النذير النبوي تحقق فينا بسرعة فكانت آثاره قاسية علينا سيما نحن الذين بيننا وبين تلك الحقبة مساحات تاريخية واسعة. لما قال عليه السلام « لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة : أولها الحكم وآخرها الصلاة» إنما كان يقول ذلك وقلبه ينزف دما فهي نذارة في ثوب نبوءة وليست نبوءة فحسب بمثل قوله عليه السلام أن « مدينة هرقل » تفتح أولا أي القسطنطينية قبل رومية. هما نبوءتان و مؤكد أنه أفصح عن الأولى متألما وعن الثانية آملا فرحًا.

2. هناك قواعد راسخة في الخطاب القرآني العظيم لم نفقهها حق فقهها من مثل نفي الإكراه ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[البقرة: 256]. وما ينبجس عن ذلك من تقرير للحرية الإنسانية. إنقلبت الأمور من رأسها سريعًا في تاريخنا فأحدث ذلك الإنقلاب إنقلابات وتشوشات وإضطرابات جانبية أخرى في حقول ومناشط أخرى مهمة ونحن اليوم صنيعة كل ذلك.

3. لذلك يعزى جزئيًا ـ لا كليًا ـ لجوء جماعات إسلامية كثيرة إلى الإكره طريقًا إلى الهداية. كثير من المنسوبين إلى الدعوة والعلم من غير المنتسبين إلى تلك الجماعات ليسوا بغرباء كثيرًا عن ذلك المنهاج الدعوي الذي لا يعرض الإسلام وما فيه من جمال وزينة عرضًا أخاذًا مغريًا بسبب تقديمهم الترهيب على الترغيب والنار على الجنة

والعقوبة على الثواب واليأس على الأمل. الإنسان كائن مركب سريع التفلت والتقلب فإن لم يظفر بطبيب ماهر يعرف كيف يستأصل داءه دون تنفيره منه حتى لو آله فإنه يظل كما هو.

4. نتوجس اليوم من ذلك لأننا نشأنا في بيئات تقدم خطاب الحرية والكرامة والسعادة ورغد العيش في الخطاب السياسي والإعلامي وليس على أفواه المنسوبين إلى الدين ودعوته. نشأنا على أن الحرية مفردة سياسية وليست مفردة إسلامية دينية شرعية بل هي خطة الأنبياء والمرسلين لهداية الإنسان. نشأنا على أن الغرب الذي قدم الحرية تسيبت نساؤه تعريًا وتبرجًا وأن الشرق الذي لفظ الحرية مبنى ومعنى تسترت نساؤه فصنعتنا البيئات على أساس أن الحرية مناط كل شر. لم نهتد إلا قليلا إلى أن الحرية سلاح ذو حدين وهي ككل قيمة يمكن توظيفها لتكون مناط خير للإنسان أو تكون مناط شر.

خذوا عني هذه فحسب.

تجربتي في الحقل الدعوي في الشرق وفي الغرب معًا وعمرها أربعة عقود كاملات تقول لي أن الله سبحانه لن يخلف وعده الماضي في جعل أسطورة كل قوم هي مناط هدايتهم أو سبب هلاكهم. علمنا سبحانه أن يجعل من الأمر الذي شغف به الناس إما سبب هداية أو سبب هلاك. كان ذلك مع فرعون وقومه في قضية السحر بل كان ذلك مع البيان البلاغي المعجز السليق في رسالة محمد عليه السلام لعشيرته الأقربين (قريش). حدسي يقول لي أن الغرب ـ النافذ منه والمعادي ـ الذي يدلي بتقدمه العلمي به وبإسمه ينسف وينهب ويسلب ويتعالى سيهزم بالسلاح نفسه من لدن الإسلام نفسه إما بإهتداء بعضه وهو يعلم أن العلم الذي به يتبختر له في الإيمان أصل آصل وإما بظهور علامات علم وأمارات معرفة معاصرة تبزّ الغرب نفسه مبرزة أن الإيمان محراب علم وعتبة معرفة أو بالأمرين معًا. إرهاصات ذلك بادية اليوم سوى أن الإعلام البليد يغمط ذلك. ذلك حدسي وذلك إيماني سوى أن العمر الدالف سريعا إلى القبر لا يسعفني لأرى مصداق ذلك في الواقع.

71

معروف وطيبات ويسر .. تلك هي معاقد رسالتك (1)

جاء في الأعراف : ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[الأعراف: 157]. هي أركان الرسالة الإسلامية الخاتمة وعلى ورثة الأنبياء حسن فهمها لحسن تمثّلها وإبلاغها وبناء الحياة على منوالها.

كل ما أمر به الإسلام معروف.

أمر بالإيمان لأنه معلوم فطرة وتجربة أنه يعصم الشخصية من التذبذب والإنفصام في إتجاهها العام في الحياة إذ لا يتسنى ذلك لمن يعبد شيئا مذبذبا كالهوى مثلا أو من يؤمن بالإزدواج الإلهي فإن أرضى هذا الطالب أغضب ذاك. كما أمر بالإيمان لأنه يحصن النفس من العاهات الروحية المنتشرة اليوم من مثل الإنسحاق أمام السحر وبين يدي المصائب والأوجاع ويؤسس لشخصية متوازنة فلا هي متورمة الكبر ولا هي خاملة تداس بالنعال. ما سألت مسلمة ألمانية من بعد إسلامها مباشرة لم أسلمت إلا قالت : لم يكن لحياتي من قبل الإسلام معنى. أمر بالصلاة والصيام والزكاة والحج لتزكية النفس وتربية الروح وتطهير منافذ الجشع والطمع والأثرة والكبر في الإنسان. الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتعلم التواضع والتوازن بين الدنيا وبين الآخرة كما تعلم الجماعية وفقه المشاركة وفقه الإصلاح السلمي (عندما يخطئ الإمام فتصححه بكلمة). الصيام يعلم التقوى والشكران ويذكر بالنعمة التي حرمها الجوعى ويبعث على فعل الخير ويعلم المساواة وينمي في الإنسان مكابح الهوي على الدنيا كما يهوي الذباب على القاذورات. الزكاة مطهرة وتزكية ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[التوبة: 103] . تعلم التوازن حيال المال والثروة وتعلم التخطيط الإقتصادي والإستثمار والصفق أن يخلد المال إلى النوم فتفترسه الزكاة. تنمي بواعث التراحم والتكافل

بين الناس. الحج مدرسة للتعارف بين الناس بل مؤتمر سنوي للنظر في حصاد عام فات ومعالجة تحديات عام آت. يعلم المساواة ويذكر بالبعث والنشور ويربط بالملة الإبراهيمية وبمقاومات إسماعيل رمز الفداء وأمه هاجر رمز الأمل الضارع. الحج فترة إستراحة للنفس من تعب الدنيا وضجيج المال وإكتظاظ المواعيد. الحج رمز للتوحيد الخالص الصافي بكعبة واحدة وقبلة واحدة وشعائر واحدة في زمن واحد ومكان واحد وإنسان واحد.

كل ما نهى عنه الإسلام منكر.

نهى عن الشرك وكذا أنواع الكفر كلها لأن النفس الكافرة نفس جحود لا تشكر الأولى بالشكر أي الله سبحانه الذي خلق فسوى وأنعم فهدى. هذه النفس لا يرقب منها شكران لأيّ كان في الدنيا وإن فعلت فهو شكران النفاق سرعان ما يذهب بددًا. نفس يحكمها القانون والخوف من الناس أما قانون رب الناس والخوف من إله الناس فلا مكان له فيها. نهى عن عقوق الوالدين للغرض ذاته. النفس التي لا تحسن إلى أصلها الأول نفس لئيمة لا يرجى منها خير. نهى عن العدوان على الإنسان لأن العدوان على الإنسان عدوان على النفس ﴿مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[النساء: 1] . عندما ينداح العدوان على الإنسان ينبسط الخوف فتنقبض العمارة ولا تتنفذ إرادة الله سبحانه لولا أنه رسخ في كونه وخلقه قوانين من مثل التدافع الذي به يدفع الخير الشر ثم يدفع الشر الخير ومن ذا تنشأ حركة وحياة وإبتلاء جديد وتمضي إرادته. نهى عن السحر لأنه ينثر التبطل والتعطل ويعلي من قيم التواكل والإحتيال وبذا لم تعد بنا حاجة إلى العمل. نهى عن القول عليه بغير علم حتى تتوحد المصدرية التشريعية الواحدة فتنضبط حياة الإنسان إذ الكون كله دولة واحدة يقضي فيها سبحانه بما يشاء وهو من يدبر أمرها وأنزل إليها قانونها الذي يحميها وإستأمن الإنسان على ذلك مستخلفا فعلمه ما لم يعلم. ذلك بعض ما نهى عنه فحسب ولا يتسع هذا المجال لعرض كل ما نهى عنه وكشف منكوره.

كل ما أحل الإسلام طيب.

أحل من المأكولات أطيبها وكذا من المشروبات والملبوسات والمنكوحات والمركوبات والمرئيات والمسموعات والمسكونات والمعلومات. نتبيّن ذلك بضده في الفقرة الموالية.

كل ما حرم الإسلام خبيث.

لم يحرم الإسلام من المأكولات كلها سوى الميتة أو ما في حكمها كالموقوذة وغيرها وكذا الدم المسفوح ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وما في حكمه كالمذبوح على النصب. وما عدا ذلك كله من المأكولات مباح حلال. أما شأن هذه الأخيرة فإن علة التحريم علة فكرية فليس التحريم بسبب لحمها ولكن بسبب إشتراكها مع (الأضاحي) الشركية القديمة الجديدة فهي ضارة خبثا نفسيا فكريا لا ماديا. وأما الأولى فبسبب أنها ضارة خبيثة خبثا ماديا لضرورة خروج الدم منها ولذلك وجبت الذكاة (الذبح). الدم ضار دون ريب لذلك حرّم وبالذكاة يخرج أكثره وما ظل لصيقًا لا إعتبار له لقلته. اللحم الوحيد الذي حرّم بالكلية هو لحم الخنزير. لم؟ إكتفى بعلة أنه (رجس). الرجس إما أن يكون معنويا ويلحق الخنزير هنا بما حرمته السنة الصحيحة ـ تحريم السنة بالمعنى الأصولي فيما لم يرد فيه قرآن هو تحريم تكريهي وعادة ما يكون معللا ـ أي بلحم ذوات الأنياب من السباع وبذوات المخالب من الطير وذلك بعلة الحفاظ على إنسانية الإنسان فلا يغدو لفرط أكله مثل ذلك سبعًا مفترسًا إذ يبعث فيه ذلك منزعًا حيوانيًا كاسرًا يعدو به على أخيه الإنسان. الخنزير من هذه الناحية رجس أي رجس معنوي. كما يكون الرجس ماديا وترددت كلمات العلماء هنا فمنها ما يتجه إلى أن الخنزير حيوان ديوث ومعلوم أن الإنسان إبن أكله وشربه وملبسه ومهجعه ومنكحه أي إبن بيئته التي تحضن كل ذلك. ومنها ما يتجه إلى أن رجسية الخنزير هي رجسية لحمية أي في مكوناته خبائث كدودة أو مثل ذلك. المؤكد أنه (رجس) بالتعبير القرآني. وقد يكون مزدوج الرجس ماديًا ومعنويا. وسيكشف العلم يوما على الخبث الحقيقي الصحيح الذي لأجله حرّم علينا. وحتى ذلك الأوان نحن نقول (سمعنا وأطعنا).

72

معروف وطيبات ويسر.. تلك هي معاقد رسالتك (2)

توقف بنا الحديث السالف في أن « كل ما حرم الإسلام خبث ». وتحديدًا فيما يتعلق بالمأكولات التي لم يحرّم منها سوى الميتة وما في حكمها بسبب الدم الضار الخبيث أو لحم الخنزير. وما عدا ذلك كله مباح حلال وتبقى العملية القياسية أصلا إجتهاديا للناس ليلحقوا في المأكولات كل ضار خبيث مما لم ينص عليه أو لم يكن موجودا معهودا في زمن التنزيل إذ (النص متناه والحدث لا متناه) بالتعبير الأصولي. ولم يحرم الإسلام في المشروبات سوى الخمر معللا ذلك بالسكر الذي يذهب بالعقل جزئيا أو كليا ومن فقد وعيه ذهب عنه التكليف فهو في عداد الحيوانات التي تملأ الأرض وليست مكلفة بعمارة ولا بإقامة عدل. ثم قيس عليها من بعدها كل ما إشترك معها في علة ذهاب العقل الذي به أكرم الإنسان وكلف من مثل المخدرات والسجائر وما سيحدث الناس حتى يوم القيامة من مسكرات تأخذ حكم الخمر. وأي خبث أخبث على الإنسان من تناول شيء أكلا أو شربا يذهب بعقله وهل العقل إلا السلاح الذي به يقاتل المرء في حياته كدحا وسعيا؟ فمن فقد عقله كمحارب فقد سلاحه فهو فريسة سائغة لعدوه بل هو أسير ذليل.

وما خبث الملبوسات والمنكوحات وغيرها؟

خاصية الخبث تلون مرفق الإنسان فيصبح حرامًا. حرم الإسلام من الملبوسات ما كان فاضحًا يكشف العورات المغلظة وما فوقها للنساء خاصة. أي خبث في ذلك؟ خبث ذلك هو الحيلولة دون تشبه الإنسان المكرم بالحيوان. ألا ترى أن العورة جعلها سبحانه في مكان من الجسم غائر بطبعه بحيث لا تكشف العورة إلا بعناء وجهد. لو كانت العورة في الوجه مثلا أو الصدر لكان سترها علينا شاقًا معنتا. خبث الملبوس للمرأة هو الذي أحيط بشيء زايد. لم؟ مكمن الخبث عندما تكشف زينة المرأة ـ عدا الوجه والكفين والقدمين ـ هو خبث الغواية التي تفرض على الرجل الذي غرز فيه سبحانه حب شهوة النساء فطرة

وجبلة فلا حيلة له في ذلك ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ ﴾[آل عمران: 14] . حتى لو لم تقصد المرأة إغراء أو غواية فإن الرجل ينجذب إلى ذلك إنجذابًا لا عيب فيه ولا إثم فيه أصلًا إلا أن يتحول الإنجذاب إلى جماع أو مقدمات جماع وما نهينا عن مد البصر إلا بسبب أن البصر بريد الفؤاد كاللسان فهو الخطوة الأولى إلى الحرام. بعضنا لا يحسن فهم ذلك فهو عنده حجر على المرأة وحبس لها. هو حجر على قاعدة أن « الدنيا جنة الكافر وسجن المؤمن » وعلى قاعدة الإبتلاء أن تتحول الأرض إلى ساحة سفاح وقد جعلت ساحة وغى نقاتل فيها الجهل والفقر والقهر.

أما خبث المنكوحات التي حرّم علينا منها 15 ضربًا فهو في عمومه الغالب لبناء مسافة ود وحب وحرمة كافية بين مكونات المشهد الرحمي القريب فلا يوفي المرء قدر أبيه عندما يتزوج إمرأته ولا أمه وأخته وإبنته ومرضعته وأخته رضاعة أو يجمع بين الأختين في بيت واحد لا بد أن تعتريه المشاكل فتتقطع الأرحام التي جاء الإسلام لبناء وحدتها ليشيد بها وحدة إجتماعية متأبية عن الإنصداع. هي محرمات معنوية روحية في غالبها. أليس الإنسان إنسانًا بجهازه النفسي وشخصيته الفكرية وليس ببنيته البدنية التي يفوقه فيها الحيوان؟

أجمل (نسبة إلى الإجمال) قاعدة هنا هي قوله عليه السلام « كل وإلبس ما أخطأتك خصلتان : سرف ومخيلة ». كل المطعومات من أكل وشرب مباحة إلا ما هو دون عدد أصابع اليد الواحدة وكذا كل الملبوسات والمسكونات والمركوبات والمرتفقات كلها إلا ما يخل بالحياء الذي هو دثار الإسلام وزينته وحلية الإنسان أو ما كان باعثا على السرف أي التبذير الذي يحجب عنا شكر النعمة وذكر المحرومين أو على المخيلة وهي الكبر بما يبعث فينا العدوان على الناس سيما المستضعفين منهم. كل ذلك خبث حرمه الإسلام.

كل ما شرعه الإسلام يسر.

هذا هو المعقد الثالث من الرسالة التي تضع ﴿ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾

[الأعراف: 157] . أي رسالة اليسر في مقابل التشديد الذي فرض على بني إسرائيل بما شددوا على أنفسهم.

شرع عقيدة ميسرة نتحرى فيها أكثر ما نستطيع من قيم التنزيه للسبوح القدوس سبحانه دون ان نكلف أنفسنا بما لا قبل لنا به سواء مما تحدثت به نفوسنا ما لم نجهر به أو مما يقع فيه بعض أهل الكلام ـ ومنهم من يزعم نقض الكلام وهو متكلم ـ من تعمق بليد في صفات الله وأسمائه يزعم نبذ التشبيه والتجسيم وهو واقع فيه أو نبذ التعطيل وهو متلبس به أو يزعم تفويضا يحول دونه ودون فهم ما لا بد منه لتجديد إيمانه وشحذ رساميله أو تأويلا في غير محله. لم يكن الأصحاب مثل ذلك أبدا ولم ينقل إلينا أن واحدا منهم عني بذلك. لم لا نكون مثلهم إيمانا صحيحا وعميقا عفوا من أسئلة الفارغين؟ ما يقال في اليسر يمكن لك أن تستبدله بالوسطية والإعتدال والتوازان. كلها كلمات مختلفة لقيمة واحدة. شرع عقيدة متوازنة بين دهرية ـ إلحاد بالتعبير المعاصر ـ عنوانها (أرحام تدفع وأرض تبلع) وبين تيوقراطية تتقمص منزلة الله سبحانه في التشريع والقضاء والحكم فما تقضي به فهو الحق الإلهي المطلق الذي لا يعد معارضه إلا معارضًا لله نفسه. شرع عبادة تزكينا بيسر فلا تحملنا ما لا نطيق حتى يقول الصحابي كلمة الكفر لعدم تحمله العذاب ويشجعه عليه السلام بقوله « إن عادوا فعد ». شرع عبادة لنا فيها رخص في التطهر بالتراب والجمع والقصر وبذل المال بدل الصيام لغير القادر ولا حج فيها لغير المستطيع وفيها التوكيل في بعض العبادات.

تلك هي الرسالة في جوهرها : لا تأمر إلا بمعروف ينفع الناس في الدنيا قبل الآخرة ولا تنهى إلا عن منكر يضرهم اليوم قبل غد. ولا تحل إلا طيبا ينفع الناس نفعًا ماديًا ومعنويًا اليوم وغدًا ولا تحرم إلا خبيثًا مضرًا ضرًا ماديًا ومعنويًا اليوم وغدًا. ولا تشرع كل ذلك إلا بيسر يراعي الضرورات والحاجات.

73

أنت مؤمن بالأصالة يوم لم تك شيئًا..

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ﴾[الأعراف: 152]. أصل الإنسان الجنة فهو مهده الأول الذي فيه خلق وفيه إمتحن ولولا أنه خسر الجولة الأولى في الإختبار لما أهبط إلى الأرض ليكتب عليه الكدح ولكنها إرادة الله سبحانه ولا راد لقضائه. بمثل ذلك فإن أصل الإنسان الإيمان وليس الكفر.

متى كان ذلك الأخذ؟

أغلب الناس على أن ذلك كان فيما يسمونه عالم الذر أي قبل خلقنا أصلا وربما قبل خلق أبينا آدم عليه السلام أو في تلك الأثناء قبل إندياح البشرية تناسلا. البحث عن توقيت ذلك الأخذ بدعة لا خير فيها. لو كان توقيت ذلك لازما لرسالتنا لما تأخر البيان عن وقت الحاجة كما يقول الأصوليون. تلك هي طبيعة القرآن الكريم. تطل علينا بشيء يظل لا هو صريح صراحة كاملة مطلقة فلا تختلف فيه العقول ولا هو ضنين بصراحة ضنا يجعل الناس يعرضون عن البحث فيه. حكمة بالغة لحث الناس على الإجتهاد والبحث والعلم والمعرفة وتبادل الحوار والتشاور للظفر بالحق في أي مسألة وهي الحكمة البالغة إبتلاء للناس هل يكون ذلك لدعم المحكمات القطعيات ﴿أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[آل عمران: 7]. وهل يكون ذلك منهم بتعاون وتكافل وتعايش سلمي رائدهم الحق وليس الكبر أو الإضلال. حكم الله في كل شيء لا منتهى لها.

هناك رأي آخر يتجه إلى أن ذلك الأخذ كان ضربة لازب على ظهر كل مولود جديد عندما يستوي في رحم أمه وهو عندها إنسان شبه كامل يحرم قطعا إجهاضه إلا بإشارة طبيب. المقصود الشرعي هنا ليس الخلاف حول زمن ذلك الأخذ ولا بأس من الإختلاف حوله فهو مظنون متشابه لا محكم. المحكم هو أن الله سبحانه لقننا الحجة البالغة ونحن في عالم الغيب سواء قبل خلقنا أصلا قبل آدم أو في أثنائه أو في أرحام الأمهات. المقصود المحكم هو أن

الإنسان مسلم مؤمن مطيع لربه سبحانه بالفطرة والسليقة والجبلة والغريزة. لو إجتمعت كل عقول الدنيا لتبحث عن تلك الكيفية أو عن مكانها وزمانها فلن تخلص لشيء. فلم يعد لنا من سبيل سوى الفيئ إلى المحكم والإعراض عن المتشابه إلا حوارا بناء بين أهل الذكر.

بقية السياق يؤكد المسؤولية الفردية.

﴿ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ [الأعراف: 173]. فعل ذلك سبحانه بنا لأمرين : لغرزنا بحقنة تطعيمية جبلية فطرية راسخة فلا نتولى إلى الكفر من بعد تلك المرحلة (الذرية) تمامًا كما يحقن أي واحد منا في طفولته بمصل طبي يحصنه ضد أي مرض. هي حقنة عقدية قيمية كأنها رأسمال عتيد متين يتحصن به المرء عندما يكون في الحياة الدنيا مخيرا بين الكفر وبين الإيمان. هذا يشعر به الغربيون ممن نشأ وشب وترعرع في بيئات لا علاقة لها بالإسلام لا من قريب ولا من بعيد. نحن لفرط الإلف والعادة لا نكاد نشعر بذلكم من شيء. الأمر الثاني الذي لأجله فعل بنا ذلك سبحانه هو ما كشف عنه السياق أي ليتحمل كل واحد منا ـ منذ تلك اللحظة (الذرية) لحظة ما قبل الوعي ـ مسؤولية الفردية الشخصية كاملة. لا سبيل للقول يوم القيامة أن أبي ـ مهما علا أو سفل ـ كان كافرًا ولست سوى من القبيلة التي عناها الشاعر بقوله (فإن رشدت رشدت وإن غوت غويت). قاعدة الإسلام هي : لا تزر وازرة وزر أخرى. وهي قاعدة قضائية دولية شهيرة.

ذلك هو الإسلام : بساطة القوي ويسر العظيم.

الإسلام موضوع لكل الناس فلما تلقاه الأعرابي يرعى إبله قال بلسان الفطرة الأصلية: الأثر يدل على المسير والبعرة على البعير وسماء ذات أبراج ألا يدل ذلك على الله الكبير المتعال؟. تلك الفلسفة القوية ببساطتها يلتقطها العالم الكوني المتبحر في مخبره المعاصر المتطور ليعرف ربه سبحانه من بعد إجراء تحليلات ودراسات وكشوفات مادية ومعالجة بضع معادلات رياضية وفيزيائية وكيميائية ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[فاطر: 28]. هي الحقيقة ذاتها وهي مبسوطة لذلك الأعرابي ببساطته القوية ولهذا العالم في مختبره الكبير ببحوثه المشتبكة. مظهر من مظاهر قهر الله فوق عباده وإحاطته بهم وبكل شيء.

سلاح الدعاة اليوم خطاب الفطرة.

أنجح الدعاة من ملك لسان الفطرة يخاطب به الناس ليس بلسان مقاله فحسب بل كذلك بلسان حاله. سلاح الدعوة اليوم هو القدوة الحسنة والأسوة الطيبة. الناس اليوم تغلب عليهم المصلحة والمنفعة والنتيجة والمعاملة وغير ذلك. لأنهم يعيشون جميعًا في بيت زجاجي صغير ضيق فهم في حالة إحتكاك. كان من قبلنا يعول على القول لأنه في حالة إرتحال وليس في حالة إحتكاك دائم مع المتكلم. من آفات الدعوة الإسلامية اليوم أنها ظلت مشدودة في وسائلها وخطابها وفنونها إلى الماضي. ليس لنا من الماضي سوى المضمون أما ما عدا المضمون فكله معرض للتغيير. أنجح الدعاة اليوم من يملك لسان الفطرة وأنجحهم من يملك لسان العصر ليعرف الناس بمقاصد الإسلام في الحقول التي تطحن الناس طحنا. ليس معنى ذلك أن نقتل أنفسنا ونبخعها لأن القلوب بيده وحده سبحانه ولأن الكفر باق ما بقيت السماء والأرض. إنما هي توازنات تتردد لإمضاء سنته ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾[آل عمران: 140] .

الدعوة إلى الله وإلى الجنة هي دعوة إلى الرجوع إلى البيت الحاضن الدافئ وإلى الأسرة الكريمة الطيبة وإلى الأصل المرحب بصاحبه. إلى القرى الأول الجميل. ليس هي بدعة. إنما البدعة هي الدعوة المضادة أي إلى الخروج من ذلك البيت الحاضن الدافئ الذي أخرج منه أبونا آدم لمعصية.

74

المرتدّ عن الإسلام مثله مثل الكلب ..

قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[الأعراف].

لكم تسحرني أمثال القرآن.

التمثيل فنّ عربي يوظف للبيان وهو تمثيل لفظي عرفت به العرب وتمثيل جسدي وهو الفن المسرحي المعروف. الإنسان الذي أوتي البيان يتواصل مع من حوله بألسنة ليس الصوت أولها ولا الجسد آخرها. كل ذلك لأجل تزويده بما يحتاجه لعمارة الأرض. في القرآن زهاء أربعين مثلا ومثلها من القصة لأجل هداية الإنسان. أعرف الفرنسية والإنجليزية والألمانية معرفة أظنها كافية ولا أجد فيها من فنون التمثيل ما أجد في لسان العرب.

قصة ردّة لإسرائيلي راسخ في العلم .

قيل إن إسمه (بلعام) ولا تهمني الأسماء إذ يعرض عنها المنهاج القرآني لتكون العبرة بالدرس والموعظة. هي قصة عالم راسخ في بني إسرائيل ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾. فأنسلخ منها. لم ينسلخ عنها بل إنسلخ منها. لم؟ لأن المنسلخ من الشيء يخسر مكانه كأن الذي إنسلخ منه كان له حضنًا دافئًا ولا ينسلخ المرء في العادة عن شيء إلا عندما لا يكون له حجرًا ودودًا. لو قال : فانسلخ عنها لأوهم أنه لم يعد بحاجة إليها. ذلك ما يسحرني في هذا الكتاب العظيم. لو قال : عنها لألحق بكلامه سبحانه إهانة لأن الحق لا ينسلخ عنه. وفي السلخ عذاب معروف فكأنه حيّ ينسلخ من جلده. الله يريد أن يبيّن لنا ذلك العذاب وهو عذاب الردة سيما من عالم راسخ من الحق المبين. أنظر إلى جريمة الردة سيما من عالم راسخ : لما إرتد أصبح الشيطان تابعًا لا متبوعا. الشيطان يكون في العادة متبوعًا ولكنه مع مرتد ردة عن بينة من بعد علم ورسوخ أضحى تابعًا. هي جريمة الردة في حق النفس. الشيء عندما يغوى لم يعد يصلح لشيء. ذلك يكون بسرعة هذه الفاء الجامعة بين وظيفة العطف والإخبار ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾[الأعراف: 175].

عود إلى قضائه وقدره سبحانه.

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾[الأعراف: 176]. الله شاء له الهداية ورضيها له فلما أقبل على ربه هداه ولما أدبر عن ربه أضله. لا تكن حبيسًا لكلمات المشيئة المنسوبة دوًما إليه وحده سبحانه حتى تظن أن الإنسان لا إرادة له ولا حرية. إقرأ ما بعدها إذ يقول

﴿ وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾[الأعراف: 176]. ترى هل كان الله ليضل هذا العالم الراسخ لو أنه لم ينسلخ؟ طبعًا لا. ولكن الله سبحانه لا يكره أحدًا على إيمان ولا على كفر. الإنسان يختار ما يحب لنفسه والله يهديه لما هدى له نفسه. ولكن مقتضى الإلهية بقهرها يجعل من نسبة المشيئة دومًا إليه وحده سبحانه.

إتباع الهوى سبب الردة.

﴿ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ ﴾[الأعراف: 176]. الإنسان كائن مركب بالتناصف بين الهوى وبين العقل ﴿ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴾ [الشمس: 8]. هي معركة أبدية لا يخمد لها أوار. والتدين كله هذا عنوانه ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٣٩ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾[النازعات]. الدين فيه تكاليف وتكون أحيانًا باهظة والدين قمّاع للهوى واللذات والشهوات والإنسان لا يشبع من ذلك. لذلك قد ينتصر الهوى بالضربة القاضية فتكون ردّة. والإنسان المفطور جبلّة على غريزة حب التقدير يدثّر ردته بتأويلات يضفي عليها طابع العقلانية وما هي عند التحقيق الصحيح إلا أهواء إستبدت به. بعض الناس يظنون أن من يبلغ درجة من التقوى أو العلم أو الجهاد تنفكّ عنه الأهواء. هؤلاء لم يعرفوا من هذا الدين شيئًا. إذ بالعكس من ذلك تماما فكلما إرتفعت درجتك عند ربك كلما تسلطت عليك الإبتلاءات « أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل». الإنسان يظل إنسانًا من حيث الهوى والغريزة والجبلة والفطرة إلا من عصم ربك وما يعصم ربك سبحانه بالمطلق سوى الأنبياء لأنهم يحتاجون إلى عصمة تمكنهم من إبلاغ رسالتهم كاملة لا خدش فيها.

المرتد مثل الكلب.

الكفر أضراب فهو شرك ونفاق وردة وتهود وتنصر ودهرية أي إلحاد بتعبيرنا المعاصر وتعلمن.. ربما تكون الردة ـ حتى لو لم يكن لنا فيها عقوبة دنيوية ما لم تتحول إلى حرابة ـ أسوأ أنواع الكفر بعد النفاق. اللسان القرآني عادة ما يتوسل إلى التمثيل بقوله ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ﴾[الأعراف: 176]. قال عن نفسه مثلا سبحانه ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴾ [الشورى: 11] . لم يقل هنا: هو كالكلب. بل قال ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ ﴾. هل تعلم أن

ذلك يعني مما يعني عدم الإساءة إلى الكلب لأنه لم يمثله به هو مباشرة بل شبهه بمثله. لم؟ لأن الكلب كائن عابد بالقوة أي كرها كما تعبد الشمس والأرض.

وجه التمثيل.

أعرف الكلاب جيدًا. الكلب يظل فاغرًا فاه دومًا يستوي في ذلك أن يكون الطقس حارًا أم باردًا بل يظل كذلك سواء حملت عليه ـ أي عدوت عليه ـ أو لم ﴿إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ﴾. هو في حالة لهث دائم لذلك يظل لسانه دومًا خارج فيه. المرتد ـ سيما عالمًا راسخًا مثل هذا ـ هو كذلك بالضبط. يظل لاهثا وراء أهوائه ربما يبدو لك مرتاح البال مطمئنًا وقد يضحك ويبتسم ولكنه في الحقيقة التي لا يشعر بها سواه يرزح تحت وطآت ثقيلة فهو يريد من الدنيا كذا ومن الجاه كذا ومن النساء كذا ومن الولد كذا ومن فلان كذا ومن فلانة كذا ويظل لاهثا بين أولئك جميعًا فإذا ما تحقق له شيء من ذلك سرعان ما إندلق منه ذلك كما يندلق منك كوب ملأته ماء أو لبنًا أو عسلًا. المرتد لا يشعر بالطمأنينة مثل الكلب الذي لا يأمن أي أحد لذلك يظل دومًا لاهثًا مستعدا للفرار.

75

الهوية النبوية لمحمد عليه السلام (1):

الموضوع أعددت فيه كراسًا ربما يرى النور يومًا. وما أعجلني إليه سوى قوله في آخر الأعراف التي أهمّ بتوديعها ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ﴾[الأعراف: 188].

بعضنا يشرك ربه بمحمد عليه السلام وبعضنا لا يقيمه حيث أقامه ربه.

الهوية النبوية لمحمد عليه السلام متركبة من أبعاد خمسة هي :

1. **الهوية البشرية** : فهو بشر ينسى ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا﴾

[الكهف: 23]. ولا يعلم الغيب ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾. ولا ينفع ولا يضر حتى نفسه ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾. ويؤذيه ما يؤذيك ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ﴾[الأحزاب: 53]. ويتعرض للإضلال في الدنيا لا في الدين ﴿لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾[النساء: 113]. ويعجب بحسن المرأة ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾[الأحزاب: 52]. ويعاتب من لدن ربه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾[عبس: 1]. ويموت ويبعث ويحاسب هل بلغ أم لا. ويأوي إلى بيته عند الخوف طلبًا للتزميل أو التدثير ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾[المزمل: 1]. و﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾[المدثر: 1].

2. **الهوية التبليغية أو البيانية الدعوية :** هو بشر رسول لا يكره أحدًا على الحق ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[يونس: 99]. لا هو (حفيظ) على الناس ولا (وكيل) ولا (مسيطر) ولا (جبار) وما عليه سوى (البلاغ) والبيان ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[النحل: 44]. وهو لا يهدي من أحب هو حتى لو كان عمه الذي أسدى له ما لم يسده إليه أحد ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾[القصص: 56]. وهو يحث على الخير ولا يكلف به إلا نفسه ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾[النساء: 84]. وهو يدعو إلى الله وليس إلى نفسه أو أهله ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾[الأحزاب: 46]. ولا يزيد على الوحي ولا ينقص منه حبة خردل ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾[الحاقة: 44]. ولا يخرج الناس من الظلمات إلى النور إلا ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. وهو البشير النذير فلا يملك غيرهما.

3. **الهوية الأسرية الخاصة :** هو بشر يتعرض بيته لكل ما يتعرض له أي بيت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾[التحريم: 1]. وبيته مفتوح مثل قلبه ﴿وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ [لأحزاب: 53]. وأزواجه وهن أمهات المؤمنين والمؤمنات يتشوفن للدنيا كما يتشوف أي بشر ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾[الأحزاب: 28]. وهن أثقلنا حملا مثله هو ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾[الأحزاب: 30]. وكلاهما مكلف بالتشريع ذاته الذي كلف به كل إنسان مع زيادة بسبب النبوة أو بسبب بيت النبوة.

4. **الهوية الرسالية العظمى :** هو بشر رسول مكرم مرفوع فهو محروس بعناية الله ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[الطور: 48]. وهو موعود بالنصر والفتح وبظهور دينه على الدين كله

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[الفتح: 1]. و﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾[التوبة: 33]. وأكرم بأعظم أعطيتين ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾[الأحزاب: 56]. و بهدية الإسراء والمعراج حيث رأى ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾[النجم: 18]. وما لا يكنهه العقل مجرد كنه. وطاعته هي طاعة الله ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[النساء: 80]. ومن بايعه فقد بايع الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾[الفتح: 10]. وهو خاتم النبيين وخير الخلق طرا « خيار من خيار من خيار ». وكتابه كان ﴿وَمُهَيْمِنًا﴾[المائدة: 48]. على الكتاب كله و﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[المائدة:48]. فليس هو (بدعا) من الرسل. ولا يدعى بإسمه العلم المجرد سيما في أحوال مخصوصة ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[النور: 63]. ويوقر فلا يرفع الصوت بحضرته ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾[الحجرات: 2]. ولا يجهر له به ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾[الحجرات: 2]. رعاية حرمته مطلوبة ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾[الفتح: 9]. ويظل ذكره مرفوع أبدًا في الكون ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾[الشرح: 4]. وهو صاحب المقام المحمود يوم القيامة ﴿مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[الإسراء: 79]. ولا تقدم الإقتراحات الدينية بين يديه بصفاقة وطيش وحدة ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[الحجرات: 1]. وهو السراج المنير ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ [الأحزاب: 46]. وهو من تربع على عرش الخلق العظيم كله ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]. وهو من أقسم سبحانه بحياته ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ﴾[الحجر: 72]. وهو أولى بالناس من أنفسهم فلا يضنون بها فداء له ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: 6]. ومن تزوج من النساء مرفوعات القدر بالأمومة ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: 6]. ولا يعذب الله الناس ما دام فيهم ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾[الأنفال: 33]. ويرى النصر في نومه ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: 43]. وهو الوحيد المبعوث إلى الإنس والجن كليهما كافة. وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[الفتح: 2]. ولا يسأل الناس على بلاغه شيئًا إكرامًا له ولرسالته ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾[يوسف: 104]. أعطي الكوثر مبالغة في الكثرة والإكثار من كل شيء محبوب مرغوب سيما يوم القيامة. ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[الكوثر: 1]. وأعطي ما يرضيه سيما يوم

القيامة ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾[الضحى: 5]. ولا يقلى من جنب الله سبحانه ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾[الضحى: 3]. أوتي المعجزة الخالدة الباقية التي بها يؤمن الناس حتى يوم القيامة : معجزة القرآن الكريم. وليس معجزة تظل أعناق الناس لها خاضعة مكرهين أو أبعد عن الفهم.

أستكمل البعد الخامس في حلقة قابلة وغرضي الأسنى هنا هو :

أ. إستقراء تلك الهوية بمختلف أبعادها من القرآن الكريم فلا يكون فينا من بعد موته كما آل الأمر بعيسى عليه السلام إلها يعبد أو له من التدبير الإلهي عشر معشار فنضل ونهلك.

ب. الناس اليوم فيه عليه السلام ضربان : ضرب يشرك ربه به فهو يرفعه فوق مقام النبوة التي لا تملك النفع والضر حتى لنفسها وعادة ما يكون ذلك بدافع الحب الأهوج الذي لا يلجم أهواء المشاعر بكابحات العقل وراشدات الوحي. وضرب لا يقيم له عليه السلام وزنًا فهو بشر لا رفعة له ولا عصمة له. وضرب ثالث يقدم لك محمدًا عليه السلام ـ بمناسبة ذكرى ميلاده ـ على أنه بطل رياضة كمال الأجسام لفرط الحديث عن أعضاء جسمه.

76

الهوية النبوية لمحمد عليه السلام (2)

5. **الهوية القيمية :** هو بشر رسول قضت عليه أقدار الرحمان سبحانه بالأمية الكاملة توسلًا إلى الإنسان أن يؤمن برسالة نبي أمي إذ أن أميته إنما كانت معجزة قضاها سبحانه لأجل تمهيد الطريق في وجه الإنسان ليؤمن وأي عظمة عندما يكون نبيك أميًا لأجلك أنت ولأجل البشرية جمعاء قاطبة (النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم). أميته تلك بوظيفتها تلك قابلها ما هو أعظم وأعجب أي تدشين رسالته برمز العلم والبحث والإجتهاد وأداة العمارة وسلم المجد والسؤدد ﴿ اقْرَأْ ﴾[العلق: 1] ثم تلتها

سورة تحمل إسم (القلم). عندما تستحضر الأمرين معًا (الأمية وهذا التدشين) فإن الموقف يتطلب منك تواضعًا لتحسن أداء رسالتك. هو بشر رسول ولم يتربع فوق عرش أليق به من عرش العبودية إذ يخلع عليه ربه أردية العبودية تشريفًا له وتكريمًا ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: 1]. و﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: 1]. سلاحه الصبر في وجه الإعراض والتكذيب والإيذاء والصبر رمز الشهامة والكرامة والمروءة والثقة في النفس وفي البضاعة ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [القلم: 48]. خلقه التواضع والحلم وقلبه مفتوح لكل الناس حتى تأتيه المرأة في بيته تجادله في مشكلتها ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ﴾ [المجادلة: 1]. والناس يناجونه بل يكثرون من ذلك إلى حد تضييع وقته الثمين ففرض عليهم مالا فلا يناجيه إلا صاحب مسألة ملاّى ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾ [المجادلة: 12]. أثقل الناس عبادة وحملا فقيام الليل في حقه فريضة قام بها حتى تفطرت قدماه دما ثم خفف عنه ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: 2]. أكرم بكمال الدين وتمام النعمة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: 3]. رداؤه الثقة في ربه والركون إليه والطمأنينه به والأنس بوعده الصادق حتى وهو في الغار مختفيًا ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40]. كبير يمتحن بأمور ثقيلة على النفس ولأجل البشرية وما يصلحها في قضية التبني مثلا ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: 37]. ويتعرض بيته لحملة شعواء ضارية تستهدف عرضه وعرض زوجه الطاهرة فيواجه الموقف بالحلم والصبر والجلد ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: 11]. صاحب رسالة قيمية تعليمية حضارية عظمى قوامها أركان أربعة ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: 2]. كأنه مدرسة بل هو كذلك. عبد رسول مكلف بتشييد كيان سياسي يحكم فيه بالعدل والقسط والحق وليس واعظا يقول كلمته ثم ينصرف ويدع الناس في حيص بيص ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: 48]. صاحب أدب جم دمث مع ربه فلا يسأله ما يحب في قضية تبديل القبلة مثلا حتى يؤذن له بما يرضيه ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: 144]. ومع ذلك الأدب الجم الدمث يكون فؤاده مصنع رشد إذ لا يرضى

لأمته قبلة تشترك فيها مع الإسرائيليين. ومن يجمع بين الرشد العقلي والأدب الجم الدمث فأكرم به من نبي كريم عظيم. لم يكن ينتظر الرسالة ولا النبوة عندما كان يتحنث في غار حراء متأملًا متفكرًا متدبرًا في الخلق ولكن أقدار الرحمان كانت تهيئه لذلك ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[القصص: 86]. بمثل قيام رسالته على التعليم والتأهيل والعقلنة قام منهاجها التبليغي إلى الناس على البصيرة والرشد والرفق﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125]. و﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾[يوسف: 108]. تسربلت رسالته بقيم الرحمة والصفح والحلم والشورى والعفو وخفض الجناح ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[الأنبياء: 107]. و﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[آل عمران: 159]. و﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الشعرا: 215]. و﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾[الزخرف: 89]. و﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾[آل عمران: 159]. ومن رحمته أنه يكاد يقتل نفسه حسرة على الناس ألا يؤمنوا ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾[الكهف: 6]. و﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[فاطر: 8]. ومن لينه ورفقه أنه يستمع إلى الناس كلهم فلا يصد أحدًا منهم حتى يقال عنه أنه أذن ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾[التوبة: 61]. بل تمنطق بسرابيل الرحمة والرأفة حتى ظل يستغفر للمنافقين الذين آذوه في نفسه وعرضه وفي دينه ودعوته وظل كذلك حتى نهي عنه ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾[التوبة: 84].

خلاصة المسألة فيما أنف من الحلقتين المنصرمتين :

1. محمد عليه السلام بشر مثلك في مقتضى البشرية ومعاني الغريزة والجبلة والفطرة وهو نبي معصوم لأجل التأهل للبلاغ عن ربه فحسب فلا هو حفيظ على الإنسان ولا هو وكيل عليه ولا هو مسيطر ولا يكره أحدا على إيمان. المقصد هو قصر علاقتك به على:

أ. الإيمان.

ب. الحب ومنه التوقير والتعزير والتقدير والرفعة والتضحية في سبيله

ج. الإتباع

د. الدعوة إليه وإلى دينه

هـ. الدفاع عنه وعن آل بيته وصحابته وعن إرثه وتراثه بصفة عامة ولكن بعلم وبصيرة.

و. ذكره بالصلاة والسلام بأكثر ما يمكن.

2. منهجان سيتبرأ هو نفسه منهما يوم القيامة.

أ. منهج عرضه عرضًا جسديًا كما ستشاهدون في كل ذكرى مولد جديد في فضائياتنا. مبالغات مقرفة في وصف عينه وشعره ويده ورجله إذ لو إستمع إلى ذلك واحد من غيرنا لوقع في روعه أن المتحدث يعرض مؤهلات بدنية لبطل في كمال الأجسام. هذا عين البدعة إذ لم يرد لا في كتاب ولا في سنة ولا جاء به الأصحاب أبدًا.

ب. منهج الزيادة الكاذبة في حبه والهيام به إلى درجة وصلها البوصيري عليه الرحمة في بردته الشهيرة إذ يقول كلامًا لا ينصرف عقيدة إلا لله وحده سبحانه من مثل قوله: (يا من ليس لي من ألوذ به سواك عند حدوث الحادث العمم). وكلام آخر معيب جدًا بل لو إعتقده قائله لعدّ كافرًا قطعًا. أعرف أن أكثر مداحه عليه السلام يحبونه حبًا جمًا ولكن حبهم ذاك لم يتقيد بالضابط الشرعي فانفلت منهم الزمام وإندلقت أقتاب الشوق.

77

يسألونك عن الأنفال : درس معاصر حي.

إنتصر المسلمون في واقعة بدر الكبرى إنتصارًا مدويًا عظيمًا أعاد الإسلام للواجهة الدولية في تلك الأيام وأحرز المنتصرون غنائم. عدد كبير من المنتصرين يومها كانوا من المهاجرين الفقراء الذي قدموا المدينة حفاة عراة ليس لهم من رياش الدنيا شيء. رأوا بأم أعينهم أموالا تفيئ إليهم فسألوه عليه السلام إياها مما يستر عورة ويطفئ جوعة ويروي ظمأة. أي عيب في ذلك؟ تلك هي الغريزة البشرية لا يعفى منها آدمي واحد. فماذا كان

الرد الإلهي؟ كان عتابًا ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ﴾[الأنفال: 1]. ثم واصل العتاب مبينا لهم أن الإيمان الحق هو كذا وكذا مما سنأتيه في حلقة قابلة. ومن مواصفاته ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[الأنفال: 3]. يعني: سألوا المال وهم فقراء أفقرهم الإسلام والهجرة والجهاد فكان الرد: أنفقوا مما رزقناهم. سألوا مالا فأمروا بإنفاقه لا بالسؤال عنه.

ما هي الدروس والعبر.

1. كانت تلك أول مناسبة لتصحيح الموقف من الدنيا وتحريره من رؤيتين كاذبتين: رؤية المسيحية التي ترى المال رجسًا والجنة أدنى إلى الأفقر والأقذر والأتفل والأضعف. ورؤية يهودية ترى المال غاية لا وسيلة وهو سبيل القهر وبناء السؤدد والمتعة والمنعة و يجتبى بالحلال والحرام لا تمييز بينهما. كثير من المسلمين اليوم تغتالهم إحدى الرؤيتين ومازال بعضنا يعتقد أنه كلما كان فقيرًا معدمًا ضعيفًا مستضعفًا وحيدًا كان إلى الله أقرب. هؤلاء مسيحيو الهوى كنسيو العقل. ولكن الأغلبية فينا تلهث وراء المال بأي طريق فذاع الربا وأضحى القائل بأن أكله كبيرة موبقة مصنفًا من لدن (المسلمين) أنه متزمت متشدد.

2. كانت تلك أول مناسبة لحقن النفس وتطعيم العقل بأمصال تربوية قوامها أن الدنيا يؤتيها سبحانه لمن يحب ولمن يبغض وأنها ـ بعد تصحيح صورتها بمثل ما أنف ـ ليست أمارة صلاح ولا علامة تقوى. درس قوامه أن الدنيا تجر إلى النار والتعاسة إلا إذا كانت في محضن عنوانه ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الأنفال: 1]. الدنيا تطلب في الأرض فتأتي وكم من فقير معدم أضحى قارون زمانه. وبمثل إتيانها السريع فإنها حية ملساء يمكن أن تغرب عنك في لمح البصر في إثر حريق أو غرق أو خسارة صفقة فتضحى من بعدها فقيرًا معدمًا. الدنيا عندما لا تكون في محضن تقوى الله سبحانه لتجتنى من الحلال وتصرف في الحلال فإنها تكون مثار خصومات بينك وبين الناس ومنهم الأرحام والجيران ويصدر منك القهر والظلم والغرور فتهلك. عندما لا تكون الدنيا في محضن الصلاح والإصلاح طاعة

لله ولرسوله فإنها تكون لك مقبرة مظلمة تصنع بك القسوة والقهر والعجب والرياء والغرور وتصنع لك الألم الذي لا سعادة بعده.

3. كانت تلك مناسبة لإعادة بناء الإنسان وفق الإنسانية ورائدها سليمان النبي الملك الغني وهو يذكر ربه على نعمته قائلًا ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ﴾[النمل: 40]. وليس وفق الحيوانية ورائدها قارون الإسرائيلي الغني وهو يذكر نفسه في عجب وغرور قائلًا ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾[القصص: 78]. سليمان وقارون كلاهما غني قوي حيزت له الدنيا بحذافيرها فذاك سخر له كل شيء ومن كل شيء وهذا أوتي من ﴿مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾[القصص: 76]. مفاتح الخزائن فحسب تؤود عددا من الرجال الأشداء أن يحملوها. لك أن تتصور الخزائن نفسها ثم ما فيها من أموال. ذاك الغني القوي ذكر ربه فنحن نرفع ذكره بالصلاة والسلام عليه وذاك الذي ذكر نفسه كان مصيره أن خسف ﴿بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾[القصص: 81]. هو اليوم وماله الكثير الذي تسيل في إثره لعابات في بطن الأرض في مكان ما منها.

4. الأموال التي سألها الصحابة الكرام هي أموال أحرزوها بجهادهم ومات دونها رجال منهم ورغم ذلك لم يكن ذلك شفيعا لهم ألا يعاتبوا من لدن ربهم. حتى الأموال التي تحرزها أنت بجهدك فهي من عنده هو وحده سبحانه وبتقديره هو والأرض أرضه والملك ملكه وأنت عبد مملوك من ملكه. لذلك قال لهم في أول العتاب ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[الأنفال: 1]. هي لله وحده والرسول مكلف بتوزيعها بحسب ما سيأتي إليه- ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[الأنفال: 41](وأعلموا أنما غنتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربي واليتامى والمساكين وإبن السبيل). خمسها كاملا للمحتاجين من الذين لا قبل لهم لا بالجهاد والمقاومة ولا بكسب المال. ذلك هو مبتدأ العقيدة الإسلامية.

5. أي عبرة بأموال كثيرة فيها رغد العيش وصفكم الواحد المرصوص المتنوع ممزق الأوصال؟ أي حياة لكم بصف تمزقه المشاحنات بسبب المال حسدًا وكبرًا وبغضاء وكراهية وأثرة؟ الرسالة هي : الصف أولى بالرص من المال. لا تخشوا من ضيق

الدنيا فالخزائن ملآنة لا تنفد ولو كانت الدنيا عندي تساوي جناح بعوضة ما أغدقت على كافر منها بشربة ماء. إنما الخشية هي على صفكم الواحد. وهل تتمزق صفوفنا نحن اليوم إلا بسبب الدنيا؟ أي قيمة لمال وفير بينكم وقلوبكم مفرقة بذات البين؟ عندها تصبح مملكتكم مملكة حيوانية بهيمية لا مملكة إنسانية ترقى فيها القيم وتصعد فيها المثل وترتفع فيها الطيبات.

الدرس المعاصر.

1. الأرض العربية تمور بالذهبين الأسود (البترول) والأحمر (الذهب). الذهب الأول هو وقود الصناعة الغربية التي صنعت الحديد فمزقتنا به. نحن ننتجه ليتحلى به أمراؤنا حريرًا مصفى. الذهب الثاني هو رمز القوة إذ برصيده هو تتغول المصارف الدولية لتنهبنا.
2. أرضنا تمور بالذهبين مورًا ونحن الأفقر في الأرض والأشد مرضًا وجوعًا وعطشًا وخوفًا وتخلفًا وقوارب الموت إلى أروبا تهدي قروش المتوسط في كل فجر جديد شبابًا جددًا. ذلك هو الدرس المعاصر : الدنيا نحن في يمها ولكن تحولت بها سعادتنا إلى جحيم.

ماذا لو كفت دولة واحدة (الإمارات) عن تبديد المال لإلغاء الثورات العربية؟

ماذا لو أنفقت تلك الدولة نفسها عشر معشار ثروتها على فقراء العرب والمسلمين؟

78

هلاّ كنت من المؤمنين حقا ..

لم يأت الحديث عن أجود أنواع الإيمان في القرآن الكريم إلا في مواضع أربعة هي :

1. ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾[الأنفال].

2. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور: 62].

3. ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة].

4. ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ و﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾- [الحجرات: 15].

الإيمان واحد لا يتعدد مثله مثل صبي صغير لا يختلف في جسمه عن كهل قوي البنية. ذلك الصبي لو سلطت عليه أجهزة التكبير الفنية المعاصرة لبدا مثله مثل رجل مكتمل. كلاهما إنسان. ما الخلاف إذن؟ الصبي الصغير مكتمل البدن والأعضاء ولكنه ضعيف البنية فلا يقوم بأمره بنفسه في حين أن الآخر قوي يقوم على غيره. الإيمان واحد لا يتعدد و يكون ضعيفا محمولا بل كلا على مولاه لا يأتي بخير أو قويًا حمالا يملأ الأرض خيرًا وعدلًا.

من هو المؤمن الحقيقي المحبوب؟

1. وجل القلب عند ذكر الله سبحانه وتغذي الإيمان بسماع القرآن الكريم والتوكل.
2. الإيمان بالله وبالرسول والثبات على ذلك دون إرتياب ومن علامات ذلك عدم خرق الصف الواحد وطاعة القائد الأعلى سيما في الحالات الأمنية المخيفة (الخندق مثالا).
3. إقام الصلاة وملء الفؤاد بالذكر والسجود عربون عبودية وإهتبال أغلى ساعات السحر.
4. الجهاد بالنفس وبالمال معًا ونبذ الإستكبار مع الناس ومع رب الناس.

قراءة تحليلية في شخصية مؤمن حقيقي.

1. إحتل الشرط النفسي لبناء تلك الشخصية حيزًا كبيرًا (وجل القلب عند ذكر الله. إزدياد الإيمان عند سماع الذكر نفسه. التسبيح بحمد الله. الهروع إلى السجود عند

ذكر الله. إغتنام أغلى الساعات للعبادة). شرط نفسي مطلوب مقدم ولكنه متوازن ومعتدل ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[الأعراف: 56] . فلا يخافون الله خوفًا يوئسهم من رحمته ولا يطمعون فيه طمعًا يؤمنهم من مكره. من أمن مكره فسق وطغى وظلم. ومن يئس من روحه قتل نفسه أو قتل الناس من حوله.

2. **تلك العبادة ورثت** : توكلا وتواضعًا أي نبذ الكبر. التوكل قيمة نفسية بأثر اليقين والثقة. كما ورثت تلك الخلل النفسية تصورًا صحيحًا لمنزلة الدنيا فهي تهون لأجل تحرير الإنسان جهادًا بالمال والنفس. ومما رزقناهم ينفقون : تكررت مرتين.

3. كما ورثت تلك العبادة خلقًا عظيمًا (توكل وتواضع وتراحم) .. ورثت وعيًا فكريًا كبيرًا يجعلهم يحرصون على الصف الواحد والمرجعية الواحدة ﴿ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ﴾[النور: 62]. لا يتصرف الناس بما تمليه عليه أنفسهم حدبا على مصالحهم هم فحسب غير آبهين بالمصلحة العامة للبلاد والناس من حولهم. واعون أن لهم قيادة وهم أعضاء في صف واحد مرصوص. يفعلون ذلك بأخوة قلبية وليس بحرمة المواطنة فحسب أي ليس خوفًا من سطوة القانون فحسب بل بتعبد يقربهم منه زلفى سبحانه ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: 10].

خلاصة هوية الإيمان الحقيقي.

1. الإيمان المتجدد رأسمال الحياة. من ربح المعركة مع نفسه فجعل من فؤاده محرابا للقرآن والذكر ربح المعركة.إيمان معتدل بين الخوف والأمل يصنع حياة معتدلة.

2. الإيمان المتجدد المعتدل يصنع القيم الأخلاقية العظمى : توكل يرسم الشخصية الماضية المطردة الملتزمة لا المترددة الكسلى تهيبا من الخسارة. وتواضع يصنع التراحم والتواصي بالحق وبالصبر فمن تكبر هلك وأهلك ومن تواضع في قوة وعلم نفع وإنتفع.

3. الإيمان المتجدد المعتدل المتغذي بالقيم الأخلاقية ينضبط للمواعيد التعبدية اليومية الخمسة المقدسة (الصلاة) فهي محطة تغذية دسمة.

4. الإيمان المتجدد المعتدل متربعًا على عرش الخلق العظيم يثمر شخصية مقاومة بالمال وبالنفس معا لأجل صناعة صف إسلامي واحد مرصوص للأمة وهي متنوعة فلا يذهب صاحبها إلى قضاء مأربه الخاص والناس في خوف أو ذعر وكذلك لصناعة قيمة التآخي.

أما الإيمان كما نحمله نحن اليوم رأسمالاً جامدًا غير مستثمر ..

أما الإيمان الذي يحمله بعضنا ينتصر به للظالم على المظلوم ..

سمعنا كثيرًا (إسلام سياسي) .. ربما نسمع قريبًا (إيمان سياسي)..

79

هل تعرف سبب أكبر نصر إسلامي (بدر)؟

هذه مسألة خطيرة جدًا على وعينا. قال فيها سبحانه ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾[الأنفال: 42] . ومعلوم بإجماع أن سبب واقعة بدر هو أنه عليه السلام لمّا سمع أن قافلة تجارية لقريش يقودها أبو سفيان في طريق العودة من الشام إلى مكة دعا المهاجرين إلى التعرّض لها إستردادًا لأموالهم التي أكرهتهم قريش على الخروج منها ولما إنتهى الخبر إلى القافلة تعجلت خطاها وأفلتت وفي الأثناء أرسلت إلى رؤوس قريش التي جندت رجالها وحصل الصدام في منطقة بدر في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة. حصل الصدام بين زهاء ثلاثمائة مسلم جاؤوا لإستعادة أموالهم ولم يخرجوا لحرب وبين ثلاثة أضعاف لهم من المشركين الذين جاؤوا مدججين لخوض حرب.

أين مكمن الخطورة على وعينا.

الأموال التي خرج محمد عليه السلام برجاله لإستعادتها ليست هي أموالهم نفسها أي ليست هي بعينها ولكنها أموال قافلة وما كان القصد سوى إسترداد ما أمكن من

قيمة المال الذي تركه المهاجرون في مكة. حصل ذلك وزكاه الله سبحانه إذ لم يعاتب رسوله عليه السلام في سورة عوتب فيها ـ كما في غيرها ـ ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾. الصحابة لما هاجروا من مكة لم يعرضوا على قريش أن يصطحبوا معهم أموالهم بسبب أن الهجرة كانت عملية سرية وما ينبغي لهم فعل ذلك عملا على إنجاح الخطة. الأموال التي كانت في قافلة أبي سفيان وأراد المسلمون أخذها بالقوة يمكن أن تكون محتوية على أموال لرجال لم يتورطوا في إيذاء الدعوة ولم يلغوا في أموال الصحابة في مكة.

صحيح أن المسلمين أرادوا (غير ذات الشوكة) بالتعبير القرآني أي أرادوا القافلة وما فيها ولكن الله سبحانه أراد لهم الشوكة نفسها فلم يصيبوا من القافلة شيئا إلا ما كان من غنم من بعد ذلك بسبب إنتصارهم الواسع في أعقاب المعركة. ولكن لا يعني ذلك أن نعفى من النظر في هذه القضية الخطيرة جدا على وعينا. بالتعبير القضائي : الإرادة القصدية عزمًا وتخطيطًا وتنفيذًا حصلت بالتمام والكمال سوى أن القافلة أفلتت.

الإطار الإداري الذي يتصرف به محمد عليه السلام كفيل بمقاربة صحيحة.

تصرف محمد عليه السلام هنا هو تصرف بالإمامة السياسية والحربية معا أي أنه يحشد منظوريه ـ سيما المهاجرين منهم لأن القضية تمسهم هم قبل غيرهم ـ لإستعادة أموالهم من قافلة لعدوهم. لم يتصرف هنا كشخص ولا تصرف واحد منهم منفردا. هي دولة في حالة حركة ثأرية لإسترداد أموال منظوريها الذين ظلمتهم قريش. تلك الحالة الثأرية تستهدف إستعادة المال ـ وليس شيئا آخر ـ وهو مال بصفته القيمية لا العينية كما أنف ذكره. الذي يقود هذه العملية الثأرية المالية في صورة حرب معلنة هو النبي المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ولم يتلق عتابًا في ذلك بما يعني أن الله راض عن ذلك.

ألسنا اليوم نطرح هذا السؤال الغريب : هل يجوز ذلك؟

راجع مدونات الفقه بنفسك لتلفى شيئا لا يعني في الأعم الأغلب سوى التردد والتوجس والحيرة فلا تلفى في الخلاصة شيئًا. الأمر شبيه بما حصل مع بني النضير جزئيًا

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [الحشر: 5]. هل يجوز لك أنت من حيث أنك فرد ـ أو لنا نحن من حيث أننا كيان جماعي بغض النظر عن التسمية ـ أن نتأسى بهذا الفعل النبوي الصحيح؟ دعني أقول لك : هنا منطقة عفو أو مساحة فراغ تركها الفقه الماضي لأسباب لا شأن لنا بها الآن وتغاضى عنها الفقه (المعاصر) أيضًا. السيرة عندما تكون بمثل هذه الصحة النقلية أليست مصدرًا من مصادر التشريع؟ هذا حقل من حقول السياسة الشرعية أي إدارة الإجتماع السياسي الإسلامي المعاصر بما يوافق الشريعة نصًا أو مقصدًا ومآلًا.

خلاصات أولية مهمة.

1. لأن منزلة المال في الإسلام منزلة عالية مرتفعة بحسبانه بعدا من أبعاد الكرامة وكفيلا من الكفلاء الذين يضمنون للإنسان ـ فردًا وجماعة ـ حقه وحريته فإن أول نصر في الإسلام ـ بل أكبر نصر كذلك ـ كان بسبب المال. علينا رعاية تلك الحقيقة وحسن الوعي بها.
2. عندما صرفتهم أقدار الله سبحانه عما أرادوا ووجهتهم وجهة أخرى لمصلحتهم ومصلحة دينهم فلا يعني ذلك أن العمل النبوي الإرادي القصدي الأول عمل باطل ولا يعني كذلك عدم البناء عليه أو طمر ذلك الجزء من السيرة وإعتباره كأنه لم يكن.
3. ما يستنبطه العقل هنا هو أنه عندما تقدر جماعة ما ـ دولة أو أي كيان جماعي ـ أن أموالها في حيازة غيرها كرها منها لا برضاها فإن لها التخطيط لإستعادة تلك الأموال ولو قيمة وليس عينًا أو جزئيًا وليس كليًا بشرطين فحسب هما : ضمان القدرة على ذلك وبما لا يعقبه ما يسوء من جهة ورضى الجماعة بذلك أو من يمثلها سيما قيادتها من جهة أخرى. لها أن تخطط لذلك فهو مباح مشروع ولا شيء يوجبه سوى توافقها بناء على دراسة المسألة من كل جوانبها المكنة على قاعدة الإستصلاح.
4. ومن الأدلة على إباحة ذلك الحديث الصحيح « من مات دون ماله فهو شهيد ». إسم الموصول هذا (من) يضم إليه الفرد والجماعة معًا.

أما فيما يتعلق بالأفراد فإن المسألة أعقد وتحتاج لأشياء أخرى لا توفيها هذه العجالة حقها.

80

الإسلام دين الإرهاب..

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾- [الأنفال: 60]. ألم يقل أن الغرض من إعداد القوة هو إرهاب عدو الله ؟ ألم ينسب فعل الإرهاب إلينا نحن؟

أركان الأمة الإسلامية خمس عظمى لا قيام لها بدونها.

1. سورتا العلق والقلم اللتان جاءتا بفريضة العلم ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ و﴿ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾.

2. سورة (الصف) التي جاءت بفريضة الصف الواحد المرصوص نبذا للفرقة.

3. سورة (الشورى) التي جاءت بفريضة التوافق والحوار نبذا للإستبداد والفردية.

4. سورة (الحديد) التي جاءت بفريضة القوة بمعنييها السلمي والحربي.

5. أوامر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المبثوثة بكثرة إعلانا عن فريضة الإصلاح.

فريضة القوة الحديدية العسكرية لا بد لها من كل ذلك.

إعداد القوة بـ(الحديد) يتطلب التبحر في العلم العسكري والحربي لإنتاج السلاح الكفيل بحفظ الأمة وصون حقوق الناس وردع المعتدين. كما يتطلب رص الصف الداخلي إذ لا عبرة بقوة عسكرية وأمنية لحماية صف ممزق بطبيعته. كما يتطلب إدارة الإختلافات الداخلية بالتشاور والتوافق وإلا تصدّع الصف نفسه فلن تحميه قوة مادية. كما يتطلب حركة إصلاحية داخلية دائمة أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر لجعل ذلك الصف دومًا واحدًا مرصوصًا وإلا تعرضت إعدادات القوة نفسها إلى النسف. ذلك هو المجتمع الإسلامي عندما يلتزم بأصوله وأركانه : علم وصف وتوافق وقوة وإصلاح. لا عبرة بأي منها إلا بحضور المشهد كله. كجسم سقط منه عضو مهم فلا يعوض أبدًا وهو مشلول شللا جزئيًا.

1. خطاب إعداد القوة موجه إلى الأمة جمعاء قاطبة فمن تأخر منا ولو حضًا وتحريضًا

فهو آثم قطعًا حتى لو لم يكن حاكمًا أو عسكريًا أو عالمًا.

2. ما إستطعتم معناها بذل الجهد كله علما وعملا لأن العلوم في حالة تمدد وتوسع وهي لا تنتهي بسبب قانون التطور وتغير الزمان والمكان.

3. جاء الخطاب بالقوة نكرة ليشمل الإعداد كل قوة مادية ومعنوية تحتاجها الأمة لصون نفسها وأهلها وإنجاد المستضعفين الذين يستصرخونها من الأمم الأخرى.

4. رباط الخيل ورد مورد الغالب في تلك الأيام لأنه يخاطب الناس بما يفهمون ولذلك قدم القوة أي قدم العموم وأخر الخيل لأنها خصوص لتلك الأيام. ولكنه قرنها بالرباط والرباط لا يخص الخيل فحسب بل هو حماية الثغور والحدود برًا وبحرًا وجوًا بالعسس والسلاح. الخيل هي أصل القوة الكهربائية المعاصرة لذلك إتخذها الأروبيون معيارًا لقوة محركات السيارات التي يصنعونها. الخيل ظلت إلى عقود غير بعيدة هي وسيلة الحرب في أوروبا.

وما قصة الإرهاب.

الإرهاب هنا هو إرهاب نفسي قوامه أن عدو الأمة الذي يريد بها شرًا يتأخر عندما يرى أو يسمع أو يعلم بأي طريق أن الأمة التي يريد بها شرًا هي أمة قوية مهابة محصنة بسلاح مثل ما لديه أو أكثر أو أنها مهابة بذلك وبمظاهر قوة أخرى كما أنف ذكرها. هذا يعبر عنه اليوم بموازين القوى أو تحديدًا بالرعب المتكافئ بمثل ما حدث في الحرب الباردة بين عامي 1945 و1989 في إثر إستحقاقات إنتصار الحلفاء على المحور في الحرب العالمية الثانية ونشوء قوتين عالميتين تستظل بهما بقية الدول وهما : الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفياتي. في تلك المرحلة الممتدة زهاء نصف قرن كانت الحروب بين الدول أقل بكثير بسبب تعادل موازين القوى وتكافئ الرعب. ذلك هو معنى الإرهاب أي أن الدولة تملك من الأسلحة ما عند القوي الآخر وعندها يتأخر كل منها عن مهاجمة صاحبه. هو إرهاب نفسي كمن يحمل في يده عصًا غليظة فإن الكلاب من حوله تكتفي بالنباح ولا تغامر بالهجوم عليه مهما إقتربت منه. الإرهاب هو إذن إرهاب نفسي يأمرنا به الإسلام لأجل إحداث الرعب والخوف في صدور المعتدين عندما يعرفون أن لنا من الأسلحة ما

به نصدهم عنا ـ وربما حتى عن حلفائنا من غيرنا ـ. الإرهاب النفسي مطلوب إذ قال عليه السلام: « نصرت بالرعب مسيرة شهر ». لقد ثبت بالتجربة التاريخية أن القوة الروحية هي الأشد حسمًا في الحروب والواقعات. الإرهاب النفسي الذي تحدثه قوتنا المعدّة هو قوة روحية مضادة تفعل فعلها في صدر العدو الذي يتأخر عنا بسبب روحي نفسي إذ يمكن له أن يهاجمنا بسلاح مثل سلاحنا أو أقل بقليل أو أكثر بقليل ثم ينتصر علينا. فما الذي يجعله يتأخر عنا إذن؟ إنما هي قوتنا التي أرهبناه بها فأحدثت فيه هزيمة روحية.

من هو عدو الله؟

عدو الله هو من يعتدي على الناس الآمنين الأبرياء. نحن مسلمون فإذا إعتدينا على أناس أبرياء مسالمين لنا ولغيرنا ـ دعهم يكونوا أكفر من على الأرض ـ فنحن أعداء الله قطعًا. عدو الإنسان هو عدو الله لأن الله خلق الإنسان حرًا كريمًا. أما الآخرون هنا في الآية فما هم سوى المنافقين الذين نعلم صفاتهم ولا نعلم أسماءهم.

بقيت كلمة : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم﴾. لم يقل (وأعدوا ما إستطعتم ..). ليس إعداد القوة للتفاخر وإعلان الكبرياء ولا لتزيين الثكنات بالأسلحة والمعدات فلا ترى النور إلا يوم أعياد العرش المجيدة في حركات إستعراضية بليدة. إنما الإعداد ﴿لَهُم﴾ هم أي لمقاومة المعتدين وبذا تكون للإعداد وظيفته في إرهاب الإرهابيين. ولو قال ﴿وَأَعِدُّواْ﴾ فحسب لكان التعبير صحيحًا.

81

أي حكمة في عتابات مبثوثة متكررة للنبي محمد عليه السلام.

النبي الأكرم عليه السلام محل عتابات معروفة في القرآن الكريم. منها ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾[التحريم: 1]. في مشكلة عائلية معروفة. ومنها ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾[عبس: 1]. في إعراضه عن عبد الله إبن أم مكتوم . ومنها ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[التوبة: 43]. في إذنه

للمنافقين بالتخلف عن تبوك. ومنها ما نعالجه اليوم ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾[الأنفال: 67]. في أسرى بدر. لم؟ حكمة الحكم هنا هي الغرس في أفئدتنا أنه عليه السلام بشر يصيب ويخطئ في إجتهاده وتقديره الدنيوي دعوة وتصريفا وليس في إبلاغ الدين فهو هنا معصوم عصمة نبوية صارمة. عندما أراد سبحانه ختم رسالاته بمحمد عليه السلام وكانت آخر تجربة نبوية ـ عيسى عليه السلام ـ قبله قد إتخذت ذريعة إلى الشرك به سبحانه أي بإتخاذ عيسى أو أمه أو كليهما إلها له من التدبير الإلهي شيء بتعلة أنه ولد من غير أب فالله سبحانه هو أبوه تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا .. عندما أراد سبحانه ختم رسالاته شدد على قضية الوحي العظمى أي التوحيد الخالص الصافي فكان يؤكد في كل مرة بأن محمدًا عليه السلام بشر يوحى إليه ولا علاقة له بالإلهية إلا علاقة التلقي والتنفيذ فحسب. تصور أن البشرية تفيئ إلى ربها يوم القيامة بـ(خير أمة) وهي تعبد محمدا عليه السلام؟ لذلك عوتب مرات ومرات وأكدت بشريته مرات ومرات.

أسرى بدر بين الإجتهاد النبوي والتصحيح الإلهي.

إستشار فيهم صاحبيه أبي بكر وعمر فأشار الأول بإطلاق سراحهم وأشار الثاني بقتلهم ولما سألاه عن رأيه هو قال « لو إتفقتما ما خالفتكما ». ثم أعمل رأيه عليه السلام وهو المنّ عليهم بفدية قوامها تعليم كل واحد منهم لعشرة من المسلمين القراءة والكتابة. وبينما مشروع محو الأمية يتنفذ جاء عتاب جديد ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾[الأنفال: 67].

هذا هو السؤال المحير : لم لم يأت التصحيح الإلهي في إبانه أي لم تأخر؟

1. تأخر الوحي لتعليمنا أنه على الإنسان أن يدبر أمره بتشاور وتوافق وطلب سداد في كل أمر ليس له فيه وحي صحيح صريح ثابت. تأخر في تلك الأيام وهو يتنزل يومًا من بعد يوم فما بالك في حالنا حيث إنقطع بالكلية إلا ما لدينا في الكتاب والسنة. تأخر ليبعث فينا ملكة الإجتهاد وشغف البحث فيما هو محل لذلك أي منطقة العفو والفراغ بالتعبير الأصولي.

2. تأخر الوحي ليعلمنا أن الإنسان مكرم فهو محل تشاور وحوار حتى مع النبي نفسه وليعلمنا كذلك أن الناس مهما كانوا متقاربين فهم مختلفون بالضرورة رأيا وإجتهادا وتكون إختلافاتهم أحيانًا كبيرة فهذا يرى قتل الأسرى وذاك يرى المنّ عليهم. أليست نكبتنا اليوم من سوء الإيمان بحق الإختلاف؟ ألسنا نحسم إختلافاتنا بالنار والإقصاء والنفي؟

3. كما تأخر لتكون فرصة أخرى للوحي يعاتب بها سيد الخلق محمدا عليه السلام إذ ليس أكبر في الدين من تصحيح الإعتقاد لهذه البشرية التائهة ومن أكبر تصحيح الإعتقاد تلافي ما جرت عليه البشرية قبل الرسالة الأخيرة من عبادة لبشر نبي بدعوى أنه ولد من غير أب. هذا دابر لم يكن ينبغي للوحي السكوت عنه فهو يحاربه بكل الوسائل ومنها تأكيد بشرية النبي الخاتم ومن دلائل بشريته أنه يخطئ في تصريف الدنيا ـ لا إبلاغ الدين ـ ومن يخطئ في إجتهاده الدنيوي لا يكون إلها ولا حتى عشر معشار إله.

4. تأخر الوحي لأن النهي عن إتخاذ أسرى في أول معركة مدوية يرقب نتيجتها الشاهد الدولي يقصد منه عدم مقايضة القوة بالدنيا. ذلك هو سياق النهي. ولكن الذي حدث هنا هو أن إتخاذ الأسرى لم يكن إبتغاء الدنيا إذ لم يكن المنّ عليهم بسبب فديات دنيوية منهم أو من أوليائهم وإنما كان إبتغاء تنفيذ أول مطلب إسلامي ﴿ٱقۡرَأۡ﴾[العلق: 1]. و﴿وَٱلۡقَلَمِ﴾ [القلم: 1]. أي فتح أول فرصة لهذه الأمة الأمية بالكامل حتى ترتقي في مراقي العلم والمعرفة ليكون لها ذلك مظهر قوة إذ لا قوة مالية ولا قوة مادية ولا قوة عسكرية إلا بالعلم والقلم.

5. تأخر الوحي إذن ولم يتأخر المقصد المراد منه فهو يقصد من النهي عن إتخاذ أسرى (أي قتلهم) توجيه رسالة قوية إلى الشاهد الدولي بأصدقائه وخصومه وحلفائه أن هذا المنتصر الجديد (الإسلام) هو منتصر قوي لا يريد مالا وفديات ومقايضات لأسرى عدوه بتراث الأرض كلها. يعني أنه طرف مبدئي وهو صاحب قضية وهي المسألة ذاتها التي جرت بين بلقيس وسليمان إذ أرادت إختباره بالمال لنخل حقيقته

فإن كان نبيًا صاحب قضية نبذ المال وإن كان ملكا قبل الهدية العظمى من ملكة عظيمة. بإنتصار بدر المدوي حصل ذلك المقصد للشاهد الدولي كله يومها ولا بأس إذن من المنّ على الأسرى بمقابل معنوي فكري إستراتيجي هو تسلق مراقي العلم وتسور مصاف المعرفة.

ولكن يظل السؤال مطروحًا.

تأخر الوحي لأن المقصودات كلها حصلت (بشرية محمد عليه السلام ووصول الرسالة الإسلامية إلى الشاهد الدولي وتسلق مراقي العلم) ولكن بقي مقصود آخر لا يتحقق إلا بتأخر الوحي وهو : أن الله سبحانه بحكم إلهيته المطلقة يفعل ما يشاء فهو يقدم وهو يؤخر وهو يثبت وهو يمحو. تحرير المشيئة لله وحده سبحانه تحريرا كاملا مطلقا لا يقيد بأي شيء مهما إجتهد الناس وكان في إجتهادهم الصواب والخطأ.

لو لم يمنّ عليه السلام على أسرى بدر لكان أحد القتلى عمه العباس فهو أحد الأسرى ذلك الرجل الكبير الذي كان نصيره في العقبة الثانية مع زهاء سبعين أنصاري قبل الهجرة وهو مشرك وهو الذي من صلبه جاء حبر الأمة وهو الذي سيتأخر إعلان إسلامه إلى فتح مكة. تلك هي أقداره سبحانه يصرفها فلا نعلم الحكمة منها فلا مناص لنا من التسليم له سبحانه.

82

سورة الأنفال تحضن أسباب القوة وسنن الغلبة وشروط النصر.

إحتضانها ذاك مناسب لأنها جاءت معقبة على أول إنتصار إسلامي وأكبره. الغلبة والنصر غرائز في الإنسان. ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ ﴾[الصف: 13]. النصر محبوب لأنه يلبي أقوى غريزة إعتبارية هي غريزة حب التقدير والمهزوم ليس محل تقدير بين الناس.

أسباب القوة وشروط الغلبة وقوانين النصر.

1. الرصيد الروحي والفكري:

أ. تصحيح الموقف من الدنيا لتكون وسيلة لا غاية. جاء ذلك في أول السورة التي تعاتب المهاجرين الفقراء أنهم سألوا عن مصير الفيء. ثم تردد ذلك في قوله ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [الأنفال: 67]. فمن قاوم في معركة الحياة - وهي ضربة لازب - ومنزلة الدنيا في رأسه أن تكون خادمة للقيم العظمى لا مخدومة تجنب الكبر والبطر والغرور وبث بين الناس الأمن والسلام وحاكمهم بالعدل والقسط حتى لو كانوا أعداء لدا.

ب. رعاية الضعفة والمحتاجين رصدًا لحقهم في المال العام حتى لو لم يشاركوا في العمل والكد لأنهم عاجزون ولذلك إحتضنت السورة قانون تصريف الزكاة كما جاءت تحرض على حق هؤلاء ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: 41]. أي تصحيح الموقف من الإنسان أنه كائن مكرم لا يسلم للجوع والفقر والفاقة.

ج. رعاية قيمة الواقعية بسبب إختلاف الناس مؤهلات وبسبب قيام الزمان والمكان على المور والدورن لا على الثبات. كلف الأوائل بمقاومة كل واحد منهم لعشرين في الحرب مواجهة مباشرة بالسيف ثم وضع ذلك تيسيرًا وتخفيفًا فكلفنا بعشر ذلك فحسب أي بمقاومة كل واحد منا لإثنين وليس أكثر ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ..﴾ [الأنفال: 65].

د. تعبئة النفس بقيم الثبات والصبر والذكر ومن ذلك أنه سبحانه يثبتهم بالرؤيا ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ [الأنفال: 43]. وحضهم على ذلك ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأنفال: 45]. و﴿وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: 46].

2. الرصيد العملي إداريًا وماديًا :

أ. رعاية المرجعية الدستورية العليا أي طاعة الله وطاعة رسوله ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾

[الأنفال: 46]. ذلك مطلوب دوما فما بالك إذا كانت الطاعة للقيادة العسكرية المباشرة. ألم تكن محنة أحد سوى بسبب عدم طاعته عليه السلام في أمر عملي مباشر صريح؟

ب. رعاية وحدة الصف الواحد المرصوص مهما كانت تنوعاته كثيرة ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾[الأنفال: 46]. ألم نكن ذات يوم أمة واحدة ذات قيادة واحدة وسياسة عامة واحدة في القضايا العظمى؟ نحن اليوم لسنا متفرقين فحسب بل مفرقين لا بل متعادين لكل مجتمع منا حكومة تفرض عليه ولاء سياسيًا لجهة ما. أليست فرقتنا هي التي تغذي تعادينا وهذا بدوره يجلب لنا العداوات الخارجية؟

ج. إعداد القوة الحربية المادية بكل أنواعها الممكنة ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ﴾ [الأنفال: 60]. الأرض مملكة ذئاب حقا فلا حياة - ولا حتى عيش - لمن ظل فيها ضعيفًا هزيلًا خوفان. أليست تلك هي تجربة الإنسان في تاريخه العريق؟

3. الرصيد الفقهي السياسي.

أ. إكتساب معرفة سياسية بموازين القوى الدولية من خصوم وأعداء وأصدقاء ومسالمين ومحاربين وغيرهم بقصد تنزيل السلم في مكانه وإعلان الحرب في مكانه بناء على قراءات صحيحة توافقية. إعلان السلم مثلا يتطلب نزوع العدو إلى السلم ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾[الأنفال: 61]. أما مسالمة محارب يهمّ بولوج الدار ؟؟؟

ب. تلك المعرفة السياسية تمكن كذلك من حسن تقدير الموقف الأنسب وهو ما وقع في أسرى بدر بناء على رأي أبي بكر فقد أبقى المنّ على الأسرى بفضل الله وقدره على حياة رجل كبير في الإسلام بل كان كبيرًا نصيرًا في الشرك مثله مثل أبي طالب وهو العباس الذي كان أسيرًا في بدر. تلك السياسة مكنت لمشروع محو الأمية في الأمة الأمية أن يأخذ طريقه في وقت مبكر. وبالتوازي مع ذلك تحصل الشاهد الدولي بكل مكوناته على الخطاب الإسلامي المناسب أنه قوة مبدئية على طريق سليمان الذي يريد الله واليوم الآخر ولا يريد هدايا بلقيس ولا يريد محمد عليه السلام فديات قريش لأسراها.

ج. وهو الفقه السياسي نفسه الذي يمكن للدولة الإسلامية من التمييز بين المواطنة وبين الإنتماء الإسلامي عندما يكون خارج دائرة المواطنة. إذ أمروا بعدم الإنتصار لأي مسلم فردًا أو جماعة خارج الوطن الإسلامي (المدينة) مهما ضيم وإعتدي عليه إذا كان بين الدولة الإسلامية وبين المعتدي على أولئك المسلمين عقد سابق. الوفاء بالعقود مع الكفار المشركين المحاربين أولى من الإنتصار لمسلمين مستضعفين أبوا الهجرة. هو فقه سياسي جديد لا قبل للبشرية به. هذا أمر ينظم قضية المواطنة التي فيها اليوم لغط شديد من لدن بعض الإسلاميين أنفسهم ومن لدن خصومهم من باب أولى وأحرى.

83

سورة التوبة بين جدلنا الفارغ ومقاصدها العظيمة.

إفتح أي تفسير لتلفى أن صاحبه حبّر في مقدمة شرحه لسورة التوبة صفحات في موضوع خلوّ هذه السورة من البسملة التي أفتتحت بها كل سورة. أليس ذلك هو الجدل الفارغ الذي نهينا عنه سيما إذا كان حظ ذلك فينا وفي تفاسيرنا بمثل مقصد واحد من مقاصدها العظمى التي جاءت بها. إفتح أي كتاب فقه لتلفى جدلا آخر أوسع في البسملة في الصلاة. ستجد آراء وآراء. لم لا نجد صحابيًا واحدًا سأله عليه السلام هذا السؤال: هل أقرأ البسملة في صلاتي التي أفتتحها دوما بالفاتحة وجهرا؟ سمعوه صلى فصلوا مثله. لو كانوا سألوه وهو يقرأ سرًا هل ترى رجلا مثل أبي هريرة الذي أحصى أزيد من خمسة آلاف حديث يزهد في ذلك فلا ينقله إلينا أو الأم العظيمة عائشة التي يصلي إلى جانبها صلاة الليل ما شاء له الله أن يصلي. يسألني الناس عن بسملة الفاتحة في الصلاة فأقول لهم : إقرأها إن شئت أو لا تقرأها سرًا وعلنًا. ذلك مباح لأنه وارد كله فلا حرج عليك. عندما يسمعون مني ذلك أرى في وجوه بعضهم حيرة. يريدون أن يسمعوا كما ألفوا محاضرة طويلة حول قضية لا عبرة بها في الدين. اللهم أشهد أن هذا جدل فارغ. اللهم أشهد أن كتابك ما جاء لمثل هذا الجدل.

وضع البسملة بين السور أمر إختاره عثمان عليه الرضوان مع من معه من الأصحاب. البسملة ليست آية من أي سورة إلا فيما إختلف فيه في فاتحة الكتاب. إجتهد الصحابة في شيء يفصل بين كل سورة وأخرى فإختاروا البسملة ونعم الإختيار وربما إستوحوا ذلك من كتاب سليمان عليه السلام إلى بلقيس ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [النمل: 30]. خلت سورة التوبة من ذلك لمناسبة التبرئ من المشركين إذ لم يكن ذلك مناسبًا لتقدمه بذكر الرحمان الرحيم. لو كان هناك إفتتاح لكان أنسبه أن نقول بسم الله العزيز الحكيم. أقوى حجة هنا هي أن القرآن الكريم نفسه عرض إلى الأمر بالإستعاذة من الشيطان الرجيم عند تلاوته ولم يعرض إلى البسملة ﴿ فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾[النحل: 98]. هذا الموضع هنا داع إلى بيان البسملة لو كانت مطلوبة. ولكنه إقتصر على الإستعاذة. فلم نعمل عمل بني إسرائيل تشديدًا وإجتراح تفصيلات نحن في غنى عنها وفي زمن ضاعت فيه مقاصد هذا التشريع العظيم فأصبح حركات وتمتمات وطقوس باهتة باردة.

المقاصد العظمى لهذه السورة وهي الجديرة بحسن الفقه وحسن التنزيل.

1. إجلاء المشركين من المنطقة المحرمة في مكة لتأسيس حرمة أرضية خاصة بالإسلام تحضن بيت الله الحرام الذي لا يخلو من قائم وساجد وراكع وعاكف وطائف ولا من ساع على مدار الزمان ثم تجتمع فيه الأمة في جزء كبير منها مرة كل عام. أليس للكاطوليك دولة صغيرة في قلب العاصمة الإيطالية روما (الفاتيكان)؟ ألم تصبح إسرائيل المحتلة دولة يهودية بتصويت الكنيست عليها قبل سنوات؟ هل هو كثير على الإسلام أن يختط له مساحة صغيرة من الأرض ـ هي الحرمة المكانية المكية فحسب بما لا يزيد عن مسافة ساعة واحدة بالسيارة طولا وعرضا ـ تكون خاصة بالمؤمنين؟ أما إذا توسعت الدولة السعودية لتجعل من المملكة كلها أرضًا حرامًا لأغراض سياسية معروفة فالذنب ليس ذنب التشريع الإسلامي.
2. إمهال أولئك المشركين أربعة أشهر كاملات للخروج وهي فرصة كافية وزيادة حتى في عصرنا الحاضر حيث يحتاج المرء إلى شاحنات شاسعة لحمل رياشه فما بالك

في تلك الأيام حيث لا يتجاوز ذلك كله حمل بعير وعمل ساعة واحدة. ظل يشدد على الوفاء بالعهود المقطوعة معهم ونسب ذلك مرتين في سياق واحد إلى التقوى. هو إذن إجلاء حضاري لرعاية خصوصية تعبدية دينية وبإعلام مسبق وتشديد على رعاية العهود. قارن ذلك بما يفعل اليوم في الأرض كلها تقريبًا.

3. ثم تفرغ إلى الحض على قتال الروم في تبوك الشامية البعيدة وهو قتال إستباقي. تلك هي الروم التي حزن لهزيمتها المسلمون في مكة ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ ..﴾ [الروم]. نحزن لهزيمة من يشبهنا في الكتابية مجرد شبه لأنه أدنى إلينا من الملحد اللاديني ولكن عندما يهجم علينا ذلك الكتابي نفسه فإننا نقاومة.

4. سماها الصحابة سورة الفاضحة لأنها فضحت النفاق والمنافقين إذ بعدت عليهم الشقة أن يعرضوا أنفسهم إلى رحلة تدوم شهرًا كاملا ذهابًا ومثله جيئة إن كتبت لهم الحياة وكانت الواقعة في فصل صيف حار نضجت ثماره وتمددت ظلاله وكل شيء يغري بالدعة والمتعة. هي أطول سورة بسياقاتها مما عالج النفاق وكشفت عن أماراته و علاماته.

5. كما عالجت المخلفين الثلاثة من الصحابة (هلال إبن الربيع وصاحبيه) وبينت تلازم الصدق في الفؤاد مع التخلف عن العمل الصالح. وهذا كثير فينا ولم يشفع لهم صدقهم ذاك إذ عوقبوا بالمقاطعة الجماعية المؤلمة جدًا لزهاء شهر كامل ثم دعوا إلى هجران أزواجهم أيضًا فكانت مقاطعة عائلية أكسح ثم تاب الله عليهم وعلى نبيه وعلى المؤمنين كافة. لذلك سميت سورة التوبة لأن آخرها توبة جامعة من التواب سبحانه.

واقعنا اليوم يشكو الأمراض نفسها فلم التشبث بالمختلف فيه وترك المتفق عليه.

سواء قرأت البسملة في أي موضع من صلاة أو من قرآن أو لم تقرأ .. لن يزيدك ذلك ثوابًا ولن ينقص منك شيئًا. إنما المقصود هو حسن فهم تلك المقاصد لحسن تنزيلها. أليست مجتمعاتنا ينخرها النفاق نخرًا عجيبًا فهو يعوق نهضتها وينقض ثورتها ويؤخر هويتها؟ ألسنا متخلفين عن تبوك العصر؟ أليس الجهاد فينا إما رذيلة قبيحة في عيون الشيوعيين والعالمانيين وهو عنوان همجية وظلامية أو قتل بغدر وخيانة للأحمر والأسود والكافر والمؤمن والمسالم والمحارب والمرأة والرجل دون هوادة؟ أليس كلاهما لا علاقة له بالجهاد المطلوب؟

84

الدولة الإسلامية تمنح اللجوء السياسي ..

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: 6].

توضيحان في البداية.

1. الإسلام كيان سياسي جامع يلم شتات معتنقيه سعيا على مصالحهم وتنسيقا لجهودهم وهو الأمر الذي فعله عليه السلام في أول عمل من بعد إتمام هجرته إذ خط مع أصحاب الديانات الأخرى وثيقة دستورية سياسية ومهد لها بأمرين هما : بناء حلف تآخ بين المهاجرين والأنصار إسما بإسم وليس مجرد خطبة عصماء تذرف لها الدموع ثم ينصرف كل واحد منهم إلى بيته لا يلوي على شيء وبناء المسجد الذي كان يعد في تلك الأيام الدار العامة للمسلمين وليس هو مجرد قاعة للصلاة. الإسلام بكيانه ذاك ينشئ دولة إسلامية إذ لست من القائلين بأنه لا دولة للإسلام أو أن كل دولة تتحقق فيها مقاصد الإسلام فهي دولة إسلامية وعندها نسمي ألمانيا دولة إسلامية. الدولة الإسلامية عندي حقيقة تاريخية ولا يضيرني أن أسميها دولة إسلامية ما كانت مبسوطة على أغلبية مسلمة وما كانت منتخبة من مواطنيها لا مسلطة عليهم بالغلبة والشوكة وما كانت محققة قدر الإمكان لأعظم مقاصد الإسلام وخاصة الحرية والكرامة والعدالة والوحدة والحق في الإختلاف تحت سقف صف واحد مرصوص. الدولة في الإسلام هو مبحث نظري ولكن الدولة الإسلامية هي حقيقة مادية. ربما تلجئ إكراهات السياسة بعضهم إلى عدم القول بذلك وأتفهم منهم ذلك.
2. لا أرى مانعًا من إستخدام هذا المصطلح (الدولة الإسلامية) بسبب ما أحدثه هذا الكيان من قهر وسوء قالة عن الإسلام في الإعلام شرقًا وغربًا. لو أن كل من هب ودب ممن يستخدم كلماتي وعناويني أسلم له بذاك تأثمًا وتحرجًا لأجهز علي خصومي

بتجريدي من عناويني وقيمي واحدة واحدة. هذا يبني مشروعه على الحريات والحقوق فأتميز عنه في خطابي وذاك يسمي نفسه دولة إسلامية فأنأى بنفسي عن ذاك .. ما تكون هويتي من بعد ذلك؟ سيقولون يوما الإسلام إستسلام ولا يليق بعصرنا. ماذا أسمي نفسي؟ ألم يقل السيد محمد مواعدة ـ سياسي تونسي سابق ـ عندما كان حليفًا للمخلوع بن علي أن الإسلام لا يعترف بالتعدد بسبب أن عقيدته تقوم على مبدإ التوحيد. يجب علي إذن أن أكون متعدد الإلهية حتى يعترف بي في المحفل التعددي الذي يبشرون به؟

قيمة صريحة نفذتها إمرأة في الإسلام.

لما فتح عليه السلام مكة فرض ما يشبه حالة الطواري خوفا من حركة مضادة و قال «من دخل بيته فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن». أي من لا يتعرض للفتح بأي أذى يستمتع بأمنه كاملا بغض النظر عن عقيدته ودينه. في تلك الأثناء جاء بعضهم إلى إم هانئ طالبا الإجارة. في رواية هو أخوها وفي أخرى هو حموها وفي رواية هو مشرك واحد وفي رواية هما مشركان .. كل ذلك لا ينقص من القيمة شيئا. المرأة واثقة من رصيدها المعرفي في الإسلام وواعية بالحالة الأمنية الخطيرة. منحت اللجوء السياسي لطالبها فورًا. لم يكن لها وقت لإستشارة محمد عليه السلام ولا هناك وقت أيضًا لطالبي اللجوء للإنتظار. المسألة محسومة في الكتاب العزيز مباشرة. هذه آية صريحة أقوم بتنفيذها ولم البيروقراطية المقيتة وتأجيل مصالح الناس حتى وهم مشركون. نفذت ذلك ـ وهي إمرأة وليست فحلا ـ بل نفذت ذلك في حالة هشة جدًا أمنيًا وسياسيًا. نفذت ذلك بكل ثقة وطمأنينة وبعد أن رفعت حالة الطوارئ وعاد الأمن إلى مكة لقيته عليه السلام إتفاقًا لا عن ميعاد فأخبرته فما كان منه إلا أن رد عليها بكلمات عظيمات يريد توجيههن إلينا نحن اليوم. قال لها مبتهجًا مسرورًا بهذه المرأة العظيمة دينا وسياسة «أجرنا من أجرت يا أم هانئ ». أجرنا .. بضمير الجمع. لأنه يتكلم بإسم الدولة وليس بإسمه الشخصي. ختم على عملها السياسي الأمني الإداري الكبير بخاتم الدولة (نا). وهو يريد أن يقول لنا : هذه إمرأة لم تقعد بها أنوثتها عن الفقه في الدين ولا عن الوعي

في السياسة. هذه إمرأة أدت حقًا لهذا المشرك المستجير وقامت بفريضة وطنية عظمى. الدولة تزكي عمل هذه المرأة لأنها تنفيذ لأمر الله لنا أن نجير المشرك.

مضمون الإجارة أو عقد اللجوء السياسي.

هو لجوء سياسي. الرجل المشرك المستجير لم يكن يشكو لا جوعًا ولا ظمأ بل يشكو خوفًا على نفسه وهو في قمة شجاعته الأدبية إذ لم يقتنع بالإسلام دينا فيدخله وتأبى عليه نفسه أن ينافق فيظهر الإيمان ويخفي الشرك. في أروبا اليوم نوعان من اللجوء (لجوء سياسي ولجوء إنساني). لهذا المشرك أسندت دولة محمد عليه السلام لجوء سياسيًا لا إنسانيًا.

1. ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[التوبة: 6]. ذلك هو البند الأول من عقد الإجارة. أي عندما يكون في أمن بينكم وأنتم مسؤولون عن أمنه وحريته فإنه سيخالطكم وهي مناسبة ليسمع كلام الله إليه وليس كلام أي أحد آخر وعندما يسمع ذلك الكلام وهو آمن على نفسه بينكم فلعله يؤمن. أي أن المقصد من تأمين اللاجئين إنما هو منحهم حرية التفكير وليس إكراههم على شيء. من قبل ذلك كان هذا المشرك يسمع عنكم واليوم هو يسمع منكم. فأحسنوا عرض البضاعة.
2. ﴿ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ﴾[التوبة: 6]. سواء آمن أو لم يؤمن فإن أمنه مسؤولية في أعناقكم. أمنه النفسي والغذائي مسؤولية الدولة الإسلامية. لا يخوف ولا يروع ولا يغمز أنه مشرك. لا. ذلك دينه وهو حر حرية كاملة. واجبكم هو إتاحة الفرصة أمامه ليسمع فحسب. هي ثقة هذا الدين في نفسه فلا يطلب من الإنسان سوى الإستماع إليه. لا يحتاج منك سوى أن تعيره سمعك.

عشرات الملايين اليوم من اللاجئين كلهم تقريبا في الدول الغربية وأكثرهم مسلمون هجّرهم مسلمون مثلهم. ولا وجود لقانون لجوء في أي دولة عربية ولا إسلامية .

ثم تريد أن تقنعني بأن (**الإسلام يمنح اللجوء السياسي**)؟؟؟

85

الجزية : مثال مناسب لحسن فهم علاقة الكتاب بالميزان.

قال الله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: 29].

الميزان ورد في سور الرحمان والشورى والحديد. وكثيرًا ما يستعاض عنه بكلمة الحكمة. الميزان هو الحكمة العقلية التي يتجهز بها الإنسان لضمان أحسن فهم للإسلام.

الجزية كلمة تحمل دلالتها في جسمها.

الجزية معناها الجزاء. أي أن أهل الكتاب في الجزيرة العربية في تلك الأيام مطلوب منهم أن ينضووا تحت سلطان الدولة الإسلامية من بعد فتح مكة وواقعات حنين والطائف وتبوك وإعلان القبائل العربية كلها تقريبًا عبر وفودها إلى المدينة إسلامها الذي كان بعضه سياسيا لذلك قال سبحانه ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا ﴾[الحجرات: 14]. مطلوب من أهل الكتاب أن ينضموا إلى تلك القبائل المسلمة سياسيا أي الخضوع للدولة الإسلامية الجديدة وليس مطلوب منهم أن يكرهوا على تغيير دينهم. لذلك قال : قاتلوهم حتى يعطوا الجزية وليس حتى يؤمنوا. إعطاء الجزية معناه الإعتراف بسلطان الدولة. أم هل تصدق أن الإسلام يرغب تحصيل المال من الناس بدلا عن هدايتهم؟ هذا محال. مطلوب منهم الإعتراف بالدولة الإسلامية وتأكيد ذلك بإعطاء الجزية في مقابل الخدمات الأمنية وغيرها التي تقدمها الدولة لهم مساواة بينهم وبين الزكاة التي يعطيها المسلمون للدولة نفسها. الجزية المطلوبة إذن من أهل الكتاب تعني إعلان المساواة المدنية بين المسلمين وبين غيرهم في الدولة الواحدة على أساس المواطنة. بل يقع إعفاؤهم كذلك ـ أي أهل الكتاب ـ من بقية الواجبات ذات الطابع الديني كلها في مقابل تلك الجزية من مثل إعفائهم من الدفاع العسكري عن الدولة وهو الأمر الذي يعرض الناس إلى الموت وليس

من القيم الأخلاقية للدولة الإسلامية تعريض المواطنين الذين لا يؤمنون بالجهاد والقتال وغير ذلك إلى الموت. الجزية تسير في إتجاه الإعتراف بالمواطنين المختلفين عقديًا وعدم تحميلهم ما لا يحمّلهم إياه دينهم نفسه.

تطورات نظام الجزية من الخلافة الراشدة إلى اليوم.

الجزية هي إذن مقابل مالي من المواطن المخالف عقديا تقوم الدولة بمقتضاه بضمان حمايته وأمنه والدفاع دونه عسكريا وعدم تكليفه وطنيا ما لا ينسجم مع دينه وهي إعلان مساواة مدنية بينه وبين المسلم الذي يدفع للدولة الزكاة وينتظم في جيش يحمي الحدود. هي إذن علامة تكريم وأمارة تحرير وإعتراف بالآخر المخالف دينيا. لما جاء الفاروق إلى نصارى تغلب ـ عرب تنصروا ـ يأخذ منهم الجزية وهو الخليفة في تلك الأيام أنفوا من الإسم وصرخت في عروقهم الدماء العربية فاشترطوا على الفاروق أن يسميها بغير إسمها (أي الجزية) فكر الفاروق قليلا ثم أسعفه فقهه المقاصدي العظيم ووافق على ذلك. ولما كان في طريق العودة قال لأصحابه هؤلاء حمقى. قالوا : كيف؟ قال: رضوا بالمسمى وأنفوا من الإسم.. أنى لعمر أن يرضى بتغيير الكلمة بناء على طلب من كتابيين؟ بيني وبينك هنا كلمة واحدة . إدرس بنفسك سيرة عمر الإدارية والسياسية والمالية ستلفى عجبًا. أدرس : صلاة التراويح. المؤلفة قلوبهم. حد السرقة عام الرمادة بالعراق. تخميس أرض العراق المفتوحة فيئا بالسلاح. تغيير نظام العطاء عمّا كان في عهد الصديق. حبس مجموعة من أهل الرأي من الصحابة لحاجة الشورى في المدينة بما يشبه الإقامة الجبرية لمصلحة الإجتهاد. إصدار قانون التغطية الإجتماعية لكل مولود جديد. إصدار قانون الإقامة بالجيش إلخ..

لعلك تتوجس إذا قلت لك أني أدعو إلى الحوار مع المنسوبين إلى التيار السلفي المغشوش بمادة فكرية واحدة إسمها : السيرة الإدارية والمالية والسياسية للخليفة الثاني عمر عليه الرضوان. لا تحتاج معهم إلى غير ذلك. من يقود معهم حوارات في هذه السيرة يلجئهم إلى أحد أمرين : إما الرجوع إلى جادة الصواب في حسن فهم الإسلام كتابًا وسنة. أو إعلان بعضهم أن عمر كافر مرتد. لعلك تتوجس إذا قلت لك أني أحترم هذا

الضرب الثاني منهم لأنه متجانس مع نفسه أي أنه ليس منافقًا بل جاهلا. لنسلك معهم ما سلكه معهم الإمام علي بواسطة حبر الأمة أي إدارة الحوار وسنعود منهم بمثل ما عاد منهم أي ما بين الثلث والثلثين. عندها نتبيّن أن الثلث المتبقي مأجور بمال ومنافع لدى جهات الله وحده يعلمها. أجل. سيرة الفاروق كافية لبيان الحق في السلفية المغشوشة. كافية وزيادة.

لم يقتصر إجتهاد الفاروق في الجزية عند ذاك الحد مع نصارى تغلب إذ وجد يهوديًا طاعنا في السن فأمر بوضع الجزية عنه (أي إعفاؤه) وأمر له براتب شهري يكفيه.

هل نأخذ الجزية اليوم على يهود تونس؟

أمران لا بد من إدراجهما ضمن الإجتهاد. أولهما أن العالم اليوم محكوم بإتفاقيات دولية معروفة مرجعها عصبة الأمم المنتصبة في عقب الحرب العالمية الثانية 1945 ومنها أن العالم الإسلامي مقسم إلى دول مستقلة. وثانيهما هو أن تلك الدول تقوم على مبدإ المواطنة المتساوية بغض النظر عن الدين وبقية التنوعات. ذلك هو الوضع العالمي الجديد المحكوم بمعاهدات تحرسها قوى عسكرية أممية معروفة (القبعات الزرقاء). ولا وجود لأي شبر في الأرض يندّ عن ذلك النظام. عندما تضيف إلى هذا أمرين آخرين : أولهما أن نظام الجزية وضعه الإسلام لحماية الأقليات وإعفائها من المساهمة في الواجبات الوطنية ذات البعد الديني (الزكاة والجهاد) وضمان إنصهارها في المجتمع الإسلامي وثانيهما هو أن هذا الوضع السائد في جوانب كثيرة منه لا يتعارض مع الإسلام سوى فيما تعلق بوحدة الأمة الإسلامية بدل وضعها الممزق الراهن وأشياء أخرى قليلة .. عندما تجعل كل ذلك ضمن معادلة عقلانية فإنك تفيئ إلى أن نظام الجزية الذي وضعه الإسلام يستبدل اليوم بنظام المواطنة متساوية الحقوق والواجبات حدبا وراء تحقيق المقاصد التي لأجلها فرضت الجزية وليس جمودا على أشكال ـ الجزية شكل إداري ومالي ـ لا تخدم تلك المقاصد.

لا تنس : أدرس سيرة الفاروق السياسية والإدارية والمالية.

86

القرآن الكريم يحذر من السلطان الديني المتغوّل.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؟[التوبة: 34]. لم يتوجه الخطاب إلينا وهو يتحدث عن العالم المسيحي واليهودي؟ هل معنى ذلك أنه يأمرنا بأن ننهى الأحبار والرهبان أن يأكلوا أموال الناس بالباطل؟ لا.

الرسالة هي : حذار أن يتغول فيكم السلطان الديني ليكون قهرا بإسم الدين.

تلك هي الرسالة التي إلتقطها عقلي. وإلا لما إحتاج الخطاب أن يتصدر بالنداء الشهير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾[التوبة: 34]. إلتقطت ذلك بسبب ما يحصل في واقعنا. إذ نشأت فينا سلطات دينية تأكل أموال الناس بالباطل بل تصد عن سبيل الله كذلك. أليس في كل بلد من بلداننا العربية والإسلامية لفيف يكبر ويصغر من المنسوبين إلى الدين يمارسون الشعوذة ويزاولون الكذب والدجل بمقابل مالي ومادي فضلا عما تكنّ لهم العامة من حظوة ومكانة وتقدير؟ في تونس مثلا في سنوات 2005 و2006 ربا عدد « الأطباء » القرآنيين ممن لهم عيادات رسمية معترف بها على عدد الأطباء المتخرجين من كليات الطب. هل هذا وضع إسلامي؟ ربما جفت تلك الظاهرة قليلا ومنذ سنوات وعقود بسبب الهجومات الكاسحة للحداثة والعولمة وبسبب إنتشار الوعي الإسلامي الصحيح وبسبب ثورة الإتصالات .. ولكنها مازالت منتشرة تحت إسم المصحات القرآنية التي تزور على الناس بإسم (الرقية الشرعية). لا أكاد أقوم بخطبة جمعة أو درس حتى أجد من الأسئلة المطروحة ما يتعلق بهذا الأمر. لا أتردد في توجيه السائل إلى الطبيب أولا إذ أن أكثرهم يحدثونك عن آلام بدنية ولكنهم يصرون على أنها آلام بسبب مس جني أو صرع شيطاني أو سحر أو عين. أكثرهم لا يتحرج أن يقول لك مؤكدًا أنه مريض نفسي. مريض نفسي وقبل قليل كان يعالج الدنيا بشطارة ومهارة ومعرفة فهو معلم أو موظف أو عامل. المرض

النفسي كله هو أن تقول بلسانك وتعتقد بمهجتك أنك مريض نفسي. أعرف شابًا يتناول حبوبًا مخدرات بإذن الطبيب النفسي منذ سنوات طويلات بسبب أن الأطباء أعيتهم الحيلة أن يقنعوه أنه ليس محل تتبع أمني. هذا الشاب المسكين بدأ لسانه تثقل حركته والأمر يتطور به إلى ما يشبه الشلل والعياذ بالله بسبب الحبوب المخدرة. ذهب مرات ومرات إلى مخافر الأمن ليعتقلوه بدل أن يجندوا له في إثره من يرصد سكناته وحركاته بالليل والنهار. أقسم له أعوان الأمن أنه ليس محل تتبع وأنه واهم فحسب. وفي كل مرة يعودهم للسبب نفسه. العبد الفقير ظل يحدثه لأيام وأسابيع ثم يئست. أكثر الذين يشكون مسًا جنيًا أو سحرًا على هذا المنوال. المرض النفسي علاجه بيد صاحبه فحسب ولا تكون العوامل الخارجية إلا محركات و مسكنات ودافعات فحسب.

هذه الآية نفسها تلغي الخيار التيوقراطي للمجتمع الإسلامي.

هؤلاء المرضى بالأوهام مائدة خصبة لكثير من المنسوبين إلى الدين ينشرون فيهم تراهاتهم وخزعبلاتهم ودجلهم بإسم الدين نفسه ويثرون بسبب ذلك. ليس هناك شيء إسمه رقية شرعية. هناك رقية وحسب. هل تجد صحابيًا واحدًا جاء إليه عليه السلام وقال له أرقني؟ كل ما في الأمر أنه عليه السلام كان يرقي نفسه ويرقي أهل بيته سيما الأطفال الصغار منهم (السبطين الحسن والحسين) ولا يعد لذلك أي بهرج ولا مجلس ولا بخور ولا ماء ولا وليمة ولا رقص ولا يقرأ من القرآن سوى ما تيسر له في دقائق معدودات من مثل فاتحة الكتاب وآية الكرسي وأواخر البقرة والمعوذات الثلاث الأخيرة وزهاء خمسة أدعية في الشأن له هو نفسه عليه السلام ثم يتفل في راحة يديه ويمسح بهما نفسه أو سبطيه. والصحابة يفعلون ذلك كلما تيسر الأمر وليس يوميا مع أنفسهم ومع أهلهم. ألم يكن جديرًا بكل واحد منهم أن يبني مصحة قرآنية؟ أليس هو وهم أولى بالتداوي بالقرآن؟ أصل القرآن أنه ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾[يونس: 57] وليس لما في الأبدان. أي شفاء للقلوب والأرواح والنفوس أي للجهاز النفسي الروحي الفكري للإنسان. ذاك هو الأصل ولكنه يرقي إستعاذة أي توقيًا وتحصنًا من شر الإنس والجن والنفاثات في العقد والعين والسحر وكل ما يمكن أن يصيبك به الشيطان الذي ليس له

أي سلطان مادي على الإنسان سوى سلطان الوسوسة أي الإغواء والإغراء أو الدجل والكذب والتخويف. المرض النفسي عينًا وسحرًا ومسًا جنيًا وغير ذلك هو كالمرض البدني نفسه أي أنه يتجول في الأرض كما تتجول الجراثيم المادية فإن وجد جهازًا نفسيًا هشًا خوفان بسبب ضعف في الإيمان وقيم التوكل واليقين فإنه يتسلل إليه ويفتك به بمثل ما تفتك الجراثيم المادية بالجسم. وإن ألفى جهازًا نفسيًا قويًا منيعًا متحصنًا بالإيمان والذكر والتوكل واليقين والقرآن علمًا وفقها فإنه يذهب في سبيل حاله. لكم آمل أن ينفعل الناس بهذه الحقيقة ليريحوا أنفسهم من شعوذات وكذبات ودجلات وتراهات وخزعبلات أرهقتهم وطحنتهم ومكنت لشياطين الإنس فيهم وهل شياطين الإنس إلا أولئك (المشايخ والأئمة والعلماء والأولياء) الذين يأكلون أموال الناس بالباطل بإسم الدين والرقية الشرعية وفك السحر وإذهاب العين وبطرق لا أساس لها من الشرع الصحيح؟

ذاك هو الصد عن سبيل الله.

لفيف واسع من المنسوبين إلى الدين يأكلون بالدين صدًا عنه. وأي صد أشد جرما من تحويل وجهة القرآن من ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾[يونس: 57] إلى شفاء لما في الأبدان. أي خرافة أتعس من خرافة تحويل القرآن من مشيد للحضارة والتقدم ولقيم الحرية والكرامة والعدالة إلى (طبيب) مشعوذ في بيت مظلم تغشاه أدخنة البخور. ذلك هو تمسيح الإسلام وتكنيس التدين.

إنما جاء الدين لبناء مجتمعات عادلة ليس فيها رجال دين ولا علماء كذبة دجالون يأكلون أموال الناس بالباطل. إنما جاء الدين لفتح الحريات أمام الناس ليؤمن من شاء وليكفر من شاء وليس للصد عن سبيل الله بإسم الدين من لدن رجال الدين وعلماء الدين. تشيد مثل ذلك في المسيحية واليهودية وتغول ففرض سلطانه على الناس حتى جاءت ثورة أروبا قبل قرون قليلة فهدمت المعبد الكنسي على أهله وتحرر الناس.

الرسالة هي : أيها المؤمنون إياكم أن يحدث فيكم مثل ذلك.

87

الزكاة ترسم صورة الأمة ونظامها الإجتماعي والمالي والقيمي (1)

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: 60].

قراءة تحليلة جامعة لنظام الزكاة في الإسلام.

1. بدئت الآية بأداة الحصر ﴿إِنَّمَا﴾ لنفي تزويد المنافقين بالزكاة إذ ليس المسلمون أخبابًا يكدّون بأيمانهم ليطعم المنافق الذي يعمل على هدم مجتمعهم. وعادة ما يسمي القرآن الزكاة المفروضة صدقة ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ ..﴾[التوبة: 103].
2. لرفعة مكانة المال عند الله سبحانه بحسبانه بعدًا من أبعاد حرية الإنسان وحفظ كرامته أبى الوحي إلا أن ينظم هذا الركن الإقتصادي الكبير ـ الزكاة ـ بنفسه فلا يفوّت فيه حتى لنبي من مثل محمد عليه السلام. هذه حقوق لا بد من ضبطها أن تظل عرضة للتأويلات.
3. الدولة في الإسلام هي التي تجمع الصدقات وتقوم على توزيعها ولا يترك ذلك لمبادرات الناس ضبطا للأمر وحرصًا على حقوق الضعفة وليس إكراها لهم على التدين. ولذلك قامت حروب الردة في اليمامة عندما أبى بعض الناس دفع ما كانوا يدفعونه له عليه السلام فكانت أول حرب في التاريخ تشنّ لأجل حقوق المساكين. الإسلام دين يقدم أبناءه وبناته قرابين تأكلهم الحروب لأجل حقوق الإنسان المالية.
4. ثمانية مصارف معينة بالإسم فلا حق لأحد في حبة قمح منها إلا أن يكون واحدًا منها.
5. بدئ بالمصرف الأكثر شيوعًا في العادة ﴿لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ كما بدئ بالحاجة المتأكدة أي حاجة الأكل والشرب والملبس والمسكن وغير ذلك لأن الأمن الغذائي مقدم.
6. الفرق بين الفقير والمسكين لا يكون عادة منضبطًا والمعول عليه هنا هو أن الفقير عادة

ما لا يعرفه كل الناس عدا رحمه وجيرانه ومن في حكمهم ولذلك بدأ به لأنه عادة ما يكون مختفيا في الناس وهو المعبر عنه في سورة الحج بالقانع أي المحتاج الذي لا يتعرى. المسكين عادة ما يكون عاريا والمعبر عنه هناك بالمعتر. المسكين تأخر عن الفقير لأنه يرى ويعرف بمظهره وربما يمد يده. أما الفرق بينهما مما قال به بعضهم أن الفقير من ليس له طعام عام والمسكين من له طعام يوم فهو كلام مرجوح ووجود هذا في عصرنا نادر.

7. لم نؤمر بإعطائها إليهم صياغة بل أخبرنا ـ أمرًا ـ أن الصدقات هي لهم هم كأنها حقهم هم وفعلا هي حقهم هم لأنها حق الله في مال الله. ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ وليس : أعطوها للفقراء. هي لام الملكية فهي ملكهم هم. كيف لا والزكاة ركن من الأركان الخمسة للإسلام.

8. بعد إشباع الحاجة المادية مباشرة ينصرف النظام إلى تأسيس مؤسسة الزكاة إذ العاملون عليها هم الموظفون الذين تنتدبهم الدولة لأخذ الزكاة من أهلها ثم صرفها إلى أصحابها. سواء كان ذلك الإنتداب موسميًا أو قارًا فهم يشكلون مؤسسة صندوق الزكاة في المجتمع الإسلامي. ويقتطعون حاجتهم ـ أي مرتبهم ـ من تلك الأموال نفسها. لا يعني ذلك سوى أن الإسلام يسعى إلى مأسسة الزكاة أي جعلها ضمن ديوان حكومي له ميزانيته التي منها مرتبات الموظفين في ذلك الديوان. كل ذلك لأن الزكاة منبع دائم وقار ومهم جدًا من منابع المال في الأمة. هذا المصرف يؤكد أن جمع الزكاة وصرفها من مشمولات الدولة وليس متروكا للأفراد إن شاؤوا زكوا وإن شاؤوا لم يزكوا سيما في الحقول التي تدر أموالا طائلة كتجارة الجملة في زماننا وخاصة الذهب والفضة وما تخرجه الأرض والأنعام.

9. ذلك يسمى في علم الإدارة الحديث قانون التفرغ لأجل المصلحة العامة وهو نظام إسلامي إداري خالص عمل به أول خليفة للمسلمين أي الصديق عليه الرضوان إذ لما بويع خليفة خرج من الغد كعادته إلى السوق حدبًا على رزق أهله فإعترضه الفاروق وبعض الصحابة وتجادلوا ثم فرضوا له من بيت المال ـ البنك المركزي للأمة ـ ما يكفيه وأهله في مقابل تفرغه لمسؤوليته الجديدة ثم ظل ذلك قانونًا إسلاميًا إداريًا ماضيًا.

صندوق الزكاة نفسه يفرض هذا القانون إذ يوجب على الدولة تفريغ ما يكفيه من الموظفين. وسائل إدارية ومالية لأجل حفظ حقوق الناس المالية.

10. ومن مقتضيات ذلك أن موظفي ديوان الزكاة في البلاد يتلقون دروات تدريبية خاصة بهم لا تقصر على الجانب العلمي الشرعي في الأنصبة والمصارف وما تشمله وفي منابع الزكاة نفسها من أموال عينية وقيمية وأنعام ومعد للإتجار وما تخرجه الأرض بل يتعدى ذلك إلى ملكة التعامل مع الناس ومعالجة المشكلات ومعرفة النفوس .. يعني أن ديوان الزكاة مؤسسة حكومية كبرى لا تقوم على الجباية فحسب بل تقوم على علم النفس والإجتماع والجغرافيا والإحصائيات وما تقتضيه عملية الزكاة وهو كثير كثير..

11. ثم خرج نظام الزكاة بسرعة إلى غير المسلمين أي المؤلفة قلوبهم. مباشرة بعد الفقراء والمساكين وموظفي ديوان الزكاة يأتي حق الإسلام في التغذي بأناس جدد. ذلك يعني توظيف المال للدعوة والترغيب والهداية وتقريب القلوب التي يظن أنها على وشك الإيمان. ذلك يعني أن المال في الإسلام صاحب وظيفة قيمية فكرية عظمى وليس هو معدودًا مثل مال الأنعام تأكله في بطونها ثم تثلطه ثلطا أو تبعره بعرا لا تلوي على شيء.

88

الزكاة ترسم صورة الأمة ونظامها الإجتماعي والمالي والقيمي (2)

12. ظل التعبير في آية الصدقات (الزكاة) يترى بلام التمليك ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ ثم بالعطف على المساكين وغيرهم حتى إنقلب التعبير عندما جاء إلى (الرقاب) فقال ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾[التوبة: 60]. وليس للرقاب. إذ لا تصرف الزكاة للعبيد لأنهم لا يملكون التصرف فيها بسبب فقد الحرية وإنما تصرف فيهم وليس لهم. أي تصرف لتحريرهم. أي تخصص الدولة ميزانية من أموالها المتأتية من الزكاة المفروضة على

المسلمين لأجل تحرير العبيد الأرقاء. لو لم يرد سوى هذا في الكتاب العزيز لأطمأن الإنسان أن الإسلام دين تحريري جامع. ذلك أن الإنسان المستعبد المسترق لا يكلف بشيء لأنه لا يملك الحرية والإرادة فهو يحرر أولا ثم يملك أمره فإن شاء آمن وإن شاء كفر. جاء التعبير بقوله ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ فلا تقدم رقبة على أخرى فتسوي الرقاب المعدة للتحرير فلا يحرر هذا دون ذاك بسبب لونه أو دينه أو جنسه أو أي إعتبار آخر.

13. طلب مني ذات يوم أحد أصهاري بيانا شافيا حول قضية ملك اليمين في الإسلام إذ يلقى من ذلك عنتًا وحرجًا مع أقرانه ثم ما لبثت أن تلقيت الطلب نفسه من غيره. ملك اليمين الوارد في القرآن وفي السنة معناه الرقيق المستعبد. لما جاء الإسلام وجد المجتمع العربي ـ وغير العربي ـ مركبا من الرقيق رجالا ونساء تركيبًا عجيبًا حتى أضحى الرقيق عملة من العملات الإجتماعية والإقتصادية ومكونًا من مكونات المشهد بمثل الماء والهواء دون أي نكير. هناك أمام الإسلام (وخاصة في الفترة المكية حيث أنه هو نفسه يراد له الإسترقاق من كبراء قريش) إحتمالات ثلاثة فإما أن يغض الطرف عن ذلك الوضع إما بسبب أنه وضع قائم متمكن لا يقوى أحد على فعل شيء فيه أو بسبب أنه لا علاقة لرسالته بالتحرير. وإما أن يدعو ويعمل فورًا وبقوة على إلغائه. الإحتمال الأول ناقض أعظم لرسالته فإن تخلى عن تحرير العبيد ـ بل الإنسان كله ـ فقد قتل نفسه بنفسه. الإحتمال الثاني لا يقدم عليه عاقل إذ الإسلام في تلك الأيام يتسلل إلى القلوب سرا لمدة طويلة وهو محل مطاردة ونفي وتهجير وقتل وتجويع فكيف يدعو نبيه عليه السلام إلى قلب النظام العربي وهو قائم بصورة راسخة على الإسترقاق الذي له أسواق نخاسة وقوانين عرفية والعبيد يومها بالمئين فلا يكاد يخلو بيت واحد من عبد مسترق يخدم العائلة بل ربما كان للأشراف منهم عشرات ومئات. هل هذا وضع يقوى أحد على إلغائه بجرة قلم؟ لو طلب نبي الإسلام ذلك من الناس لإنقلب عليه عمه نفسه الذي ظل يحضنه ودعوته بدافع عصبي. هو يدعو إلى أمر فطري جبلي غريزي أي توحيد الإلهية ورغم ذلك جوبه وحورب فما بالك لو دعاهم إلى قطع أرزاقهم بإلغاء العبيد وقلب نظامهم القبلي الإجتماعي.

كثيرًا ما تؤزنا الحماسة المفرطة رغم صدقها على إقتراف غير المعقول. صحيح أن الحرية هي أم الآمال ورأسمال الإنسان ويموت دونها ولكن الأصح من ذلك هو أن طلبها لا يكون إلا بمقاومة شرسة دونها الموت الزؤام وليس بجرة قلم أو بدعوة من فوق أريكة أثيرة. ذلك هو قانون الله سبحانه ليس هناك شيء يقضى بسرعة بل لا بد من خضوعه لعامل الزمن والتدرج والصبر والمقاومة.

لم يبق إذن إلا إحتمال ثالث أخير أمام الإسلام وهو تنفيذ رسالته التحريرية بخطة هادئة معقولة طويلة الأمد تراعي الواقع الذي يتأبى على الإنقلاب السريع حتى لو كان الإسلام في تلك الأيام قويًا حاكماً فما بالك وهو نفسه يتحمل الضربات الموجعة وشعاره: البلاغ المبين والصبر الجميل. الإحتمال الثالث عنوانه : تجفيف منابع الرق بالتدريج حتى لا يحدث إنقلاب فجئي في المجتمع وكما قال الخليفة الراشد الخامس الكبير عمر إبن عبد العزيز لأبنه المتعجل (أخشى يا بني أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعوه جملة). أحكم الإسلام خطته التحريرية فدعا إلى الحرية ونبذ الصنمية والوثنية وأعلن كرامة الإنسان وأعلى من شأن التقوى وحط من الشؤون العرضية الأخرى من مثل الجنس واللون واللسان والعرق. ثم شجع الأغنياء على تحرير الرقيق وتطوع الأغنياء منهم من مثل أبي بكر وذي النورين وغيرهما. ودعا إلى كسب المال الحلال لفعل الخير وأكبر خير في الإسلام هو تحرير الإنسان. ثم وضع في تشريعاته كفارات لتحرير العبيد وهي عقوبات مخففة لمعاصي يقع فيها كل إنسان من مثل الحنث في اليمين فكان تشريعه حاضا بالضرورة على تحرير العبيد المسترق. ثم كانت النتيجة أن نجحت الخطة التحريرية في غضون سنوات معدودات وحدث الإنقلاب الكبير بهدوء وتدرج فلم يتضرر عبد ولا سيد وتهيأ المجتمع لإستئناف حياة إسلامية حرة لا عبودية فيها إلا للمعبود الحق سبحانه.

تلك هي خطة الإسلام حيال تحرير العبيد وقد ثبت نجاحها فمن إقتنع بها فله ذلك ومن لم يقتنع بها فليرنا شطارته في تحرير أفواج تملأ الأرض اليوم من الناس المسترقين المستعبدين حقا لا فرق بينهم وبين عبيد قريش قبل زهاء خمسة عشر قرنًا.

تحرير العبيد في تلك الأيام هو بمثل تحرير الناس اليوم في معاملاتهم المالية من سرطان الربا. لم تقدر ـ ولن تقدر ـ دولة واحدة اليوم في الدنيا مهما أوتيت من قوة إقتصادية على إلغاء التعامل الربوي سيما بينها وبين عملائها وأكثرهم غربيون أقوياء شرساء بجرة قلم ولا حتى في غضون سنوات معدودات. لم؟ لأن شبكة النشاط الإقتصادي اليوم في الأرض كلها شبكة واحدة أو تكاد تكون كذلك وهي شبكة من هندسة الفلسفة الغربية الربوية والقوي دوما هو الذي يهندس الساحة. ما ذا نفعل؟ هل نتأخر عن المقاومة لأن الربا سرطان عام لا ينجو منه أحد؟ هل نقطع أي علاقة مع غيرنا؟ هو الخيار الثالث دوما أي إستجماع أسباب القوة والوحدة لتجفيف منابع الربا في البلاد أولا بل في حقول صغرى أولا ومع الأيام نتقوى ويكون لنا في السوق سهم وصوت وعندها نبدأ خطة التجفيف.

ذلك هو الفارق المهم بين النظرية والتطبيق. الفارق الذي لا يراه المقاوم إلا عندما يطحن بمسؤولية الدولة وقيادة المجتمع. تحرير الناس من الرق المالي كتحريرهم من الرق البدني كلاهما يحتاج إلى ثورة هادئة طويلة ومتدرجة. أما التشدق فيحسنه كل متشدق.

89

الزكاة ترسم صورة الأمة ونظامها الإجتماعي والمالي والقيمي (3).

14. بعد تحرير الرقاب من مال الزكاة وهو واجب الدولة التي تجبي الصدقات نكون مع المصرف السادس ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾[التوبة: 60].

الغارمون هم المدينون أي الذين أثقلتهم الديون. تتدخل الزكاة لتحريرهم هم أيضًا تحريرًا ماليًا وإقتصاديًا بل تحريرًا نفسيًا لقوله عليه السلام « الدين همّ بالليل وذلّ بالنهار ». تقدم تحرير الرقاب ـ أي التحرير البدني ـ على التحرير المالي لأنه لا معنى لتحرير غارم وهو نفسه رهينة عند سيده. النفس أولى ومقدمة على المال. ستلفى شروطا وضعها بعضهم لهؤلاء الغارمين ولا عبرة بها إذ التقدير الحكومي هنا هو الفيصل ورب

غارم في الحرام تاب الله عليه فتاب فهو بحاجة إلى مسح ماضيه نفسيًا بالتوبة وماليًا بما لحقه من ديون حتى يقوى على بناء صفحة جديدة في حياته الجديدة. قليل من المفتين ممن يراعي المصلحة الدعوية وكرامة الإنسان مطلقًا بغض النظر عن دينه ولونه وسبب ضلاله أو معصيته. الله سبحانه يطلق التعبيرات في كتابه ونحن نقيدها ونخصصها لتكون حكرا علينا نحن فلا يفيد منها غيرنا كأنه ربنا وحدنا أو أن كتابه لنا نحن فحسب أو أنه لا يريد هداية أحد من بعدنا من بعد ما هدانا. كل غارم مدين في حلال أو حرام تقدر الدولة أنه أهل لتحريره من غرمه وفكه من ديونه يشمل هذا السهم (سهم الغارمين). سهم الغارمين هنا شبيه جدًا بسهم المؤلفة قلوبهم. كلاهما يخدم الغرض نفسه أن تمهيد حياة جديدة لتائب جديد سواء كانت توبته من كفر أو من معصية أو فسوق. يمكن أن تكون الدولة كلها في حالة غرم أي في حالة مديونية باهظة شديدة تسبب لها حرجا إقتصاديا وضائقة مالية وعنتا في المحفل الدولي وضرورة لمقايضات مجحفة ومحاصرات تلجئها إلى فقدان شيء من سيادتها وإستقلال قرارها وهنا لا مانع من إنقاذها بهذا السهم لأنه سهم تحريري في الحقل الإقتصادي بل إن إنقاذ الدولة ـ عندما تكون دولة للشعب ـ أولى من إنقاذ غارم واحد أو ألف غارم. إنقاذ الدولة ـ دولة الشعب ـ هو إنقاذ وتحرير للشعب كله. مرة أخرى يحزنك أن تلفى أن جانبا كبيرا من فقهنا دون ـ كما قال ذلك بحق الدكتور عبد المجيد عمر النجار ـ لمعالجة المشكلات الفردية لا الجماعية. ربما كان ذلك مفهوما في أيام خلت كان سلطان الدولة الإسلامية فيها مبثوثا ومحل إعتراف عام أو قبول مشروط في الجملة أما اليوم وقد إنهارت الدولة الجامعة أي السقف السياسي المانع الحامي للأمة بأسرها فإن مدوناتنا الفقهية بحاجة إلى إعادة تحسين وإعادة كتابة وصياغة لملاءمة أوضاع جديدة.

يمكن لهذا الغارم الذي تحرره الزكاة من رقه المالي أن يكون كافرا من المؤلفة قلوبهم فيجمع إليه سهمين : سهم التأليف وسهم فكه من غرمه. لا مانع سيما إذا كان الرجل من العلية أو النخبة الذين تفيد منهم الأمة ويستقوي بهم الإسلام. تلك هي الفلسفة : تسخير المال وتوظيفه لشراء المؤمنين الجدد شراء قيميًا وتحريريًا لا شراءً إرتشائيًا. الإسلام

يقوي نفسه بماله. أي مانع في ذلك. يقوي نفسه بماله لإستقطاب الرؤوس الكبيرة تأليفًا أو تحريرًا ماليًا. عندما يفكر فقهنا بمثل ذلك ننجح في تفعيل مصارف الزكاة ويكون صندوق الزكاة فينا مصرفًا مركزيًا يحفظ قوتنا ويساهم في السياسة الخارجية. ليس هناك قوة عسكرية ولا سياسية اليوم بصفة خاصة ليس وراءها قوة مالية إقتصادية عظمى. ألم يقل عليه السلام « نعم المال الصالح للعبد الصالح ». ونعم المال الصالح للدولة الصالحة والمجتمع الصالح.

أما إذا قصرنا هذا السهم (سهم الغارمين) على الذين أدينوا ماليا بسبب مقاومة فحسب أو جهاد أو عمل صالح فردي .. ألا فنكون حينها دولة طائفية؟ دولة المقاومين فحسب أو دولة المجاهدين فحسب أو دولة الحرس القديم فحسب أي دولة تقدم الرعيل الأول وليذهب الرعيل الثاني والأخير إلى الجحيم المالي.. الطائفية ليست صورة واحدة.

سهم الغارمين مثله مثل الأسهم الأخرى .. لتحرير الإنسان. كل سهم هنا من الأسهم الثمانية يساهم في تحرير الإنسان من مقامه الذي هو فيه.

15. ما معنى سهم ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. وهو السهم السابع أي قبل الأخير.

هذا أوسع سهم من الأسهم الثمانية. كلمة ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هي أوسع تعبير في القرآن الكريم مثلها مثل تعبيرات الخير والمعروف والتقوى. من يحاول قصرها فقد قصر عقله أن يتشوف إلى عناق مساحات علم جديدة. بدأ الفقهاء وأعادوا كثيرا في قصر هذا السهم على الجهاد بصنفيه : جهاد الطلب أي الفتح بالتعبير القديم وجهاد الدفع أي جهاد المقاومة بالتعبير المعاصر. يعذرون في ذلك لأن الوضع غير الوضع. الوضع في تلك الأيام هو وضع جهاد بصوره القديمة دفعًا وطلبًا. في تلك الأيام هناك دولة على عدم شرعيتها الإنتخابية الشعبية ومظاهر الفساد فيها هي تحظى بحد من الإعتراف بحسب نظرية الشوكة والغلبة لصاحبها الجويني عليه الرحمة. اليوم تغير الوضع ومع تغيره تغير الجهاد نفسه فلم نعد لا بحاجة إلى جهاد فتح ولا حتى قادرين عليه. نحن اليوم نفتح ولا نفتح. نغزى ولا نغزو. نتأثر ولا نؤثر إلا قليلا.

لذلك يجب إعادة فهم هذا السهم ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. دعنا مع الجهاد لنكون منسجمين مع الفقه القديم الذي حصر ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على الجهاد. أليست لنا أرض محتلة؟ أليست هي الأرض المباركة؟ لم لا تصرف إليها الزكاة في هذا السهم السابع؟ لم يكون ذلك خلسة وتطوعا وقد لا يأمن المزكي على ماله أن يساهم في تحرير فلسطين المحتلة؟ لا حاجة لنا بتوسع كبير ـ على جلالة قدره والحاجة إليه ـ في هذا المصرف ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مادامت لنا أرض محتلة. أرأيت كيف أن الوضع تبدل وتغير بسبب سقوط السقف السياسي الواحد الذي كان يظللنا على ما فيه من هنات وهنات؟

مقاومة الإرهاب اليوم ـ إرهاب داعش والقاعدة وغيرهما ـ هو من صميم هذا السهم ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. لأنه جهاد دفع أي جهاد مقاومة. دعنا في المقاومات العسكرية الأمنية فحسب حتى لا نتهم بتوسيع دائرة هذا السهم وأرضنا محتلة وبلادنا مهددة أمنيًا وعسكريًا.

90

الزكاة ترسم صورة الأمة ونظامها الإجتماعي والمالي والقيمي (4)

16. كلمة أخرى حول مصرف ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. هذا أوسع سهم وأوسع مصرف. أجل لا بد من إعتبار إتجاهه التحريري مثله مثل بقية إخوانه من المصارف والأسهم. هو مصرف يحرر الأوطان أولا من نير الإحتلال العسكري المباشر. سوى أن الإحتلال العسكري المباشر اليوم لا يكاد يكون إلا في فلسطين المحتلة وهي قضية الإسلام الأولى اليوم وقضية الأمة الأولى. كل تغافل عنها لا يخدم إلا أعداء الأمة. هذا المصرف يخصها اليوم بالمقام الأول. مصرف ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لطابعه الجهادي التحريري يخص جهاد الدفع أي المقاومة في المقام الأول إذ أن درأ المفاسد في الشريعة أولى من جلب المصالح. الفتح مصلحة والإحتلال مفسدة. لذا أعتقد أن

الأمة كلها آثمة ـ بقدر تهاون كل واحد منا ولكن بقدر مكان وقدرة كل واحد منا ـ ما لم تصرف الزكاة في جزء منها (هو الثمن على الأقل) لتحرير فلسطين. نشأت فينا كلمة جاهلية إنحطاطية إسمها (فلسطين للفلسطينيين). أصل هذه القيمة الهابطة مؤتمر الجزائر في سبعينيات القرن الميلادي المنصرم لأجل تفتيت ما بقي من توحد عربي حول قضية فلسطين. وعندما تتحرر فلسطين ويغرب عنا الإحتلال العسكري المباشر نقاوم بالزكاة إحتلالات أخرى معروفة بل هي الأقسى من مثل الإحتلال المالي والإقتصادي والسياسي والإستراتيجي والفكري وغيرها من الإحتلالات المعاصرة الذكية المسماة (Neocolonialisme).

على أن هذا المصرف (سهم في سبيل الله) من بعد تلك الأولوية الجهادية ـ مع تقديم جهاد المقاومة لتحرير الأرض المحتلة أولا ـ لا يحبس هناك بل ينداح ليشمل كل عمل في سبيل الله سبحانه مما لا تأتي عليه المصارف السبعة الأخرى. بناء المساجد مثلا. الصرف على التعليم والبحث العلمي ومحو الأمية وإنكاح العزب وتعمير البلاد بالبنيات التحتية المتينة لفتح آفاق طموحة وسريعة وآمنة أمام الحركة الإقتصادية وغير ذلك مما لا يأتي على حصر. كله في سبيل الله سبحانه مادام يحتفظ بمعيار خدمة الإنسان في مرفقه الدنيوي أو الآخروي فردًا وجماعة. الأفراد لهم مصارف تقدمت بنا من مثل ﴿لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾. الشعوب والمجتمعات لها هذا المصرف العام.

قصر دلالة ﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ على عمل أخروي فحسب أو عمل فردي فحسب أو عمل ديني فحسب .. ذلك تضييق لواسع. كل عمل فكري أو عضوي فردي أو جماعي أهلي أو حكومي يضم إليه شرطي الإخلاص وتحرير الإنسان من أي ضرب من ضروب الإسترقاق والإستعباد مادة أو معنى هو في سبيل الله.

بكلمة واحدة : في سبيل الله تعني في سبيل تحرير الإنسان. إذ لا يريد سبحانه للإنسان سوى أن يتحرر أولا ثم يعرض عليه الدين فإن قبله فهو المؤمن وإن رفضه فهو حر مكرم بيننا لا يؤذى بل يدعى بالحكمة واللين وحسابه على ربه يوم القيامة.

17. وآخر مصرف هو سهم ﴿وَابْنِ السَّبِيلِ﴾. هو المصرف الثامن الأخير. إبن السبيل

هو كل آدمي ـ مهما يكن دينه ولونه وعرقه ولسانه ـ إغترب عن موطنه وأصله لأي سبب إلا سبب العدوان طبعًا أو الجوسسة فهو في حاجة إلى ما يحرره من الجوع أو العطش أو الخوف أو العراء أو الجهل أو الوحدة (أي الفردية بالتعبير القرآني ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ [الأنبياء: 89]). ومهما يكن غناه ويسره في موطنه الأصلي إذ العبرة بالحال. ما يغني عنه أنه موسر في بلده وهو الآن جائع؟ إبن السبيل كان في الماضي وضعا مشهودًا بسبب وسائل النقل وبعد المسافات وغير ذلك. لذلك إهتم به التشريع. اليوم ينقرض هذا السهم ولذلك أخر في آخر حلقة من الحلقات الثماني للزكاة. إبن السبيل اليوم بمعناه الفردي البائس نادر الوجود مع تقدم ثورة الإتصالات. ولكن نعايش إبن سبيل آخر من مثل هجرة السوريين المشردين في أنحاء الأرض وغيرهم. كفالة السوريين المشردين في الأرض اليوم من الزكاة فريضة مفروضة على الأمة.

خلاصة.

1. لأن الإسلام رسالة تحريرية جامعة فهو يفرض على أتباعه ضريبة تعبدية يصرفها على تحرير الإنسان بدءًا بتحريره من الخصاصة المادية ﴿ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ ومرورًا بالتحرير من الرق البدني المباشر ومن الرق المالي أي المديونية التي هي ذل وهم ﴿ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ ﴾ وإنتهاء بتحريره من الإحتلال سواء العسكري المباشر أو الإحتلال غير المباشر أي تحرير بلاده وأوطانه ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ وكذا تحريره من حالات الخوف الخاصة الإستثنائية التي تطرأ لكل إنسان مرة أو مرات في حياته ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾. الإسلام يخصص جزءا من ميزانيته لتحرير الإنسان بغض النظر عن دينه ولونه وعرقه ولسانه.

2. لا يقصر الإسلام مشروعه التحريري على الوعظ والإرشاد ولا حتى على التحريض والحث لتخصيص تلك الضريبة المالية التعبدية بل ينظم دولة تنظيمًا مؤسساتيًا حكوميًا وينشئ لذلك صندوقًا خاصًا بالزكاة سماه ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ أي أن الزكاة حق الله أي حق أهلها المذكورين هنا في مصارف ثمانية ولذا تشيد لها الأمة عبر دولتها

المنتخبة مؤسسة وطنية عامة راسخة بسبب أن تلك المؤسسة تصرف على نفسها من مال الزكاة الذي تجبيه وبذلك تترسخ أقدامها وتصبح مؤسسة وطنية مستقلة إستقلالا وظيفيًا يمكنها من التفرغ لتحرير الإنسان وفق ترتيبات آية الصدقات. ذلك هو الذي جعل الصديق في عملية إجماعية كبرى من لدن الأصحاب يشن الحرب على مانعي الزكاة في اليمامة ويزج بخيرة الرجال في النار دفاعا عن حق الفقراء والمساكين والمؤلفة قلوبهم والغارمين والعبيد وإبن السبيل.

3. ولا تقتصر رسالة الإسلام التحريرية على الجانب المالي المادي الإقتصادي على أهميته بل يخصص جانبًا من صندوقه لهداية غير المسلمين ممن بدت عليهم علامات ذلك أي المؤلفة قلوبهم وفي العملية تقديرات إجتهادية واسعة ومعاصرة لو كانت لنا دولة تفكر. تلك هي وظيفة المال في الإسلام : وظيفة تحريرية مادية ومعنوية معًا وهي وظيفة مؤسسة تأسيسًا حكوميًا يضمن حق التفرغ للعاملين فيها.

91

من هو الله؟ (1)

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف: 180]. جاء في الحديث الصحيح « إن لله تسعًا وتسعين إسمًا مائة إلا واحدًا من حفظها ـ وفي رواية من أحصاها ـ دخل الجنة ». في الصحيحين عن أبي هريرة. كما جاء في أحاديث أخرى بعضها صحيح الإسناد أن من بينها الإسم الأعظم الذي إذا دعي به سبحانه أجاب وإذا سئل به أعطي.

هذا عمل قمت به بنفسي إستقراء لأسمائه سبحانه في الكتاب العزيز. جمعتها ورتبتها ولي فيها قراءة تفضي إلى خلاصات. الأرقام الواردة قد يشوبها الخطأ اليسير فيما لا يتجاوز بحوله سبحانه في كل رقم مثبت عدد أصابع اليد الواحدة إذ لا يأمن الإنسان على نفسه الخطأ اليسير.

قرأت منذ سنوات لأحد العلماء أن الأسماء الحسنى المثبتة اليوم عندنا في لوحات ومعلقات وغيرها لم تكن جزءًا من الحديث آنف الذكر إذ أخبرنا عليه السلام عن عدد أسمائه (مائة إلا واحدًا) ولم يخبرنا عن الأسماء نفسها إنما المثبت عندنا إجتهاد من بعض الأئمة السابقين منهم الإمام السيوطي.

كان الباعث على (من هو الله؟) ضمن هذه السلسلة ﴿ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ قديمًا إذ كلما قرأت القرآن الكريم ألفيت أنه يتحدث عن الله سبحانه كثيرًا جدًا فأيقنت أن رأس العلم هو معرفة الله سبحانه معرفة صحيحة جامعة فلا يعبد بحق ـ ولا يحب ولا يخشى ـ سوى من إستوت معرفته في القلب وترسخت في الفؤاد. ومرة أخرى أقول ـ بمثل ما قلت في شأن محمد عليه السلام ـ أن معرفتنا به سبحانه ليست على ما يرام فهي باهتة شاحبة عند بعضنا أو هي منقوصة مبتورة عند بعضنا الآخر بل ربما تكون مغلوطة مقلوبة عند صنف ثالث منا. أسماؤه وأفعاله وصفاته المثبتة في الكتاب العزيز كفيلة بمنحنا أقرب تصور عنه سبحانه.

لعل هذه الحلقات المتتابعة من هذه السلسلة تساهم في تصحيح التصور عنه سبحانه إذ هي تنشد الجماع لا الإبتسار والإستقراء لا التلقين.

إحصائيات بعضها دقيق وبعضها الآخر قريب جدًا من الدقة.

1. الإسم العلم المفرد له سبحانه هو (الله) ورد 2697 مرة.وليس لهذا الإسم ترجمات أخرى من مثل ما يرد في اللغات الإنجليزية والألمانية وغيرها Gott فهي تعني الرب.
2. أكثر أسمائه ـ ولم ترد كلمة الصفة لا في القرآن ولا في الحديث وإنما وردت على ألسنة المتكلمين الذين خاضوا معركة الكلام المعروفة تمييزًا بين الذات والصفات ـ ورودا هو (العليم أو عليم). ورد 135 مرة. يليه (الحكيم أو حكيم 89 مرة) ثم (الغفور أو غفور 88 مرة) ثم (العزيز أو عزيز 87 مرة) ثم (رحيم أو الرحيم 83 مرة) ثم الرحمان 49 مرة) ثم (قدير 44 مرة) ثم (سميع أو السميع 41 مرة) ثم (خبير أو الخبير 38 مرة). تلك هي الأسماء التسعة ـ عدا الإسم العلم المفرد ـ التي إحتلت المراتب الأولى من الأسماء المفردة. المرتبة العاشرة لإسم مركب هو (رب العالمين 35 مرة).

3. جمعت من الأسماء المفردة زهاء 83 إسمًا أما من الأسماء المركبة فزهاء 40 إسمًا. ولي معها عند الإستقراء عودة بحوله سبحانه.

4. لما جئت إلى فرزها وترتيبها بحسب الموضوع أو بحسب الصفة ألفيت ما يلي :

أ. أسماء القوة والقدرة والعزة والعظمة والغنى والعلو والكبر وما يدخل تحتها تحتل المرتبة الأولى بزهاء 320 إسمًا وسيأتي تفصيلها بحوله سبحانه. الإسم المركزي لهذا المحور ـ محور أسماء القوة ـ هو (العزيز الوارد 87 مرة).

ب. أسماء الرحمة وما يدخل تحتها من أسماء المغفرة والحلم وغيرها تحتل المرتبة الثانية بزهاء 291 إسمًا وسيأتي تفصيلها لاحقا عند الإستقراء. الإسم المركزي لهذا المحور ـ محور أسماء الرحمة والمغفرة ـ هو (الغفور الوارد 88 مرة والرحيم الوارد 83 مرة).

ج. أسماء العلم وما يقتضيه بالضرورة من سمع وبصر وخبرة وشهادة ورقابة تحتل المرتبة الثالثة بزهاء 270 إسمًا. الإسم المركزي لهذا المحور ـ محور أسماء العلم ـ هو (العليم الوارد 135 مرة).

د. أسماء الحكمة وتكاد تقتصر على إسم أو صفة (حكيم أو الحكيم) تحتل المرتبة الرابعة بزهاء 90 إسمًا. الإسم المركزي لهذا المحور ـ محور أسماء الحكمة ـ هو (الحكيم الوارد 89 مرة).

هـ. أسماء الحمد المنحصرة في إسم (الحميد أو حميد) الوارد 18 مرة. ربما يستقل هذا المحور بنفسه وربما ينصرف إلى محور آخر سابق يغذيه ويقويه. هو حميد سبحانه لأن الكون الذي ذرأه يحمده طوعًا وكرهًا. علام يحمده؟ إن قلت يحمده على قوته فهو محمود على قوته وعزته وإن قلت هو محمود على رحمته ورأفته وحلمه فهو ذاك وإن قلت هو محمود على علمه فكلامك صحيح وإن قلت هو محمود على حكمته فالأمر كذلك. هو محمود من لدن كونه وخلقه على كل ذلك. الإسم المركزي هنا هو الحميد 18 مرة.

92

من هو الله؟ (2)

الأسماء المركبة.

أكثر الأسماء المركبة ورودًا هي (رب العالمين 35 مرة) ثم (لاإله إلا هو أو لا إله إلا الله إلخ .. 29 مرة) ثم (عالم الغيب والشهادة 7 مرات) ثم (رب العرش العظيم أو الكريم 6 مرات) ثم (أرحم الراحمين 5 مرات) ثم (ذو إنتقام 4 مرات) ثم (علام الغيوب 4 مرات) ثم (شديد العقاب 4 مرات) ثم (خير الرازقين 3 مرات) ثم (خير الحاكمين 3 مرات)...

من الأسماء المركبة الأخرى : واسع المغفرة ـ أهل المغفرة ـ ذو مغفرة ـ خير الغافرين ـ ذو رحمة ـ خير الراحمين ـ سريع الحساب ـ قابل التوب ـ رفيع الدرجات ـ ذو القوة ـ ذو الفضل ـ ذو الطول ـ ذو العرش ـ ذو عقاب ـ ذو الجلال والإكرام ـ رب العزة ـ رب الناس ـ رب الفلق ـ ملك الناس ـ إله الناس ـ خير الماكرين ـ خير الفاتحين ـ خير حافظا ـ خير الوارثين ـ أحسن الخالقين ـ أحكم الحاكمين ـ شديد المحال ـ نور السماوات والأرض ـ رب المشرق ـ رب المشرقين ـ رب المشارق ـ مالك يوم الدين ـ مالك الملك ـ أهل التقوى ـ عدو للكافرين ...

كما ترد بعض أسمائه أحيانًا بصيغة الجمع مثل : نعم المجيبون ـ حاسبين ـ حافظين ـ ...

أسماء أخرى مركبة بصيغة الملكية (له أو إليه أو بيده).

الحمد لله الواردة 8 مرات ـ الحمد لله رب العالمين الواردة 5 مرات ـ

له الأسماء الحسنى ـ له الحمد ـ له الشفاعة جميعا ـ له مقاليد السموات والأرض ـ له الحكم ـ له المثل الأعلى ـ له الكبرياء ـ له ما في السموات والأرض ـ إليه المصير ـ بيده الملك ـ .

أفعاله لا تكاد تحصى.

فهو يهدي ويضل ويعفو ويحيي ويميت ويقبل التوبة ويمنّ ويهب ويعز ويذل ويبسط ويخفض ويرفع ويقدر ويولج ويخلق وينشئ ويستوي ويسوي ويريد ويفعل ويحب ويجعل ويعلم إلخ ..كما يصف نفسه بـ﴿ تَبَارَكَ ﴾[الفرقان: 1]ـ. ومن أفعاله إشتق السيوطي وغيره بعض الأسماء والصفات إشتقاقا وسيأتي بحث هذا في سياق لاحق بحوله سبحانه.

أسماء خاصة به سبحانه.

من أجود من كتب في أسمائه سبحانه الإمام الغزالي في رسالة قصيرة مفيدة قائلا أنها للتمثل من لدنّا قدر الإمكان سوى ما إختص به سبحانه. مما إختص به سبحانه من الأسماء والصفات المفردة غير المركبة : الرحمان ـ المتكبر ـ الإله ـ المتعال ـ القدوس ـ الأحد ـ الصمد. ومن الأسماء المركبة كثير منها : عالم الغيب والشهادة ـ أرحم الراحمين ـ خير الراحمين ـ رب العالمين ـ ذو العرش ـ ذو الفضل العظيم ـ رب العرش ـ رب العزة ـ رب الناس ـ ملك الناس ـ إله الناس ـ رب الفلق ـ خير الرازقين ـ خير الحاكمين ـ أحسن الخالقين ـ أحكم الحاكمين ـ علام الغيوب ـ نور السماوات ـ رب المشرق ـ ذو الجلال والإكرام ـ مالك الملك وقد نهى عليه السلام أن يتسمى الإنسان بملك الملوك لأن ملك الملوك هو الله.

التسمية بين العبودية وبين الإلهية.

ينشأ الخلاف دومًا بين الناس حول هذا الموضوع. عندما تتحدد الأسماء الخاصة به وحده سبحانه مفردة ومركبة بمثل ما أنف ذكره فإن بقية الأسماء لا حرج أن يتسمى بها الإنسان حتى دون تعبيد لفظي لله سبحانه. من ذلك إسم عليّ. فهو ﴿عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: 51] سبحانه. ولو كان التسمي بإسم (عليّ) مفردا نكرة غير منسوب إليه (عبد العلي) منكورًا لما تردد عليه السلام في تغيير إسم إبن عمه علي إبن أبي طالب سيما أن له عليه سلطان الولاية الأسرية وسلطان الإسلام وهو الذي منعه ـ منع تخيير لا حرمة فيه ـ من الجمع على فاطمة ببنت أبي جهل. من فعل هذه لا يضيره أن يفعل الأخرى وهي أعظم وأولى. ومن ذلك كذلك إسم (الهادي) حتى لو وردت معرفة غير منسوبة إليه سبحانه بإضافة (عبد الهادي). العلو أولى بالمنع من الهداية لو كان فيهما ما ينكر. لقد

سمى نبيه محمدًا عليه السلام بـ(رؤوف رحيم). وهو دليل على أنه للإنسان أن يتسمى أو يسمى بهما دون إضافة نسبة إليه سبحانه (عبد الرؤوف أو عبد الرحيم) إلا أن تعريفهما (الرؤوف الرحيم) غير مناسب لأن الإستغراق هنا أولى به الله سبحانه. إسم الرب مثلا تطلقه العرب على مالك الشيء ومدبره دون نكير منه عليه السلام. بل ورد ذلك صحيحًا صريحًا في الكتاب العزيز حديثًا عن رب صاحب يوسف عليه السلام ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾[يوسف: 42]. كل ذلك مشروط بعدم التعريف والإستغراق (الرب). ألا تجد أن من أسمائه سبحانه (المولى) في قوله مثلا ﴿ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[محمد: 11]. و﴿هُوَ مَوۡلَىٰنَاۖ﴾[التوبة: 51]. والعرب تسمي العبد المحرر مولى ويقول الناس بحضرته عن زيد أنه مولاه. إشترك العبد مع الله سبحانه في الإسم ولم يكن في ذلك أي ضير ضمن مناخ معلوم وتحت سقف معروف. وكذلك إسم (الوالي) ينطبق عليه ما إنطبق على إسم (الرب) وعلى إسم (مولى) مع تجنب الأسماء ذات الصيغ المبالغة من مثل (الخلاق) و(الرزاق). وقد نسب سبحانه فعل الخلق في كتابه إلى غيره ولكن بصيغة سلبية ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ﴾ [العنكبوت: 17]. عاب عليهم الإفك وليس الخلق ولكن لكثرته وفرطه الآثم وصفه بالخلق وهو مجرد فعل. وكذا لا تجتمع للعبد أسماء متسلسلة تشبهًا به سبحانه كمن يسمى نفسه أو يسمى ﴿ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾[الحديد: 3]. أو ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾[الحديد: 3]. إلخ..

93

من هو الله؟ (3)

يمكن ترتيب أسمائه الواردة في الكتاب العزيز سبحانه ضمن 4 محاور كبرى وهي :

1. **أسماء العزة وملحقاتها بزهاء 320 مرة ورودًا.**

لا بد لهذا المحور أن يتخذ له عنوان العزة لأن إسم ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾[الحديد: 1]. هو الإسم المركزي فيه بـ87 مرة. فهو العزيز سبحانه القدير ـ التي عادة ما ترد بصيغة : على كل شيء قدير ـ الورادة 44 مرة. وهو الغني الواردة 17 مرة. وهو الواسع 8 مرات. وهو القوي 9 مرات وهو العظيم 9 مرات كذلك. وهو العلي 8 مرات وهو الكبير 6 مرات وهو

القهار ـ أو الواحد القهار أحيانًا ـ 6 مرات كذلك وهو المحيط 4 مرات. ومن لوازم العزة الحياة والقيومية بالضرورة فهو الحي القيوم 8 مرات بينهما. ومن لوازم العزة أسماء مركبة فهو رب العالمين سبحانه 40 مرة وهو الذي لاإله إلاهو 29 مرة. وهو الملك 4 مرات وهو مالك الملك وهو الأعلى المتعال وهو المهيمن المتكبر الوارث القاهر الخالق الخلاق الباري المصور البديع الفاطر الحافظ القادر المقتدر. ليكون مجموع أسمائه ضمن محور العزة زهاء 320 إسمًا بإعتبار الأسماء المركبة الدالة على العزة والقوة والربوبية الواردة في حلقة سالفة وكذلك بإعتبار أنه نصير (7 مرات) و(وكيل 12 مرة) و (ولي 9 مرات) وكلها أمارات قوة تلحق بهذا المحور.

2. **أسماء الرحمة والمغفرة وملحقاتهما بزهاء 291 مرة ورودًا.**

أنسب إسم لهذا المحور هو (المغفرة) فهو الإسم المركزي الوارد 88 مرة. وهو رحيم 83 مرة ورحمان 49 مرة.وحليم 11 مرة وتواب 10 مرات وروؤف 7 مرات وعفو 6 مرات واللطيف 6 مرات كذلك وأرحم الراحمين 5 مرات وغفار 4 مرات وغافر مرة واحدة. وهو ذو الرحمة وذو المغفرة وواسع المغفرة وأهل المغفرة وخير الراحمين وخير الغافرين وهو (شكور 4 مرات) و(شاكر مرتان) و(قريب 3 مرات) وهو مجيب وشفيع وكريم وودود والسلام والأكرم وكلها أسماء وصفات تلحق بمحور المغفرة والرحمة والحلم ليكون رصيد هذا المحور زهاء 291 مرة ورودًا.

3. **أسماء العلم والخبرة وملحقاتهما بزهاء 264 مرة ورودًا.**

فهو العليم بأعلى درجة ورودًا كما تقدم طرا مطلقًا (135 مرة) وهو السميع 41 مرة وهو البصير 29 مرة وهو الخبير 38 مرة وهو الشهيد 12 مرة وهو عالم الغيب 7 مرات والرقيب مرتان.

4. أسماء الحكمة وهي مختصرة في إسم (الحكيم 89 مرة).

خلاصات وإستقراءات.

1. أوسع أسمائه سبحانه إنبثاثا في الكتاب العزيز هي أسماء العزة والقوة وما يدخل

تحتهما أي بزهاء 320 موضعا ثم تليها أسماء المغفرة والرحمة والحلم بزهاء 291 موضعا ثم تليها أسماء العلم والخبرة بزهاء 264 موضعًا ثم أسماء الحكمة بزهاء 89 موضعًا. وبذا تكون المواضع زهاء 964 موضعا دون إعتبار إسمه العلم المفرد الله 2697 موضعًا.

2. فهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين العزيز الغفور العليم الحكيم. عزيز عزة قوة وملك وغنى فلا يعجزه شيء وهو على كل شيء قدير. وغفور رحمان يبسط عفوه فلا ييأس من فضله يائس. وعليم خبير سميع بصير يعلم الغيب والشهادة فلا يندّ عنه شيء. وهو الحكيم الذي يضع كل شيء في أوانه وكل أمر في ميزانه.

3. **رسالة عزته إلينا هي** : كل شيء بقبضتي وحولي فلا وكيل دوني ومن أراد القوة فأنا مصدرها الأول. رسالة مغفرته إلينا هي : لا يأس ولا قنوط من رحمتي سيما لمن لقيني لا يشرك بي شيئًا. رسالة علمه وخبرته إلينا هي : لا يغيب عني شيء أعلم حتى خائنة الأعين وما تخفي الصدور ولا يعلم الغيب الذي يخشاه الناس سواي. رسالة حكمته إلينا هي : الرضى بقضائي ومشيئتي هي الحكمة.

4. هذا الترتيب منطقي جدًا بحساب الإلهية إذ لا يكون إلهًا واحدا أوحد يعبده الناس إلا عندما يكون متصفًا أكثر شيء بالعلم ثم بالحكمة ثم بالمغفرة ثم بالعزة. تلك هي أكبر أسماء الإله الجدير بالعبادة والتأليه. تأخرت المغفرة عن العزة والقوة لأن من شرط الغفور أن يملك القدرة الكافية للرحمة والمغفرة. كما تأخرت الخبرة لأنها فرع من العزة والقوة فلا يكون عليمًا خبيرًا حتى يكون عزيزًا قويًا متينًا. أي ترتبت أسماؤه عددًا ومحاور ترتيبًا منطقيًا بحساب علاقة الخالق مع المخلوق والصانع مع المصنوع والرازق مع المرزوق والمالك مع المملوك أي بحساب علاقة العابد مع المعبود.

5. أكثر أسمائه مفردة لا مركبة أي مباشرة غير مضافة فهو غفور بأكثر مما هو ذو مغفرة و رحيم ورحمان بأكثر مما هو ذو رحمة أو أرحم الراحمين أو خير الراحمين.

6. أسماء الرحمة لا تقارن عددًا بأضدادها. فلم يرد سوى مرة واحدة أنه المتكبر ومرة واحدة أن له الكبرياء ومرة واحدة أنه منتقم ﴿ مُنتَقِمُونَ ﴾. و4 مرات فحسب أنه ذو إنتقام.

7. من جملة 6236 آية قرآنية زهاء 3661 منها تعرفنا بالله سبحانه. الرسالة هي : من أحسن معرفة ربه أنه (بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير وهو الغفور الرحيم وهو الحكيم) آمن بعقله وأسلم بجارحته طوعا لا كرها فإن إستغنى فهو لا يتكبر وإن ضعف فهو لا ييأس. من عرف ربه بمثل ما قدم نفسه سبحانه بنى شخصية بشرية سوية قويمة معتدلة. من عرف ربه عرف دينه ورسالته وعرف نفسه والإنسان من حوله وأعطى كل ذي حق حقه. تلك هي رسالة أسمائه الحسنى المبثوثة بنسبة 60 بالمائة في كتابه العزيز.

94

من هو الله؟ (4)

مما يمكن لك ملاحظته بيسر كذلك أن أكثر أسمائه سبحانه وردت بصيغة المبالغة سواء على وزن فعيل (عليم ـ رحيم ـ حكيم ـ حليم ـ كريم إلخ ..). أو على وزن فعول (غفور ـ شكور ـ) أو على وزن فعلان (رحمان) أو على وزن فعال (تواب ـ غفار ـ) إلخ..

ما معنى حفظ أسمائه أو إحصاؤها.

قال رسول الله عليه السلام: « لله تسعًا وتسعين إسما من حفظها ـ أو أحصاها ـ دخل الجنة ». إذا كانت رواية (أحصاها) فإن الإحصاء غير العد. عد الشيء أي عرف حجمه سواء كان موزونًا أو مكيلا. هي معرفة ظاهرية سطحية كمن يعرف كم تلميذًا في القسم أو كم عدد الإبل في المرعى. الإحصاء هو تجاوز العد الكمي إلى حقيقة المعدود. قال تعالى ﴿ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾[مريم: 94]. وهو يتحدث عمن في السماوات ومن في الأرض. لو كان المقصود عدهم فحسب لما إحتاج إلى قوله ﴿ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ ﴾. كما قال

﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾[الجن: 28]. ولا يمكن إحصاء كل شيء في الكون عددًا إلا من بعد علم محيط دقيق جامع وهذا لا يتأتى إلا له وحده سبحانه. العد إذن عملية كمية والإحصاء عملية كيفية. العد إحصاء ظاهري والإحصاء عد جامع لا يند عنه شيء. الإحصاء من الحصى أي النفاذ إلى الدقائق والصغائر والرقائق. إحصاء أسمائه إذن سبحانه يعني : العلم بها وفقهها لأجل حسن معرفة الله سبحانه ومن ثم يكون تعظيمه وتقديره وتقديسه وتنزيهه وكذلك لأجل تمثل ما يمكن تمثله منها كصفة الرحمة أو العلم. ولا يعني إحصاؤها عدها كما تعد مائة قطعة أو حبة ولا يعني كذلك إستحضارها باللسان. أما إذا كانت الرواية (حفظها) فإن الحفظ كلمة نسخ العرب المتأخرون معناها. الحفظ لغة يعني القيام على الشيء قياما يصونه ويحميه. قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[الحجر: 9]. الحفظ عندنا نحن اليوم يعني الوعي أي جمع الشيء أو الأمر في وعاء حتى إذا حانت ساعة إستحضاره مجته ألسنتنا كما يمج إبريق ماءه المندلق المهراق. لما قال عليه السلام للفضل « إحفظ الله يحفظك » هل كان يعني حفظ كلمة الله؟ كيف يحفظ المرء الله؟ أي يحفظ ذكره في صدره بما يجعله دومًا فيه قويًا عظيمًا مهابًا. هو حفظ معنوي إذن وليس حفظًا وعائيًا ماديًا. حفظ أسمائه إذن يعني حسن فهمها لتكون كنزًا يذخر الصدور ويعمر الحياة وليس إستحضارًا آليًا كما تفعل الآلات المسجلة.

فمن تكبر مثلا فما حفظ أسماءه سبحانه لأن التكبر صفة خاصة به وحده سبحانه. ومن تسمى بملك الملوك ما أحصى أسماءه. ومن نزعت الرحمة من صدره ما أحصى له إسما ولا حفظ. ومن أشرك به شيئًا فما أحصى ولا حفظ إسم الله أو القدوس. إلخ...

الإسم الأعظم.

عبثًا يحاول الناس تثبيت ما أراده سبحانه متحولا لأجل الإبتلاء. أخفى علينا سبحانه أمورًا ثلاثة هي : إسمه الأعظم وليلة القدر وساعة الإجابة في يوم الجمعة. لم؟ لأجل الإبتلاء بالكدح والسعي والإجتهاد وهو الطريق الوحيد للظفر بالمستور. فلو بين لنا ذلك بيانًا مدققًا منضبطًا لم يكن للإمتحان أي طعم ولا نكهة. ما تعد معلمًا أو أستاذًا يخبر تلاميذه أو طلبته بالأسئلة وأجوبتها قبل موعد الإمتحان؟ أليس يعبث بهم وبمستقبلهم؟ ولذلك يعد الجدل

حول هذه الأمور المستورة لأجل الإبتلاء وإمضاء السعي والتنافس جدلا فارغًا ينشغل به البطالون. أما العاملون فإنهم يجتهدون في رمضان وأواخره العشر ليظفروا بليلة القدر وكذا يفعلون مع يوم الجمعة أملا في الظفر بساعة الإجابة ومع الإسم الأعظم.

الإسم الأعظم - رغم ورود أحاديث لم تصل درجة الصحة فيه - هو مثبت ضمن الأسماء التسعة والتسعين فمن داوم على سؤاله سبحانه بكل أسمائه على مدار الأيام يظفر بالإسم الأعظم حتما بحوله سبحانه. ومن ظل يزعم الإيمان وهو يزاول الكهانة متى تكون ليلة القدر وساعة الإجابة والإسم الأعظم فإنه لن يظفر بشيء من ذلك لأنه خالف السنة التي أرادها سبحانه أي سنة العمل الدائم الدؤوب الذي يفضي إلى الظفر بالمطلوب.

نظرة في الأسماء المنسوبة إليه سبحانه.

ثابت أن حديث الأسماء التسعة والتسعين لم يعين منها إسمًا واحدًا وإنما إجتهد أئمة من مثل السيوطي فأخرجوا تلك القائمة المعروفة عندنا اليوم. هو إجتهاد بشري فيه الصواب وفيه الخطأ. بل هو إجتهاد متأخر زمانيًا. لم لم ينشغل الأصحاب بها ولم يسألوا عنها سؤالا واحدًا والتابعون من بعدهم؟ ألفوا أسماءه سبحانه مبثوثة في الكتاب العزيز فحفظوها في صدورهم وتمثلوها وأحصوها في قلوبهم لا بألسنتهم.

هل نقصر الأسماء على ما هو مبثوث منها سواء بصيغة المفرد أو الإسم المركب أم نشتق من أفعاله أو بعضها - كما فعل السيوطي وغيره - أسماء؟ وإذا إشتققنا فبأي معيار؟

الحقيقة التي أدين بها هي أن الأسماء الحسنى ليست معينة إسما إسما بكاملها ومن ذا وجب الإجتهاد فيها في إطار ما ورد في النص الصحيح الأوحد أي القرآن أن ننسب إليه سبحانه إسمًا ليس من أسمائه. ثانيا لا بد من تقديم الإسم المركب على الإسم المشتق من الفعل سيما أن الأسماء المركبة عندما تضاف إلى الأسماء المجردة الأخرى الصحيحة تربو عن المائة ومن ذا وجب الإنتقاء بحسب معيار محدد ليس هنا محل البسط فيه. ثالثًا لا أقبل أن نسمي ربنا سبحانه (الضار) هذا لا يليق به سبحانه. إذن يمكن أن نسميه (المضل) إشتقاقًا من الفعل كما فعلنا مع فعل الضر؟.

95

هل أتممت البيعة مع الله؟ (1)

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾[التوبة].

تكريم الإنسان بجعله طرفًا في العقد.

أجل. هو مظهر من مظاهر التكريم أن يكون العبد المخلوق المصنوع المرزوق المملوك طرفا في عقد طوعي قصدي إرادي حر مع من وهب له الحياة وأسبابها. هو من يهب الحياة والمال وهو من يشتريها منك بثمن. في هذه الآية فحسب تقدمت النفس على المال وفيما عدا ذلك نطالب دومًا بالجهاد بالمال ثم بالنفس. الصيغة هنا إخبارية وليست مطلبية. مضمون العقد : القتال في سبيل الله.

القتال في سبيل معناه تحرير الإنسان

لا يقاتل ـ ولا يقتل إبتداء ـ إلا المقاتل أي المعتدي الباغي على حرمات الناس. نشأنا في زمن إنقلبت فيه أشياء كثيرة وورثنا بضاعة فيها الغث والسمين كثيرًا وهجمت علينا دبابات الإحتلال غازية فكريا فكانت الحصيلة تشوه مفاهيم إسلامية كثيرة في رؤوسنا. عندما يكون القتال في سبيل الله لا يكون إلا قتالا لأجل تحرير الإنسان. ولم يكن الفتح الإسلامي السابق سوى حلقة من حلقات تحرير الشعوب المستضعفة من قياصرتها وأباطرتها التي منعتها من سماع الرأي الآخر وهو الرأي الإسلامي الذي بعث به عليه السلام إلى زهاء عشرين مملكة ثم إستأنف خلفاؤه من بعده ذلك. أما عندما يشغب عليك الآخر ليرسخ فيك أن الجهاد رجعية والقتال في كل صوره بغي وعدوان .. فالذنب ذنبك أنت.

تلك سنة البشرية في التوراة والإنجيل

جاءت التوراة بذلك وجاء الإنجيل بذلك كذلك. أي بقتال الباغي وصد المعتدي وليس هو أمر خاص بالقرآن أو بالإسلام أو بنا نحن اليوم. هل نكذب القرآن الذي أخبرنا بذلك هنا في هذه الآية ونصدق محرفي التوراة ومزوري الإنجيل والببغاوات الناعقة؟ القتال لأجل رد العدوان وتحرير الإنسان مسألة فطرية جبلية سبقت الدين نفسه فلما جاء الدين إستند عليها لبناء مشروعه التحرري.

ما هي أساسات الإعداد إرتقاء لمنزلة هذا العقد العظيم؟

1. **التائبون.** حالهم في الحياة حال توبة وأوبة وليس حالة تماد في الغي أو كبر وصلف. التوبة مراجعة لكسب الإنسان كما يفعل التاجر في المساء أو في آخر كل صفقة. التوبة حمام دافئ ساخن يعيد صقل النفس أن تكون نفسًا سبعية (نسبة إلى السبع). لا يحتاج السياق إلى إخبارنا مم يتوب أهل العقد الأعظم. وهل تحتاج لتبرير عندما تغير ملابسك أو تخلد إلى محاسبة نفسك؟ هي عملية دورية تحتاجها النفس كما يحتاج الجسم إعادة تأهيل. بالتوبة فحسب تكتسب القوة الجديدة.
2. **العابدون.** قدم التوبة لأنها لازمة ضرورية لأجل الإقتدار على قطع أشواط أخرى. ثم جاء دور العبادة. كل الأساسات في صيغة حالية وليست هي عمليات عرضية إستثنائية. لا تحتاج هنا لتعدية العبادة إلى الحياة في هذا السياق لأن عبادة الحياة ستأتي ضمن أساس لاحق. العابدون هم المحافظون على وجباتهم الغذائية الروحية المطلوبة من صلاة وذكر وصوم وإنفاق وتفكر وتدبر. حالهم في وضع إنشداد إلى المعبود دومًا فلا ينسى شكرًا ولا صبرًا ولا إستغاثة.
3. **الحامدون.** الحمد فقرة راسخة من فقرات العبادة بل الحمد ثمرة العبادة وبرهانها. الحياة معركة شرسة ويتعرض فيها الإنسان لصنوف من الشر كثيرة وقاسية فلا يهون منها سوى الحمد لله التي (تملأ الميزان). مهما تهاطلت النقم فالنعم أهطل ومهما إزدحمت الأعسار فالأيسار أشد إكتظاظًا فيك سوى أنك تحتاج لعين أخرى تبصر بها. هي عين الفؤاد. الحقيقة أن من رزق نعمة الحمد فبلغ مستوى الرضى

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[المائدة: 119]. فقد قطع في العبادة أشواطًا تقيه الردة والنكوص. الحمد هو منبع السعادة التي لأجلها يقتل الإنسان أخاه الإنسان. كل شيء يمكن أن تجلبه إليك من خارجك ومحيطك إلا الحمد عنوان السعادة فلا ينبت إلا فيك بقلا صغيرًا مثل النطفة ثم ينمو ويشب ويترعرع فيتأبى عن الإقتلاع والمحو.

4. **السائحون.** لم أقتنع يومًا ـ ولن أقتنع ـ بما يتحكم به من كتب في شأن السياحة. لم ألف من قال أن السياحة المقصودة هنا تفهم أولا من معناها اللغوي ثم تنسجم مع مطالب القرآن. تحرج الناس منها في القديم لعدم وجود قيمة السياحة أما في الحديث فبسبب إرتباطها بالسياحة الفاسدة ـ أو المفسدة ـ فإن لي الأعناق لأجل تجاوز معناها الصحيح كان هو الأعم الأغلب. قال الأقدمون كلهم تقريبًا ـ ربما عدا إستثناءات نادرة ضاعت في ركام الرداءة ـ أن السياحة هنا هي الذكر وحسب. السياحة المقصودة عبرت عنها سياقات أخرى تبينها إذ القرآن الكريم يفسر بعضه بعضًا.

لندع ذلك إلى حلقة تابعة.

96

هل أتممت البيعة مع الله؟ (2)

توقف بنا الحديث عن ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾[التوبة: 112]. في الحلقة المنصرمة. السياحة فسرها القرآن الكريم في مواضع أخرى عندما دعا إلى « السير في الأرض ». ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ..﴾[الأنعام: 11]. تكرر هذا الأمر مرات. السير في الأرض يكون سياحة بدنية أي مادية باللحم والدم كما يكون سياحة فكرية عقلية نفسية وهو التذكر والتدبر والتأمل. سياحة متنقلة متحركة وسياحة صامتة. المقصد منهما هو الإعتبار من خلال الإكتشاف والعلم والتأمل. ربما أشكل على بعضهم وصف أزواجه عليه السلام في سورة التحريم بقوله ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾. كيف

تسيح المرأة؟ أليست مكلفة بالإسلام بمثل ما كلف به الرجل على قدم المساواة؟ ذلك فهمي للسياحة وذلك فهمي لقوله ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ هنا و﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ هناك. أما ليّ أعناق النصوص لتتلاءم مع ما ألفناه فلا أدين به.

5. **الراكعون.** لا يكون الراكع في حالة ركوع دائم في حياته بل إن حالة الركوع مرتبطة بالصلاة وهي لا تحتل إلا جزءًا صغيرًا من الحياة وإنما لقيمة الركوع تقديسا لله سبحانه وللمحافظة على الصلاة عرف الراكع بحالة الركوع في الحياة كأنه يمضي حياته راكعًا. الصلاة صورة مصغرة أو دليل للحياة كلها ولذلك تتكرر الصلاة بما لا يحدث مع العبادات الأخرى. فمن فقه الصلاة فقهًا صحيحًا إستقامت حياته سواء كان فرًدا أو أسرة أو جماعة أو أمة. بل إن الصلاة صورة مصغرة للحياة السياسية نفسها.

6. **الساجدون.** الركوع والسجود كناية عن الصلاة. وهما أكثر الصور المادية تعبيرًا عن الإيمان والإذعان والإسلام لله سبحانه. كم من مصل يذكر في ركوعه أو في سجوده أنه يفعل تلك الحركة الممتلئة تقديسًا وتأليها ومسكنة وضعفا وذلة؟ قليل من قليل. والسجود أبلغ في الطاعة بالغيب. حركة تتكرر معنا زهاء أربعين مرة في اليوم والليلة أي بمعدل سجدة كل نصف ساعة تقريبًا على مدار الحياة. ليس أنكى على الإنسان من الغفلة عن مقصود عمله لتضحى الحركات باهتة باردة شاحبة.

7. **الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.** حتى لا نضيع الخيط الناظم لما نحن بصدده فإننا بصدد تحليل الشروط التي تجعل الإنسان مؤهلا لعقد بيعة مع الله سبحانه. كانت الشروط الستة السابقة « التوبة والعبادة والحمد والسياحة والركوع والسجود » عاملة على تأهيل الإنسان بنفسه. الآن جاء دور التأهيل الإجتماعي والسياسي العام. الحقيقة أن الفرقة الإسلامية التي جعلت فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ركنا من أركان الإسلام كانت أصوب من غيرها ولا يحاج ذلك بحديث « بني الإسلام على خمس ». البناء يختص بالأركان الحاضنة فإذا ظل السقف عاريا ما أوى إلى البناء آو. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو السقف الذي يحمي تلك الأركان أو الأعمدة التي تحدث عنها عليه السلام في حديثه الصحيح. تلقينا

ثقافة مشوهة عمادها الخلاص الفردي أي العبادة الشخصية دون الإهتمام بالناس. الإتجاه الإسلامي في الإتجاه المعاكس لذلك بالكلية. الإسلام ليس مسيحية يحرص على صلاح الفرد فحسب بل هو دين يحرص على صلاح الفرد تأهيلا له لإصلاح المجتمع فالصلاح الفردي ليس مقصودا لنفسه بل مقصود لغيره وهو صلاح الناس. المعروف والمنكر من أوسع الكلمات دلالة مثلهما مثل الخير والشر والفضيلة والرذيلة والحق والباطل والتقوى والفجور. فلا يند عنهما حقل لا سياسي ولا مالي ولا إداري ولا قانوني ولا علمي ولا عملي ولا داخلي ولا خارجي. ربما يكون حكمهما أنهما فريضة كفائية ولكن بشرط واحد هو أن تتوفر الأمة على العدد والعدة الكافيين منهما لضمان وحدة صفها وحصانة هويتها وحماية بيضتها فإن لم يكن ذلك كذلك فالإثم يغشى الجميع دون ريب. ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾[سورة العصر]. فمن نبذ التواصي بالحق وبالصبر ـ بل وبالمرحمة كذلك ـ فلا يأمن على نفسه الخسران يوم القيامة فلا يغنيه يومها أنه كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

8. الحافظون لحدود الله. حدود الله كلمة يخطئ فهمها أكثرنا اليوم إذ تنصرف إلى العقوبات الدنيوية وهذه لا تسمى حدودًا. علينا إتباع دقة التعبير القرآني لندرك أن الحدود هي التي ثبتها هو نفسه في حديثه عن مباشرة المرأة في حالة إعتكاف وعن إلتزام أمره في تقسيم التركات (الإرث) وعن الطلاق سواء في عدده أو في عدده (بضم عين وفتح أخرى). تلك هي مواضع الحدود في القرآن الكريم وكلها متعلقة بالأسرة والمرأة. الحدود في الشريعة أعظم شأنا من المحرمات. تلك الحدود تعمل في الإنسان وحياته القيمية عمل الحدود البرية أو البحرية بين البلدان فهي تحمي حمى الإسلام كما تحمي الحدود المادية حمى البلدان.

خلاصة الأمر.

لا يترشح لإبرام العقد الأكبر مع الله سبحانه سوى من وفى قدر الإمكان بتلك الشروط الثمانية (التوبة والعبادة والحمد والسياحة والركوع والسجود والأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر وحفظ حدود الله). فمن قصر حياته أو عبادته على التوبة وغيرها ونبذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بما تيسر له وتسنى فلا يترشح لإبرام أشرف عقد وأغلى بيعة. ومثله من تعدى الحدود الحامية لحمى الإسلام كمن يجادل في الإرث بين النساء والرجال. مثل هذا لا يعرض نفسه للقتل في سبيل الله أي تحريرا للإنسان المنكوب في كرامته أو بطنه أو عرضه أو عقله أو وطنه أو أمنه.

97

المقاومة السياسية عمل صالح.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾[التوبة].

عقبتان تعيقان الفهم الصحيح : اللسان والتاريخ.

هل كان على الوحي أن يثبت كلمات (سياسة وإقتصاد وعلاقات خارجية ودستور وإدارة ومقاومة إلخ ..). حتى نقتنع أن رسالة الإسلام تشمل كل ذلك؟ هل كان ذنبه أن يعبر عن السياسة والشأن العام كله بلفظ (الأمر)؟ هل كان لا بد أن يحوي كلمة (الدولة) حتى نعد الدولة مطلبًا إسلاميًا لتفعيل مقاصد الإسلام ولتكون محروسة مصونة؟ ألمي شديد أننا عرب بلا عروبة. أي رصيد لنا من العروبة التي لو غمزنا فيها غامز وأدناه؟ أي عروبة واللسان أعجمي هجين؟ ألم نع بعد أن اللسان وسيلة تواصل وأن مبانيه المادية المنطوقة لها مرادات ومقاصد ومفاهيم ومعان فلا ينحبس فيها السامع بل ينفذ إلى رسالة المتكلم؟ تلك هي عقبة اللسان التي تعيقنا أن نظفر بالفهم الصحيح المراد. أما عقبة التاريخ فهي أن الأيام والليالي (قيم الزمان والمكان) هي التي صنعت للإسلام مجدا

ولأمته سؤددًا. التاريخ مصنوع لا صانع. الإنسان يصنع التاريخ وليس التاريخ يصنع الإنسان. أكثر المسلمين اليوم يظنون أنهم لو عاشوا معه عليه السلام أو في القرون الخيرية الثلاثة الأولى (الأجيال) لكان كسبهم خيرًا مما هو عليه الآن. تلك هي عقبة التاريخ. عندما نصاب بالداءين معًا : داء اللسان وداء التاريخ يكون العبء باهظًا.

مقاومة المشاكل ومواجهة الصعوبات : عمل صالح بالتعبير القرآني القح.

ألم يترسخ فينا جميعًا أن العمل الصالح هو العمل الفردي بينك وبين ربك من صلاة وصيام وصدقة سرية وطواف فحسب؟ الصالحات في تديننا الأخرق هي الصلاة والصيام والزكاة والحج وربما تلاوة القرآن وبر الوالدين وصلة جار وإحسان إلى يتيم. من يملك المعيار؟ نحن أم الله؟ إذا سلمنا بأنه هو من يعيّر الصلاح من الطلاح أو المقاومة من القعود فإنه هو نفسه سبحانه يقول لنا أن النيل من العدو ووطء حماه وما يلقاه المقاوم في ذلك من جوع وعنت هو عمل صالح. عمل صالح مكتوب أي موثق مدون لا يضيع. بل عد ذلك إحسانًا إذ كانت الفاصلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[التوبة: 120]. هو عمل المحسنين والإحسان هو أرقى وأجود أنواع الإسلام والإيمان. ومثله الإنفاق الذي تقتضيه تلك المقاومة ومهما كان المال أو الجهد المنفق صغيرًا أو كبيرًا. هل كان لا بد أن يتحدث القرآن عن أساليب عصرنا من قطع العلاقات الدبلوماسية مثلا مع عدو مغتصب بل قطع الأودية؟ هل كان لا بد له أن يعين العدو المقصود بالإسم لحما ودما حتى نهب إليه مقاومين؟

ملابسات الآية وخلاصات أخرى.

1. جاء هذا تعقيبًا على تخلف بعض المسلمين عنه عليه السلام في واقعة تبوك فهو تحريض وحض ينبض تأنيبًا ويؤكد أن مقاومة الروم الذين ينوون غزو المدينة عمل صالح.
2. من يتخلف عن أي مقاومة لا بد أن يظفر بأكثر من صاحبه النافر إليها صلاة وسجودًا وتلاوة وصوما ولكن الأجر يقاس بالكيف لا بالكم كما يقاس بنظرية إبن القيم (واجب الوقت) فما أوجبه الوقت أي الحاجة والضرورة والواقع والتحديات

المعاصرة بتعبيرنا المعاصر أولى من بقية العبادات التي تخضع هنا للقصر والجمع والتأجيل وغير ذلك مما يفسح المجال لمقاومة الشرور الكبرى والضرر الأعظم.

3. إلا من حبسه حابس قاهر عن الإنخراط في مقاومة القهر والظلم والإستبداد والفقر والجهل والتخلف والإحتلال والفرقة فقد قال فيه عليه السلام في هذا الموقع نفسه أن من إخوانكم ممن حبسهم المرض في المدينة لا تقطعون واديا إلا شاركونا الأجر. عند العجز يظفر صاحب النية الحسنة بالأجر كاملا. أما عند القدرة فيقتسم الثواب بحسب التقدم والتأخر فمن تقدم نال ومن تأخر حرم.

4. **ولكن إنتبه إلى هذه الحقيقة الشرعية** : جاء هذا العتاب في ثوب تحريض في سياق ما سمي قديمًا جهاد الطلب أي خارج الحدود ولذلك لم تكن فاصلات الآي (نقول الآي والآية) تحمل تهديدًا ووعيدًا. ولو كان الحال مقاومة لعدو داهم الدار لكان الحكم الشرعي : الوجوب الحتمي العيني المباشر والفوري ولا يعد المتخلف إلا خائنا يعامل معاملة الخونة في الدنيا والله ينصفه يوم القيامة إن كان ظاهره الخيانة وباطنه الصدق. (الحكم الدياني والقضائي).

بالتعبير المعاصر : أفضل عمل إسلامي اليوم هو مقاومة القهر.

ذلك ما إنتهيت إليه بعد رحلة علم متواصلة حتى أموت. ليس هناك عمل يحوز فضلا ويظل على فضله ذاك في كل حال وزمان ومكان. لا يكون العمل حسنًا - وليس صالحًا فحسب - حتى يلبي حاجة تطحن الإنسان. فريضة المؤمن اليوم - فردًا وجماعة - هي (جهاد الكفار بالقرآن). الجهاد معناه بذل أي جهد مادي أو معنوي لأجل تحرير الإنسان ولا ضير علينا أن نسميه اليوم مقاومة لا نفورًا من كلمة الجهاد ولكن توسلا إلى حسن الفهم عند الناس إذ العبرة بالمقاصد لا بالمباني. الكفار هم الظالمون بغض النظر عن دينهم ولسانهم وقربهم وبعدهم منا. الإسلام يقاوم الظلم ويهدي الكفر. لا يميز بين ظالم مؤمن وظالم يهودي. يقر الكافر على كفره إنسانًا ويرزقه ويعامله معاملة المؤمن في الدنيا ولا يقره عليه دينا ولكن الحساب مؤجل إلى يوم القيامة إلا إبتلاء يتعرض له الكافر والمؤمن سواء بسواء. الإسلام يقاوم الكافر الظالم لغيره ولا يقاوم الكافر المسالم

إلا مقاومة فكرية بالحسنى. الجهاد بالقرآن معناه الإلتزام بأخلاق القرآن في الحرب والمقاومة والجهاد أي تحريره ليكون في سبيل الله أي ليكون مقصده الأسنى تحرير الإنسان من القهر بقمع الظلم عنه.

98

التفقه في الدين فريضة كفائية لا عينية.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: 122].

لم يستخدم لفظ (النفير) في القرآن الكريم إلا للدلالة بالعبارة المباشرة على الجهاد وعلى التفقه في الدين. النفر حركة إنطلاق جماعية كما تدل على حركة إنطلاق فردية إلى مكان بعيد. يكون النفر في الحج عندما يكون الحجاج في حركة واحدة لإنضباطها بتأقيت موحد في عرفة إليها ومنها. المسافة قريبة ولكن الحركة جماعية فهي نفرة. وتقول نفر بعيري أي ند وشذ إلى مكان بعيد. طلب التحرير (الجهاد) وطلب التفقه كلاهما يتطلبان نفرة أي حركة إنطلاق قوية وكبيرة وبعيدة. تحرير الإنسان من القهر أو من الجهل يحتاج وقتًا.

سياق التفقه في الدين هنا سياق مهم جدًا.

جاء سياق هذه الفريضة الكفائية هنا معقبًا على قصة المخلفين الثلاثة عن تبوك إذ بعد سياق تأنيبي تحريضي دعا سبحانه إلى النفير لأجل التفقه في الدين والرسالة هي : عوا جميعًا وتعلموا أن التخلف عن المقاومة سيما عندما يكون الخطر بكم محدقًا سببه عدم الفقه الكافي بأن رص الصف الإسلامي الواحد المتنوع فريضة دينية شرعية عظمى وأن تخلف ثلاثة فحسب عن المقاومة في تبوك التي لم يجر فيها قتال أصلا لن يعضلها ولن يعيقها ولكن العبرة بالإعتصام بالصف الواحد يتحرك معه العضو أينما إتجه. ذلك هو معنى التفقه في الدين أي فقه عظائم الدين وكبائر الدين وعزائم الدين وعقائد الدين

ومعاقد الدين وكليات الدين وأصول الدين ومدار ذلك كله : توحيد الله سبحانه وتحرير الإنسان ورص الصف. وذلك بخلاف ما نعتقد نحن اليوم أي أن التفقه في الدين هو فقه فروعه وجزئياته ومتشابهاته وصغائره ونوافله ومستحباته. إذا جاز لنا اليوم فقه مثل هذه الصغائر فلا يكون ذلك إلا عندما نحكم الأصول الثلاثة العظمى في الدين : فقه العقيدة قيامًا على التوحيد الصافي من كل شائبة شرك وفقه الإنسان تكريمًا وتحريرًا من كل ربقات الإسترقاق والإستعباد وفقه الجماعة وسياستها بالصف الواحد المرصوص رصا يداول التشاور والديمقراطية ويحفظ المقدسات والخصوصيات معًا. ذلك هو السياق الذي تنزل فيه التفقه في الدين نفيرًا إليه وهو سياق الفقه السياسي الأعظم الذي أهملناه وعددناه نافلة بل مكروهًا أصلا عند بعض الفرق الإسلامية الكبرى المعاصرة مثل جماعة الدعوة والتبليغ على بركة جهدها وعظيم قدرها في مواضع أخرى وحقول نحن في حاجة إليها.

موازنة الإسلام بين تحرير الإنسان من القهر المادي والقهر المعنوي.

الإسلام عنوان الوسطية والإعتدال والتوازن. تحدث عن مقاومة الروم وغيرهم من الغزاة غزوًا عسكريًا وحرض الناس ونزل الأحكام وأقام التعاليم ولم يفته أن يعلن أن الإنسان بحاجة إلى تحرير من نوع آخر هو تحرير معنوي فكري عقلي ذهني من الغزو الفكري نفسه وهل الجهل بالدين في أصوله لا في فروعه وفي كلياته لا في جزئياته إلا غزوا فكريًا. ها هي (داعش) اليوم ومن قبلها (القاعدة) وأمثال لهما في الأمة قديما وحديثا تستعرض عضلات الجهاد المادي فما هي أرصدتها من الجهاد الفكري لتقديم وجبات عقلية دسمة تجعل الإنسان إنسانًا أولا ثم مؤمنا ثانيا إن شاء أو إنسانًا كافرًا مسالمًا على الأقل. أرصدتهم في ذلك أصفار مرصوصة على الشمال كما يقال. الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يقاد من عقله وليس من رقبته أو رجله أو يضرب ذيله بالنعال حتى يغذ السير. أعظم قاعدة في الإسلام أن إيمان المكره لا يقبل لأن الإكراه على الإيمان إكراه على النفاق والنفاق في أحط موضع من النار يوم القيامة لأن صاحبه لم يفقد عقله فسحب فلم يؤمن بل فقد كرامته وحريته فأضحى بيدقا تحركه الأيدي والأنامل أي الأطماع والأحقاد.

أصل الكلام (وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد كافة..) لأنه سياق حض على الجهاد.

ولا ضير علينا تحت سقف الأمة وفوق أديم المساواة الآدمية أن نكون فرقا وطوائف. المعيب هو التفرق وليس الإنقسام إلى فرق متآلفة والمعيب هو (التطيف) أي تحولنا إلى طوائف متناحرة أو حتى غير متعاونة بما فيه الكفاية لحماية الصف الواحد المرصوص. نحن بالضرورة الجبلية فرق وطوائف. أي شعوب وقبائل متنوعة لأجل التعارف فإذا كنا فرقًا وطوائف وشعوبًا وقبائل لا نسعى لتوطيد أركان التعارف كنا عصاة دون ريب وهو عصيان نجني إثمه في الدنيا إحتلالا وإستضعافًا. مشكلتنا اليوم مع الشيعة مثلا أنها خرجت من الدائرة المذهبية الفقهية الأصولية لتكون طائفة سياسية بل طائفة عنصرية فارسية في بعض الأحيان وبؤرة تزرع التوتر وتصنع الفرقة وتغري بنا العدو.

ما هو التفقه في الدين ولأي مقصد وما معنى واجب كفائي.

1. **المطلوب هو التفقه** وليس مجرد التعلم أو الفهم لأن الفقه في كل شيء هو العلم به علمًا بدليله جامعًا لا مجتزءًا ومتكاملا لا مشوهًا أحول وعميقًا لا ظاهرًا مسطحًا. لذلك عاب المنافقين بأنهم لا يفقهون لعدم فقههم الإسلام والحياة في أصولهما العظمى وليس في التفاصيل وأي علاقة بين المنافق وفقه شروط الزكاة مثلا؟ لا علاقة.

2. **الدين مساحتان متكاملتان مختلفتا المستوى** : مساحة الكليات العظمى وهي تشمل العقائد الأصلية لا الفرعية والقيم المؤسسة الكبرى للإنسان لمباشرة رسالة التزكية الجامعة عقلًا وروحًا ورسالة التعمير والعبادات والمقاصد كفيلة بإقامة كل ذلك. ومساحة الجزئيات الصغرى وهي كثيرة لا تحصى والعبرة بردها إلى كلياتها وتجاوز الخلاف فيها لأنها مؤهلة أصلا للخلاف وأكبر عبرة هي : جعل الكليات حاكمة على الجزئيات والعقائد على الأعمال والمقاصد على الصور فمن قلب هذا السلم ما ظفر من فريضة التفقه في الدين بقلامة ظفر. تلك هي المشكلة الفكرية الأولى لأغلب الطوائف السلفية اليوم التي تأخذ الدين من السنة أولا لا من القرآن في سلم مقلوب وتعظم شأن الجزئيات وتؤخر شأن الكليات.

3. المقصد محرر من القرآن نفسه حين قال ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ﴾[التوبة: 122]. أي أن التفقه في الدين وظيفة إجتماعية عملية وليس ترفًا فكريًا أو إستواء على المنابر ولا

على الأرائك الوثيرة كمن يعود طبيبًا. الفقيه يعود الناس ولا يعوده الناس. الفقيه طبيب إجتماعي متنقل. لم قدم النذارة هنا ولم يأت ببشارة؟ لأن العناية من الشريعة بالمحرمات أكثر من العناية بالواجبات والمباحات وأحرم المحرم في الحياة والإسلام : العدوان على حرمة الإنسان.

4. التفقه في الدين ـ أصولا وعقائد وكليات أولا ـ واجب كفائي لأنه يتطلب التفرغ والنفير ولا يتسنيان لكل أحد. نحتاج فقيهًا واحدًا على كل ألف ساكن مثلا بمثل ما نحتاج لمثلهم طبيبًا واحدًا ومهندسًا واحدًا ومحاميًا واحدًا إلخ.. التخمة في عدد الفقهاء ضارة مضرة كالتخمة في الأكل.

99

حوار مع السلفية المغشوشة (1)

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[التوبة: 123].

هذا حوار إفتراضي معهم على أساس فهم هذه الآية. تكون السلفية مغشوشة عندما تكون سلفية جهادية تعلن الحرب على المؤمن والكافر والظالم والمسالم (القاعدة وداعش مثالًا) وعندما تكون سلفية علمية تقوم بالدور ذاته الذي قامت به الكنيسة تحالفًا مع القيصرية في أروبا حتى ضج الناس وثار العلماء ونجحت النهضة الأروبية أي عندما تكون وظيفتها شرعنة الحكم القهري الإستبدادي بغض النظر عن أصله الوراثي العشائري أو الملكي أو العسكري الأشنع (حزب النور المصري مع السفاح السيسي) ثم تزيد على ذلك إفكًا فظيعًا بإصدار الفتاوى والكتب المحرمة ـ تحريما فقهيا حقيقيا لا مجازا ـ للثورة الشعبية حتى عندما تكون سلمية مثل ثورات الربيع العربي الأخيرة التي ساهمت في إغتيالها السلفية. وعندما تكون سلفية حركية سياسية مسلكية تخرق المنهاج

الفكري في حسن الفهم ودقة الفقه لتحكم الجزئيات في الكليات والفروع في الأصول والأعمال في المقاصد لتحشر الناس في الإهتمامات الضيقة التي ضج به الماضي الرحب من مثل تعظيم الإهتمام بعلامات الساعة وهي ظنية على ما أعد الناس للساعة نفسها وهي قطعية ومن مثل معاملة المرأة أنها كائن منقوص متأخر عن درجة الرجل ومعالمة الغرب أنه شر كله وهو مصدر القوة العلمية والمعرفية التي بها اليوم تحتل أرضنا عسكريًا ويفرض عليها التخلف والفقر واللجوء. كما تكون السلفية مغشوشة عندما تقدم نفسها أو يظن الناس أنها مذهب فقهي أو أصولي وهي في الأعم الأغلب دياجير من الجهل والأمية وإنحدار الوعي وغياب الفهم. لذلك أعد السلفية المغشوشة اليوم شقيقة السلفية الأروبية إبان المعركة الدامية المعروفة أو هي القراءة الإرتدوكسية للإسلام أي قراءة الأنا لا قراءة الأمة وقراءة المنع لا قراءة الإباحة وقراءة الماضي لا قراءة الحاضر وقراءة العدم لا قراءة الأمل وقراءة التكفير لا قراءة التفكير وقراءة التنفير لا قراءة التبشير وقراءة التعسير لا قراءة اليتسير وقراءة الأخرة لا قراءة الدنيا وقراءة القبر لا قراءة الحياة. السلفية المغشوشة هي صنو العالمانية الإستئصالية المتطرفة. كلاهما ينهش الإسلام من جهة. يختلفان في الإتجاه والمنطلق ثم يلتقيان في النتيجة : نقض صف الأمة الواحد المتنوع ليتسلل إليه العدو. لم ألف في حياتي أكفر بقيمة التنوع وإرادة الإختلاف وناموس التعدد وهي مشيئة إلهية ماضية من السلفية المغشوشة. يقيني أن من نبذ فقه الإختلاف الذي هو قيمة قرآنية تنبذه الحياة.

القتال : كلمة السر وعمدة الفقه عند السلفية المغشوشة.

محاولة للغوص في عقل سلفي إنطلاقا من هذه الآية. الآية صحيحة صريحة في دعوة المؤمنين كلهم إلى قتال الكفار الذين يلوننا كلهم أي جيراننا الأول فالأول والأدنى إلينا فالأدنى. وليكن قتالا غليظا لا رحمة فيه ولا شفقه. ذلك هو ظاهر الآية الذي يحبس فيه السلفي نفسه ثم يباشره.

1. **لا يسأل السلفي نفسه** : هل نفذ عليه السلام هذا الأمر أم لا؟ عندما يتعلق الأمر بتفريغ شحنات الحقد ضد الإنسان يقدم السلفي القرآن على السنة والقرآن عام

ظاهر نادرًا ما يتفرغ للتفاصيل إلا في الأسرة لأنها أمر ثابت ولا بد من فهمه على ضوء السيرة لأنها بيان له. أما عندما يتعلق الأمر بالتشديد على الناس ودوما تحت مطارق العقد النفسية التي يعيشها السلفي داخله فإنه يقدم السنة على القرآن لأن السنة تتعرض لحالات كثيرة واقعية تعالجها فهي لا تعطي وصفة نهائية لكل داء بل تعالج كل حالة بمفردها هذا فضلا عن كونها ظنية في تفاصيلها وتخضع لعلم مقامات المشرع الذي يجهله السلفي في العادة.

2. هل قاتل عليه السلام الذين يلونه من الكفار؟ أبدًا. ظل في مكة معتصمًا بإستراتيجية البلاغ المبين والصبر الجميل ولما هاجر ظل مدافعًا عن دولته بالمدينة ضمن حلف سياسي وطني يخضع لعقد سياسي موثق مكتوب شارك فيه اليهود كلهم وغيرهم. في بدر كان يريد إسترداد ماله فأراد سبحانه ذات الشوكة وقاتل قريشًا الغازية على أرضه هو وليس على أرضها هي. ولو نجت قافلة أبي سفيان ولم تأت قريش متبرجة لما قاتلها. وفي أحد قاتل قريشًا دفاعًا عن دولته في المدينة وأحد على مرمى بصر منه. وفي الأحزاب قاتل قريشًا وغطفان دفاعًا عن دولته كذلك مرة ثالثة تحت وابل من التحالف العسكري العربي الأكبر بل سعى إلى الصلح بتمكين غطفان من ثلث ميزانية الدولة. وفي قتال الإسرائيليين من بني قينقاع وبني المصطلق وبني النضير وبني قريظة لأنهم خانوا الدستور المدني الذي وقعوا عليه أحرارًا غير مكرهين إذ إعتدى هؤلاء على إمرأة في السوق فسار ثأرًا لحق المرأة في حفظ عرضها وكرامتها وخطط أولئك لإغتياله بصخر يسقط عليه من فوق حصن فأجلاهم ولم يقاتلهم ولم يقتلهم وفي الخيانة الوطنية العظمى لبني قريظة - إبان الخندق - حكم فيهم صديقًا مؤمنًا لهم فقتل الرجال ولم يمس إمرأة واحدة ولا ولدا بسوء. قاتل الإسرائيليين كلهم لأجل الخيانة والغدر وليس لأجل دينهم ولا لمعتقدهم. كيف وقد بنى بهم الحكم الإئتلافي أول مقدمه إلى المدينة؟ وكان يسير السرايا إستباقًا أمنيًا وإستعلامًا عسكريًا فحسب تحوطًا وحذرًا أن يصاب بغدرة في محيط متربص بالدين الجديد.

3. ولما فشلت المخططات المتكررة لإستئصاله من بدر إلى الخندق مرورًا بأحد عربيًا ومن بني قينقاع إلى بني قريظة إسرائيليًا رتب لتفاهمات سياسية مع قريش فكانت الحديبية

التي عبر فيها بعقد سياسي سلمي يضع أوزار الحرب عقدًا كاملا عما يدهش فعلا وحقا من حسن فقه للتوازنات السياسية وكيفية توظيفها لإحلال الأمن والسلم بين الناس حتى عد الصحابة ذلك إجحافًا في حقهم وقبل بحق الردة لمن شاء من أصحابه راجعًا إلى قريش في سابقة دينية سياسية لن ـ أجل. لن نافية المستقبل ـ يطأها عقل إنساني حتى يوم القيامة مهما إدعى من التقدمية والتنور والإنفتاح والقبول بحق الآخر والتعدد.

100

حوار مع السلفية المغشوشة. (2)

4. قبل أن يعود عن رحلته التعبدية إلى البيت الحرام معتمرًا. أجل (الدين) وقدم التفاهمات السياسية بينه وبين قريش. أليس كذلك؟ من يقوم بمثل هذا اليوم يعد فينا منبطحًا خائنًا. ألا ما أتعس وعينا وما أبأس رشدنا. نريد دينا يوجه السياسة بفقه مخالف للفقه النبوي. نريد أن نكون أنبياء جددًا. ثم تحالف مع قبيلة خزاعة المشركة تحالفًا سياسيًا وقدر ربك سبحانه لحكمة أن تعتدي قريش على خزاعة فكان لزامًا عليه وفاء بعهده السياسي أن يغيث إستصراخ حليفه المشرك فذهب إليه ينصره ضد مشرك. أرأيت عالم السياسة؟ نبي ينصر مشركًا على مشرك لأجل الوفاء بعقد سياسي سابق. فكان فتح مكة. إذ إستسلمت قريش المنهكة من بعد هزيمة الأحزاب المدوية. وفي أثنائها أجار مشركين أي منحهم اللجوء السياسي. وأعلن العفو النبوي العام.

5. دانت إذن له شبه الجزيرة العربية دينونة سياسية بوفود قبائلها وأذن لوفد مشرك وآخر مسيحي (نجران) بالصلاة في مسجده بحضوره. آن أوان التفرغ للجبهة الرومية من بعد تراجع الإسرائيليين عسكريًا بما قدمت أيديهم من خيانات وغدرات ومن بعد فتح مكة وإندحار قريش وقبل الإسلام الإسلام السياسي ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[الحجرات: 14]. خطوة متدرجة لبسط الأمن

والسلام أولا حتى يؤمن من شاء الإيمان ويكفر من شاء الكفر فلا يخاف هذا إكراها ولا يخشى ذاك فتنة. ذلك هو مقصد الإسلام.

6. وصلته أنباء تحرش من الجبهة الرومية في الشمال فكانت مؤتة ثم تبوك. ما العمل الآن وقد أسلمت شبه الجزيرة العربية بالكامل إما إسلامًا حقيقيًا أو إسلامًا سياسيًا أي إعترافًا بالدولة الجديدة وإنضواء تحت سقفها وترهيب الروم؟

هل قاتل إذن عليه السلام من يليه من الكفار؟

1. الآية تأمره ظاهرًا بذلك. لم يقاتلهم. بل بعث إليهم بسفراء مدججين بكتب مختومة عنوانها « أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم ..». أي : أدعوك إلى الإسلام تسلم من العذاب يوم القيامة فإن أبيت فعليك إثم نفسك وإثم الشعب الذي تحكمه (الأريسيين مثلا). رسل وكتب ناهزت عشرين بعثة من شرق الأكاسرة إلى غرب الرومان وحتى غساسنة مصر. هل نفذ عليه السلام ـ إذن ـ الآية الآمرة إياه بقتال من يليه من الكفار أم لا؟ طبعًا لا. لم؟ لأنه لم يفهمها كما نفهمها نحن اليوم؟ ترى فهم من أولى؟ فهم داعش والقاعدة أولى طبعًا؟؟؟

2. بل لم يبدأ قومًا أبدًا بقتال ولا قتل. بل ظل مقاومًا عن حقه في الوجود وحقه في الدعوة السلمية. كانت ضحية السيف ولم يستخدم السيف لإكراه على دين ولو يومًا واحدًا. هذه سيرته وسنته بيننا حية نابضة. لم الإفتراء عليه إذن والبهتان؟

3. ما هو معنى الآية إذن؟ معناها أن المؤمنين يومئذ مدعوون إلى قتال الروم في تبوك إمعانًا في عتاب وتأنيب المتخلفين عنها وتحريضا لهم جميعًا على عدم التخلف عنه عليه السلام. لأن القرآن لا بد لحسن فهمه من مناسبة النزول ومعرفة مكان الآية هل هي مدنية أو مكية. عندما تخرج هذه الآية (آية التوبة التي نحن بصددها) عن سياقها نخرج نحن عن ديننا فنقاتل الآخر ظلمًا وعدوانًا. معناها أن الكفار المعنيين في الأعم الأغلب سيما بالقتال هم المعتدون وليس هم الكافرون المسالمون. إذا كانت السلفية تعد إبن تيمية علمًا من أعلامها فإن الرجل نفسه هو الذي قال ذلك ورب

الكعبة. يأخذون من كل عالم ما يناسب أهواءهم فحسب. سمي الظالمون يومها بذلك لأن أغلبهم كافر وهو تعبير مجازي فيه عند العرب زهاء خمسة عشر لونا منه : الكناية بالأغلب.

4. إحترامي لرجل يقول أن القرآن متناقض أكثر من إحترامي لدعي ينفي ذلك ولكنه يعمل بما يناسب هواه هو فحسب. القرآن يقول في موضع ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾[المتحنة: 8]. وفي موضع آخر ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ ﴾[التوبة: 123]. أليس هذا عين التناقض؟ أجل. هو تعارض ظاهري يحسم بفقه قوامه مناسبة النزول وتبين المكي من المدني والناسخ من المنسوخ والمحكم من المتشابه كما يحسم بالفعل النبوي الذي هو بيان له ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[النحل: 44]. لولا بيان السنة لضللنا فعلا والله وهلكنا. لذا لا مناص من تحكيم السنة والسيرة لحسن فقه الكتاب. ما هو المطلوب إذن؟ نقاتلهم بغلظة أم نبسط إليهم أجنحة البر والقسط؟

5. عجب عجاب أن يعتصم السلفي المغشوش بعياء فكري لا سابقة له في التاريخ فلا يميز بين القتل وبين القتال. القتل عدوان دومًا إلا قصاصًا. أما القتال فهو مشاركة فلا يقاتل إلا المقاتل وإذا قوتل المسالم حتى لو كان مشركًا أبًا عن جد وكافرًا كابرًا عن كابر فهو ظلم. ﴿ قَٰتِلُوا۟ ﴾ معناها : قاوموا القتل الذي تتعرضون له وليس أنشؤوا قتالا أو قتلا.

6. إذا كان قتل الكافر لكفره فكيف نؤمر بإجارته في السورة نفسها (التوبة)؟ كيف يقبل نبي الإسلام عليه السلام أن يكون مجارًا من مشرك ولسنوات طويلات عند عمه ولدى مشركين آخرين؟ كيف يستأمن مشركًا على رحلة الهجرة السرية الخطيرة؟ كيف يعفو عنهم في فتح مكة عفوًا عامًا؟ كيف يمضي مع اليهود وثيقة سياسية؟ ومع قريش أيضًا في الحديبية؟ كيف يبيح لنا نكاح نسائهم ليكون الكافر خالا لولدنا عليه بره؟ كيف يبعث إليهم وقد إنتصر بسفراء وكتب وليس بجيوش جرارة تحمل الموت؟

خلاصة : في نفسي معركة محتدمة حول السلفية المغشوشة. أقول حينا رؤوس هؤلاء مجندون لخدمة أهداف معروفة بأجر والأتباع ذيول وأذناب حسبهم التقليد الأعمى إذ هم أسياف ضد الصوفية وأتباع السلفية صوفية أقحاح إذ هم موتى بين أيدي مغسليهم. وأقول حينا آخر هؤلاء ـ سيما الأتباع أما الرؤوس فقد بدأت الأيام تكشف أمرهم ـ فاقوا الجهل جهلا فأتبعتهم الحماقة راغمة. ألم يقل لي أحد زعمائهم في جبل الجلود لما كنت خطيب جمعة هناك 2013 أن السلفية هي الإسلام لقوله سبحانه ﴿مَاسَلَفَ﴾[البقرة: 275] ؟ الله العظيم أشهده على صحة ذلك بالحرف لحمًا ودمًا. السلفية هي الإسلام الحق لقوله ﴿مَاسَلَفَ﴾.

❁ ❁ ❁